آسيا جبار

ترجمة جماعية بإشراف: عبد القادر بوزيده

# نساء الجزائر في شقّتهن

مكتبة نوميديا 219
Telegram@Numidia_Library
Hibr الحبر

**ترجمة جماعية بإشراف:**

**عبد القادر بوزيده**

بخوش صالح

أبرباش صبرينة

أسماء عزّي

بلآمين نصيرة

بوزيده سناء

كروري طارق

كواتي أمينة

لولي نسرين

المجيرة نسيمة

طوايبية نجيب

Cette publication est le fruit d'une formation à la traduction littéraire organisée à Alger et à Paris dans le cadre de l'accord de coopération entre le Centre national du livre algérien et le Centre national du livre français, en partenariat avec l'Institut Français d'Algérie.

هذا المنشور هو نتيجة تكوين في الترجمة الأدبية التي نظمت في الجزائر وباريس في إطار اتفاق التعاون بين المركز الوطني الجزائري للكتاب والمركز الوطني الفرنسي للكتاب، بالاشتراك مع المعهد الفرنسي بالجزائر.

CNL CENTRE NATIONAL DU LIVRE

INSTITUT FRANÇAIS ALGÉRIE

وزارة الثقافة | CNL CENTRE NATIONAL DU LIVRE | المركز الوطني للكتاب

آسيا جبّار

# نساء الجزائر في شقّتهن

ترجمة جماعية بإشراف:

عبد القادر بوزيده

بخوش صالح — أبرياش صبرينة

أسماء عزّي — بلاّمين نصيرة

بوزيده سناء — كروري طارق

كواتي أمينة — لولي نسرين

المجيرة نسيمة — طوايبية نجيب

الحبر

عنوان الكتاب : **نساء الجزائر في شقّتهن**

ترجمة : **ترجمة جماعية بإشراف عبد القادر بوزيده**

© حقوق النشر محفوظة لحبر للنشر - الجزائر - 2017.

ردمك: 978-9931-514-68-8

الإيداع القانوني: السداسي الثاني، 2017.

# مقدّمة

أُنجزت هذه الترجمة في إطار تعاقد تمّ بين كلّ من المركز الوطني للكتاب (الجزائري) والمركز الوطني للكتاب (الفرنسي)، تجسيدا للإتفاق حول التعاون الثقافي بين البلدين. استقر الأمر على ترجمة عمل أدبي من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية وتم، عن قصد، اختيار عمل لإحدى أهم المبدعات الجزائريات، آسيا جبار، صاحبة المجموعة القصصيّة: "نساء الجزائر في شقّتهن". كُلّفت لجنة الإبداع والترجمة التابعة للمركز الوطني (الجزائري) للكتاب بتنظيم العملية في الجزائر، وتم اختيار عدد (10) من المترجمين الشبان، بعد مسابقة تمّت على أساس ملفات تقدّم بها المتسابقون ونظرت فيها لجنة من المركز الوطني (الجزائري) للكتاب وممثل عن المركز الوطني (الفرنسي) للكتاب. وكلّفت أنا بتنشيط ورشة مع الناجحين في المسابقة لترجمة العمل الذي وقع عليه الإختيار. وكان قد تم الإتفاق بين المركزين على تنظيم عشر ورشات في الجزائر تليها ورشات أخرى في فرنسا.

في لقاء بين المشرف على الورشة التكوينية والمترجمين الشبان الناجحين في المسابقة، تم الإتفاق على استراتيجية الترجمة: توخّي الدقة ما أمكن لكن مع الحرص على إبراز الخلفية الثقافية الجزائرية التي شكلت مكوّنا أساسيا في مؤلّف آسيا جبار. وكان التحدّي المطروح على المجموعة: كيف يمكن نقل نص آسيا جبار إلى العربية، علما بخصوصية أسلوبها في الكتابة المنحوت نحتا الذي يبتكر طرقا في التعبير غير جارية؛ أسلوب يعجّ باستعارات غير معهودة تفاجئ القارئ وقد تصيبه أحيانا بالدوار وتفتح أمامه عوالم ما كان يتوقّعها. أسلوب أقرب إلى الصياغة الشعرية أحيانا، متقطع متوتر أحيانا قد تطول فيه الجملة تتخلّلها العديد من الجمل الإعتراضية، تفصلها علامات وقف كثيرة،

بل قد لانجد فيها أثرا للأفعال بل سلسلة من الأسماء والنعوت، وهو ما يصعّب إلى حد كبير إعادة الصياغة حتى تستقيم الجمل وقد انتقلت إلى العربية لكن مع ضرورة الإبقاء إلى حدّ ما على شيء من الغرابة التي تحملنا إلى عالم آسيا جبار وتذكّرنا بطريقتها في الكتابة والعالم الذي تتشبّه هذه الطريقة. غيرأن هذه المشكلة التي واجهتنا ونحن نحاول، في الترجمة، الإيحاء بهذا العالم قد واجهت آسيا جبار أيضا، وهي التي اختارت الكتابة عن المرأة الجزائرية لتردّ إليها صوتها المقطوع الذي تمّت مصادرته: "كان يخال إليّ أنّ الإنتقال من اللغة العربية الشّعبية إلى الفرنسية يسبّب ضياعا لكلّ ما هو متأصّل، ضياعا لضروب الألوان. لذا لم أكن أريد حينها أن أتذكّر سوى 'نوستالجيا الألوان' ". كان علينا إذن، وقد حاولنا الإيحاء بطرق التعبير الآسيوي (نسبة إلى آسيا جبار)، أن نستحضر، ما أمكن، طرق تعبير المرأة الجزائرية من الأوساط الشعبية التي شكلت، بصورة من الصّور، شيئا من الخلفية الثقافية التي لازمت آسيا جبار في أعمالها الإبداعية وفي "نساء الجزائر في شقّتهنّ" على وجه الخصوص. وقد كانت طرق الكلام والإستعمالات الرائجة في الأوساط النسوية الجزائرية الشعبية التي استعادتها آسيا جبار معينا سهّل علينا استحضارها وتثبيتها في الترجمة مثل كلمات: "مّا" أو "يمّا" أو "الاّ" أو "رِيحةْ لِبْلاد" أو "يا وِلْد امّا" أو "خْلاصْ..خْلاص" أو العديد من مقطوعات من أغاني الحوفي التلمساني التي كانت تترنّم بها النساء أو خاصة البوقالات التي تستحضرها النساء حين يلتقين في مناسبات معيّنة؛ مقطوعات وبوقالات ترجمتها آسيا جبار إلى اللغة الفرنسية وكان علينا أن نبحث عن النصوص الأصلية ونثبتها كما هي في نص ترجمتنا هذه مثل: "أنا... أنا الوحدانية" أو البوقالة التالية:

مَاازِينْ الدَّالْيَةْ بِالْعْنِبْ مَازِينْ السَّاقْيَةْ بِالْحُوتْ

نِدِّي بِنْتْكُمْ لْدَارِي وَلاَّ نْطِيحْ نْمُوتْ

وقد شكّل كل ذلك تجربة مفيدة للمترجمين الشبّان الذين ساهموا، من خلال عمل جماعي، في إطار الورش، في الجزائر وفرنسا، في ترجمة نص آسيا جبار هذا، وأدركوا صعوبة ترجمة هذا النوع من النصوص، واكتسبوا خبرة عمّقتها اللقاءات التي أُجريت في مدينة باريس مع مختصين في الترجمة ومختلف وجوه العمل والنشاط التي يقوم بها دارسو النصوص والمترجمون هناك. كانت تلك إذن تجربة عمل جماعي أثمر هذه الترجمة التي نحسب أنها قدمت صورة عن فن آسيا جبار وعالمها وعن عالم المرأة الجزائرية التي كَرَّسَتْ له هذا العمل.

**عبد القادر بوزيده**

# استهـــلال

## I

تعد هذه القصص بعض معالم في مسار الاستماع منذ 1958... حتى يومنا هذا، سبتمبر 2001.

محادثات متشظية، مُستذكرة وأعيد تركيبها... حكايات خيالية أو ملامسة للواقع – واقع نساء أخريات أو واقعِي – وجوه وهمسات مخيال قريب، لماض – حاضر أثاره تدخل مستقبل مبهم غير واضح المعالم.

أستطيع القول بأنها "قصص مترجمة من"... لكن من أي لغة؟ من العربية؟ من عربية شعبية أو عربية أنثوية، بل يمكن القول من عربية الظلّ.

كان بإمكاني الاستماع إلى هذه الأصوات في أي لغة غير مكتوبة، غير مسجلة، بل منقولة فقط عبر سلسلة من أصداء وتنهدات.

صوت عربي، إيراني، أفغاني، بربري أو بنغالي ولم لا، ولكن دائما بنبرة أنثوية وشفاه تقول من تحت قناع.

لغة منزوعة القشرة لكونها لم تظهر أبدا في وضح النهار، لكونها في بعض الأحيان مرتّلة، معلنة، صارخة، ممسرحة ولكن بفم وعيون قابعة في الظلام دوما.

كيف يمكننا اليوم العمل بمثابة مصدر لكثير من نبرات لا تزال معلقة في صمت حريم الأمس؟

كلمات جسد محجّب، لغة تحجبت بدورها منذ عهد طويل.

هذا هو إذن الاستماع الذي أحاول من خلاله اقتفاء آثار بعض الانقطاعات وقد بلغت منتهاها، حيث لم أستطع إلاّ بالكاد الاقتراب من هذه الأصوات أو تلك التي غامرت في تحدي العزلة الوليدة.

## II

من قبل كان يخال لي أن الانتقال من اللغة العربية الشعبية إلى الفرنسية يسبّب ضياعا لكلّ ما هو متأصّل، ضياعا لضروب الألوان. لذا لم أكن أريد حينها أن أتذكر سوى نعومة ونُوستالْجيا الكلمات في الدوام .

هل النساء يعشن بالرغم من هذا الصوت الخافت؟ إن قيد الحجاب المسبل على الأجساد والأصوات يقلل من الأكسجين حتى وإن كانت الشخصيات خيالية. فهي ما إن تقترب من يوم حقيقتها حتى تجد نفسها معاقة الكاحل بسبب المحظورات التي تتضاعف أو أنها تحوّل كل النظرات لتصبح ضربا من استراق النظر لاغير.

منذ عهد بعيد، – لا شك نتيجة صمتي لكوني امرأة عربية – أشعر بأن الحديث في هذا المجال يصبح، بطريقة أو أخرى، خرقا للأعراف (يستثنى من ذلك الناطقون الرسميون أو "المختصون").

يجب عدم الإدعاء بـ "الحديث من أجل"، بل الأدهى "الحديث عن" إنما الحديث، بالكاد، قرب وإن أمكن الأمر الحديث تماهيا مع: هو أول مظاهر التضامن تنهض بأعبائه بعض النساء العربيات اللواتي يحصلن أو ينتزعن حرية الحركة، حرية الجسد وحرية العقل. ولا ننسى أنّ أولئك اللّواتي يسجن من كل الأعمار، ومن كل الوضعيات، أجسادهن مسجونة، لكن أرواحهن حية متحركة أكثر من أي وقت مضى.

## III

نساء الجزائر هنّ، منذ الإستقلال، يتجوّلن خارج البيت بأعداد كبيرة، وهنّ، من أجل تجاوز العتبة، وقد أعشاهنّ للحظة ضوء الشمس، هل تحرّرن – هل حرّرنا أنفسنا – تماما من علاقة الظل التي تمت رعايتها من قبلهنّ مع أجسادهن طيلة قرون كاملة ؟

هل تتكلمن حقا إذ ترقصن دون أن يتصوّرن بأنّ عليهن الالتزام دائما بالتعبير هَمْسا خشية العين – الجاسوسة؟

لكن هذه العين، خلال العشرية الأخيرة، جلبت الاضطراب، والإفتراس، والدوار الناجم عن عنف يصعب تحمله، عنف استهدف النساء أولا ومن كل الأعمار، النّساء الناشطات، ثم بعدها، بسرعة، رموزا أخرى من رموز الحرية الفردية (فنانون، كتاب، مثقفون ثم الأجانب، ثم...).

هذه النصوص، نصوص "اليوم والأمس" – عكس المجموعة القصصية "وهران، لغة ميتة" التي كتبت دفعة واحدة من جانفي إلى أوت 1996 – لا تقترب من دائرة نار العنف الحاضر أو انحرافه الجنوني.

من منفاي، ودون شك من أجل تجاوز هذه الليلة التي عادت مجدّدا في خضمّ عذابات قرن يوشك على الإنتهاء، في أنحاء عديدة من الأرض، كتبت "ليلة حكاية فاطمة"، وكانت ملهمتي حياة أربع جزائريات عبر جيلين أو ثلاثة أجيال.

الإبقاء، رغم كل شيء، على تدفق النص من كلا جانبي منطقة ظل الجدات وإن أمكن ذلك على إيقاع رقصة الخادمة العارية في لوحة "نساء الجزائر" لبيكاسو: فلنفتح الباب على مصراعيه، هناك، باتجاه فوهة الماضي المستشفّ، ولكن أيضا نحو فضاء آخر، نحو الفرار أو المستقبل، لا يهم...

أتمنى أن تكون هذه القصة، القريبة العهد، التي وضعتُها مباشرة بعد افتتاحية المجموعة القصصية، بمثابة مصباح على هذه العتبة، مصباح ينير مسيرة التضامن، تضامن كلّ خطاب أنثوي، خطاب هو الضمانة لبقائنا.

*1979 ثم 2001.*

# ليلة حكاية فاطمة

إلى جليلة

# الاختطـاف

## I

ماذا أقول لك، يا عيون روحي، من أين أبدأ الحديث عن مصائبي، ربّما بفك عقدة الخيط الأول قبل ولادتي، بالتكلّم إذن عن التي وهبتني الحياة (أسأل الله أن يتغمدها بواسع رحمته!)؟

في وقت متأخر جدّا علمت بأنّ والدتي، نعم والدتي – لم يكن يجبُ التحدثُ عن الأمر جهرا، ولا حتى بين النساء، ربما يجوز ذلك بين الأخوات أو أو أقرب المقرّبات، ناهيك إذا كان ذلك في عزّ الليل، في السهرة فقط أو قرب نار دافئة، أمام كانون مليء بجمر على وشك الخمود – والدتي، نعم، وهي في سن الثالثة عشرة أو بالكاد أكبر سنا، اختُطفت من قبل والدي!

يجب إذن أن أذكر والدي – هو الذي التحق أيضا، مع الأسف، بالرفيق الأعلى(غفر الله له خطاياه!)، كان والدي، شأنه شأن عربيّة، أمي،من قبيلة أولاد سليمان، الواقعة بين أومال (وهو الاسم الفرنسي) وعين بسّام. تومي، كان هذا هو اسمه، لو أنه بقي في البلاد لما تمكّن من الزواج بأمّي. لم يكن هو وأهله يملكون شيئا: لا أرض ولا أبسط قطيع ماعز. بالإضافة إلى ذلك، كان أميّا: بالعربية وبالفرنسية ....

بالعربية، كانت معرفته بالقرآن الكريم ستجعله متعلّما: فقيرا بكل تأكيد لكن محترما! كان يتيم الأب، شابا ولا يملك حتى أخا أكبر أو عمّا يدعمه، ما الذي بقي له غير الانخراط في الجيش الفرنسي؟ الانخراط ... من أجل لقمة العيش! كان فارسا جيدا: وكان ذلك كافيا.

شارك إذن في حرب 14 – 18، «الحرب الكبرى». كان على ما يبدو شديد السعادة بالمغادرة: هل تعلمون، لقد انتقل إلى الضفة الأخرى من

البحر! وصل إلى فرنسا، وأُرسل، حسب ما قيل، مباشرة إلى ساحة المعركة ... ربّما كانت معركة فردان، يا ابنتي، هل أنا مخطئة؟ ... نحن هنا، في هذه الهضاب العليا بجزائرنا، لا نعرف مِن هذه الحرب إلا معركة فردان ...

لأنه، منذ ذلك الوقت، ترين، هؤلاء المقاتلين القدامى، في كل مدينة صغيرة هنا: جميعهم، في المقاهي، منهم من فقد يدا ومنهم من أصبح نصف أعمى أو أصيب بالرعدة، جميعهم تقريبا يشربون الخمر بلا خجل إلى غاية اللحظة التي يشعرون فيها، فجأة، برغبة في الذهاب إلى المسجد للصلاة ... ثم الموت، مباشرة بعد ذلك!

كان أبي، بالتأكيد يسهر، في معركة فردان، على حماية قائده تحت وابل الرصاص ودوي المدفع: أُصيب القائد فحمله **تومي** على كتفيه العريضين بالرغم من القنابل. أنقذ الضابط الفرنسيّ (كنت أقول لنفسي أحيانا للمسلمين ربّ يحميهم( ). حصل تومي على مكافأة: تمت ترقيته إلى رتبة عريف.

ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى عاد، ليقضي إجازته عندنا، قرب عين بسّام. كان بالتأكيد يفتخر على الأرجح بأوسمته الأولى، بزيّه العسكري وبميداليته كذلك.

## II

أمّا بخصوص أمّي، فقد علمت أخيرا كل شيء، مع مرور الزمن. في تلك الفترة، كانت النساء والفتيات يذهبن إلى ينبوع الماء كل صباح، كانت النساء يحملن القراب والفتيات يحملن جرّات. كان صف حاملات الماء هذا يتبع ممرات ضيقة ومتعرّجة تحفّها الأشجار من شأنها أن تحجبهنّ عن أنظار الفضوليين.

ما أن استنشق **تومي** "ريحة البلاد" حتى أصبح، دون أدنى شك، متلهفا للوصول إليها. ولأنه كان في إجازة، تجرّأ على زعزعة الأعراف – ربما

كذلك لأنه كان في قمّة السعادة لإبراز صفته، كعريف جديد، معلّقا حتى ميداليته على صدره (من يدري إلى أيّ حدّ يذهب الغرور بخلق الله!).

هكذا، التقى والدي، عند منعطف، غير بعيد عن المنبع، بصف حاملات الماء ....

بلغني أنه، على مسافة بعيدة، في تلك الصبيحة، كانت فرقة موسيقية تتمرّن مع دنوّ احتفال ما بحيث أن تومي يكون قد التقى، لأول مرّة، بـ عربيّة على وقع الناي.

كانت، في مؤخرة الصف، هي الأصغر والأجمل بالتأكيد: توقّف مباشرة قُبالتها. نظرا في عيون بعضهما البعض. عربيّة، اضطرّت جارتها إلى جرّها من يدها كي تتقدّم. لقد تعرّفا على بعضهما.

كانت عربيّة، اليتيمة الأب والتي لم تبلغ الرابعة عشرة بعد، تعيش مع أمها وأخويها. «تعيسة، كنت»، كانت تقول، وهو أمر طبيعي: كان أخواها متزوجين، ماذا كان سيحل بها إذن، وهي محرومة من حماية والدها، غير أن تصبح خادمة عند سلفتيها؟ ألم يكن أخواها ربّا البيت الوحيدين؟

قرر تومي، بعد وقوعه تحت سحر المراهقة، أن يتقدّم لخطبتها من أخويها. ما الذي كان يظنه، تومي، أن كل شيء، هو ربما، من حقّه، «أجمل البنات»؟ كونها يتيمة لم يكن يهمّه! وقَدَ عرض بالمناسبة مهرا كبيرا.

كان الأخوان متعجرفين، إذ لم ينسيا، دون شكّ، الأصل المتواضع للرجل الذي عاد إلى البلد. أجابا مباشرة الذي جاء يتوسّط لتومي: «لا، لن يحدث ذلك!»، وأضافا معا تقريبا: «هذا الرجل عسكري: سيغادر!» كانا يتظاهران بأنهما يتصرفان تصرف أولياء حريصين على راحة أختهما، مبدين الحذر، ولنقل الحب!

عربيّة، شأنها شأن والدتها، الأرملة الحنونة التي لم ترفع صوتها يوما في وجه ولديها، لم تكن مغفلة: كانت تعمل بكدّ من طلوع الشمس إلى غروبها. كانت تحلب الماعز وتقوم بنفض الزيتون. وكانت، علاوة على ذلك، ملزمة بأن تؤدي، في البيت، معظم الأعمال المنزلية: كل ما كانت الكنتان تقومان به هو هدهدة صغارهن والاستسلام لملاطفة كل واحدة من قبل زوجها...

سندريلا، يا عزيزتي، عربيّة لم تكن تعلم، مثلي قبل أن أتعلّم القراءة، بأن سندريلا موجودة في القصص الفرنسية: هي، كانت تسمّي نفسها بنفسها (كانت والدتها تبكي في صمت عند سماع ذلك): «يتيمة، أنا ليتيمة!» ... وبينما كانت تتنهّد على هذا النحو، كانت نظرة تومي، الذي كان التقى بها عند طريق المنبع، توقفها وكانا يحدّقان مطولا إلى بعضهما.

# III

أمام رفض أخويها، الذي تكرر مرتين، قرر تومي اختطاف الجميلة. «هكذا إذن! يكون قد قال غاضبا، أنا، عسكري، سأغادر؟ ... ولماذا لا نغادر سويّة؟ أرسل في الحال رسولا إلى عربيّة: «إذا رغبت في مرافقتي، كوني غدا، على الساعة الخامسة، عند شجرة النخل خلف المنبع: الساعة الخامسة صباحا!».

استمعت عربية للرسول بصمت (وهو عجوز متسوّل أعور كان يُسمح له بالتسوّل طوال الصيف في وقت الحصاد ثم كان يختفي فيما بعد ليسافر شمالا). بقيت مذهولة لدقيقة، ركّزت، ثم قدّمت بسرعة ردّا إيجابيّا بهزّ رأسها أو بالأحرى ذقنها ببساطة من الأسفل إلى الأعلى. حدث ذلك قبل أن يسدل الليل ستاره بقليل.

بعد العشاء، على ما يبدو، اختلت بوالدتها، العجوز مفدودة، وهنا، اعترفت لها بكل شيء. انحنت فوق والدتها التي كانت جالسة على

السجادة(كانت تستعد للتأمل قبل الصلاة بقليل). وضعت عربيّة قبلة على جبهة والدتها، ثم على خمارها المصنوع من الحرير الأبيض، ثم طبعت أخيرا، قبلة على كل عين.

بقيت مقدودة صامتة، ثم بعد دقيقتين طويلتين، بسطت أصابعها الطويلة على رأس ابنتها ومنحتها بركتها قائلة: «أوافق بشرط واحد، عندما تذهبين، طالبيه بعقد الزواج!»

وهكذا، في اليوم التالي، قبل بزوغ الفجر بقليل، تسلّلت عربيّة خارج البيت، ومع الفلس هرولت حتى النخلة المذكورة. غادرت مع العريف: كان يتقدّمها، وهي تمشي خلفه تفصلها عنه خطوات قليلة. دام ذلك ساعة. ظلاّ يمشيان على هذا النحو حوالي كيلومترين أو ثلاثة إلى أن وصلا إلى إحدى أهم البلدات. وهنا، قام المختطف، والدي، بحجز عربة خيل تاكسي: يبدو أن زيّه العسكري يسمح له بذلك. أذكّرك يا صغيرتي، أنّنا كنّا في سنة 1918!

وهكذا، وصلا إلى نزل في بلدة أخرى. وهناك، استأجر تومي مسكنا، ولم يغادرا هذا المكان بعد ذلك أبدا. في العام التالي، رزقا ببنت.

*تنطلق ضحكة فاطمة في غمرة الصمت، تنساب انسياب ماء منبع يسيل في منحدر تصحبه رشات، ثم، في الأسفل، انبجاس مستمر...«هل فهمت؟ قالت أخيرا، أنا بنت وحيدة: البنت، هي أنا، بطبيعة الحال!».*

سُرّح أبي من الخدمة العسكرية وأصبح يدير مزارع: كان خبيرا في معالجة الحيوانات، وكذلك في الآلات والجرارات إذ كان يعرف كيف يصلح محرّكاتها. كان يعمل بكدّ. وكان يشعر بالسعادة.

لم تتجب والدتي أطفالا سواي. أفترض أن الأمر كان يحزنها، ربما لأنها لم تتجب ابنا. لكن تومي من ناحيته، كان يؤكّد أنه يحسّ بسعادة غامرة لأنه رزق ببنت! ... غير أنه، كما تعلمين، عندي أخ، علي. أنت

تتساءلين، أليس كذلك؟ ...اعلمي إذن أنّ **علي** هو أخي بالتبنّي، وبعبارة أدق، هو ابن خالي.

*تمنّعت **فاطمة** (شكليا) من جعل الرواية، عودة إلى نقطة البداية، تُحوّل **علي** الصغير إلى الشخصية الرئيسية الجديدة. كان ذلك مصدر "سلوان لأمّي" ، تنهدت **فاطمة** تنهِدة أقرب إلى السخرية.*

# الأخ الصغير

## I

بعد مغادرة أمي، في الظروف التي ذكرتها لك، يا أميرتي الصغيرة، تبرّأ أخواها منها علنا، وهو أمر طبيعي. كان ذلك لدرجة أنها لم تتمكن من رؤية أمّها خلال السنوات التي تلت، وهو أمر آلمها ألما شديدا!

ظلت تبكي بسبب ذلك مدّة طويلة، بمجرد ما تذكر ذلك الفراق: الذهاب هكذا مندفعة في ريعان الشباب، كيف لها أن تتنبّأ بلوعة هذا الفراق؟

خلال تلك السنوات، لم تكن تحتفظ من لحظة المغادرة إلا بذكرى القبلة الذي وضعتها على جبين ورأس أمها، وكذا البركة التي منحتها لها مفدودة في المقابل.

مرّت أربع سنوات على الأقل. في يوم من الأيام، قصد أحد الأخوين - الأصغر سنّا والأرقّ قلبا - والديّ. طرق الباب.

يجب أن أذكّرك، يا عزيزتي، أنت التي لا تحملين في ذاكرتك تلك الأماكن القديمة، أننا كنا نعيش قريبا من أومال، بعبارة أخرى، في الواقع، على بعد ساعتين، على متن عربة الخيل، من قرية أمّي.

دخل الأخ، قبّل والدتي، تعرّف عليّ، كنت طفلة في الثالثة من العمر ولم يكن والدي موجودا. حسن - كان الخال يدعى حسن - قصّ قصته: جاء يتوسّل.

أصبح أرملا منذ سبعة أشهر: توفيت زوجته عند ولادتها للابن الثالث. بهذه المناسبة، عندما بلغ عربيّة هذا النبأ، بعثت، وهي التي أبعدت من فترة قريبة جدا، رسولة: كانت تقترح تربية الرضيع «إلى أن يكبر، قالت، ويمشي ويصبح مستقلا!»

كان الأخ لا يزال ممتعضا وردّ دون الشكر حتّى: «أنا لا أعطي ابني!»

كانت عربيّة تعرف أن الضعف قد نال من والدتها . وفكّرت في أنّ أخاها سيعيد الزواج بسرعة، من أجل صغاره على الأقل ... وهي نفسها كانت تأمل، دون شك، إنجاب ابن ... لم يأت.

## II

وها هو ذا حسن يجيء عندنا، في تلك الصبيحة الربيعية. تظاهر بأنه نسي أنه، هو والأخ الأكبر، قد تبرّآ، علنا، من أختهما الصغرى. حكى لعربيّة وصوته قد أضناه الحزن:

- مرّت سبعة أشهر! لا أرغب في الزواج ثانية ... ستسعى الزوجة الجديدة إلى الإنجاب هي كذلك، ومع ثلاثة أطفال ووالدتنا تحت رعايتنا. أصبحت الأوقات الآن شديدة الصعوبة! ... بدأ ابناي يذهبان إلى المدرسة. تقوم جدّتهما وزوجة أخي برعايتهما. أمّا الرضيع (خفت صوته)، علي، فهو يبكي كل مساء ... في الأشهر الأولى، كانت زوجة أخي تنهض من فراشها، تُطعمه وتُهدهده. أمّا الآن، فإنها تتركه يبكي ... قلبي يؤنّبني!

في الأخير، حاول خالي كبت مشاعره:

- كان يجب عليّ أن أدعك تربينه لأجلي، يا ابنة أمّي! حنونة وشجاعة أنت!

- لا طفل لديّ غير هذه البنت! تنهّدت عربيّة وهي تضمّني؛ ثم بكت أمام أخيها.

لكنّها تمالكت نفسها، في الأخير. قدّمت القهوة لزائرها. فكّرت ثم قالت:

- مرّت أشهر، يا أخي! اليوم، أنت الذي قصدتني، أرى ذلك وأشكرك عليه. لكن (قالت مترددة) يجب أوّلا أن أستشير زوجي!

انحنى حسن، طأطأ رأسه ثم قال، وهو يغادر، بصوت خافت:

- بطبيعة الحال، عربيّة، يمكنك برفقة زوجك زيارة والدتنا! لقد ضعُفت قليلا! ... لقد بلغت الخمسين عاما: ليست عجوزا، لكنها تعبت كثيرا في شبابها!

حصل أن روت لنا عربيّة، فيما بعد، نحن، ولديها، سنوات الشباب العجاف التي عاشتها مقدودة، أمّها.

كانت هذه الأخيرة، في منزل والدها وزوجته، تهتمّ لوحدها بالإسطبل كله وبالبقرتين وعجولهما وبالنعاج ... زُوّجت فيها بعد في سنّ مبكّرة جدّا، كانت قد فقدت ثلاثة رُضع، كل منهم عند الولادة أو بعد ذلك بوقت قصير، قبل أن تتمكن أخيرا من الحفاظ على الابنين اللذين جاءا من بعد! عندما بلغا سنّ الرجولة، تركتهما يتموقعان باعتبارهما أسيادا، مع الأسف! صحيح أنهما فقدا والدهما وهما بالكاد في سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة: كان عليهما إذن أن يصنعا نفسهما بنفسهما!

## III

في نهاية المطاف، مقدودة هي التي طلبت من ابنيها أخذها أخيرا إلى عربيّة، بمناسبة العيد الصغير، على ما أعتقد.

وصلت على متن عربة خيل وأيتامها الثلاثة برفقتها: الولدان الاثنان في لباس أنيق، والرضيع ذو الثمانية أشهر بين ذراعيها. دخلت هكذا إلى منزل ابنتها. بكت المرأتان، الأم والبنت، مطوّلا بعد فراق دام أربع سنوات. بدت مقدودة، متداعية تماما، وكأنها شاخت بعشر سنوات على الأقل. لم تتحدثا عن شيء باستثناء يوم العيد الذي سمح لهما بالالتقاء، بفضل الخال حسن.

كنت إذن موجودة، أنا، يا جميلتي، لا أنسى نفسي! مقدودة، جدتي، قبلتني وأبقتني في حضنها: ما زلت أتذكّر رائحتها، ولون بشرتها

الداكن تقريبا، وعينيها الكبيرتين الممدودتين والجاحظتين المزينتين بكحل كثيف ..حدقت في الأخير في وشمها الأزرق الموجود بين حاجبيها: وشم في شكل وردة أنيقة كانت تعطيها مظهرا غريبا. كانت تبدو، وهي مرتدية أوشحة حريرية متعددة أرجوانية اللون وبرتقالية، مثل ملكة عجوز همجية قادمة من حيث لا أدري ...

إذن، اسمحي لي، يا عزيزتي، فأنا لا أذكر البقية، لكن **عربية** والدتي حكت لي في كثير من الأحيان عن يوم الملاقاة. عندما وصلت الزائرة مع الأطفال، لم يكن والدي في القرية، ساعة بعد ذلك دخل **تومي**.

في الوقت الذي كان سيعبر عتبة الباب، سمع الصبي الأخير – الصبي اليتيم – يبكي دون انقطاع (لا شك أنه ينوح هكذا كل ليلة، ويُبقي **حسن** مستيقظا وهو يتعذب عناءً).

روى **تومي** ذلك بنفسه بعدها، أنه لم يكن لديه إلاّ بالكاد الوقت لاجتياز الفناء الصغير، وصرح فيما بعد "لقد شعرت وكأنّ قلبي سيخرج من صدري". اقترب من الفرف، رأى المرأتين، تبدوان واهنتين، والولدين أنيقين بثياب جميلة، كانا يلعبان؛ وكان خاصة يتأمل **عربية** بإمعان وهي جالسة على حصيرة منفرجة الركبتين والصبي ذو الثمانية أشهر بين ذراعيها، وجهها كان مائلا نحو الطفل وهي منشغلة بمواساته بصوت متواصل صبور.

**عربية**، آه نعم، كانت تناغي الطفل، كانت تفرقع لسانها بغرابة، وتحرك شفتيها للشروع في الغناء، وبدأ الصبي، والدموع تسيل على خديه، بالاستماع إليها شيئا فشيئا، ومد يديه... وأخذت المرأتان، الأم والبنت، تتأمّلانه برفق، وتضحكان، وتأملان!

"أحسست بقلبي يكاد يخرج من صدري وأنا أجتاز الفناء الصغير"، قال **تومي** ذلك من بعد لزوجته الصغيرة.

بقيت مسعودة، الزائرة، ثلاثة أيام بعد العيد عند ابنتها مع الأولاد. شعرت الأم وابنتها شيئا فشيئا براحة القلب مع كل الحديث المتبادل. كان الصبي ينام في هدوء كل ليلة.

رجع حسن، والد علي الصغير، في اليوم الثالث بعربة الخيل لضمان رجوع العائلة. «سيبقى علي معنا»، أبلغته أخته بلطافة قبل التوديع. ذهب الوالد وشفتاه تدعو لهما وتباركهما.

# المدرسة

## I

*«هكذا، فكرت فاطمة وهي تحلم، كانت أمي عربية جد مسرورة بتربية علي ابن خالي، أي أخي».*

*تنهدت، ترددت، أرادت ايقاف هذه الحكاية لكن هذه الأخيرة تحاصرها، تجبرها بالرغم من الكآبة الكبيرة التي يمكن أن تغمرها. فيما بعد، فيما بعد ! ستحاول أن تواصل...*

*نهضت لتخفي حزنها، واقفة، ثم جلست على الحصيرة، والسبحة في يديها وعيناها في الفراغ، ومن جديد استأنفت راويتها.*

علي، أخي، يا لها من حياة غريبة عاشها، فيما بعد! ثمّ هاهو قد مات العام الماضي، هناك في لوفيسيان بفرنسا.

لكن لم استباق الأحداث، لنعد إلى الطفل الهشّ الذي جاء بيننا وقضى على عزلة عربية، أمّي!...(ماذا تريدين يا جميلتي، حتى وإن كان لي الحظ أن أكون المفضلة عند والدي، فإن والدتي الصغيرة التي لم تبلغ العشرين حينها لم تكن تشعر كونها امرأة إلا إذا كانت أمّا لولد ذكر!) وقد أصبح أخي الآن يعيش بيننا، ماذا لو تركنا والدتي تستغرقها سعادة الأمومة؟ هل تريدين يا وديعتي أن أحدثكِ عن نفسي؟

*هكذا، بطريقة الإلتفاف وليس فقط من باب اللياقة، وحتى تلتف القصة حول نفسها، وتدور ثم تتقلب على رأسها - فإن الراوية تموضع نفسها في قلب الحكاية: وهاهي فاطمة التي تروي، ستروي أخيرا عن نفسها!*

في هذا العام، عام وصول أخي بيننا، أتذكر كيف كان الربيع منوّرا! كنت سأبلغ الرابعة من عمري وكنت أعيش سعيدة، في غاية السعادة!

كان الخال حسن يأتي دائما في عربة خيل مع ولديه، أنيقين مثل رجلين صغيرين - كانا يلبسان زيا عربيا على الطريقة القديمة: سروال فضفاض وخيط من الذهب في أماكن الخياطة، وبرنوس أبيض من الصوف مسبل على الكتف وطربوش أحمر موضوع على الشعر المجعد.

أركبوني في المقعد الخلفي بجنب ابني خالي، أنا الطفلة الوحيدة التي تحمل بين ذراعيها الطفل الرضيع. صعد والدي إلى جانب خالي ورحنا نتنزه هكذا: كان ذلك يدوم أحيانا الظهيرة بأكملها. كنا نذهب حتى إلى أومال!

للمرة الأولى أرى إذن مدينة حقيقية: مدينة يوجد بها فرنسيون لا كما في القرية حيث لا نرى إلا الدركي وساعي البريد بالزيّ الرسمي: هناك التقينا حقا بفرنسيين مع عائلاتهم، وكان كل واحد (وهو مااكتشفته كذلك) يسكن مع زوجته وأبنائه منزلا لهم وحدهم بنوافذ تطل على الشارع وسطح بالقرميد الأحمر...

- تسمى هذه المساكن "فيلات"! شرح والدي؛ لقد رأيت الكثير منها في فرنسا وكانت أكثر جمالا وأوسع بطابق وبستان تملؤه الأزهار في واجهة المبنى!...

*«كنت أنظر وانظّر!» قالت متعجبة، وبدأت تضحك ضحكا شبيها بالهديل يصاحب بهجتها الطفلية.*

*حلمت فاطمة لمدة دقيقة أو دقيقتين، وخلال هذا التوقّف عن الحكي، كنت أنا – المستمعة منذ بداية هذا الحكي – أكاد أسمع هرولة الفرس التي كانت تنقل، فيما مضى، هؤلاء الرجال مع أولادهم، وكذلك البنت المذهولة في شوارع أومال، هذا المركز الكولونيالي الصغير في هضاب الجزائر...*

## II

وهكذا خطرت، على ما أظنّ، لوالدي فكرة أننا جميعنا، والدتي وعلي وأنا وهو نفسه نستطيع الإنتقال للسكن في هذه المدينة.

إنها المرّة الثالثة أو الرابعة التي نقوم فيها بمثل هذه النزهة، وفجأة سمعت والدي – وكانت عربة الخيل مرت أمام مبنى يخرج منه أطفال فرنسيون بمرح ومحافظهم على أكتافهم – نعم سمعت تومي، والدي، يعلن عاليا لخالي حسن:

- ابنتي، عندما تبلغ السادسة من عمرها، ستذهب إلى مدرسة الفرنسيين: هذا هو قراري.

وأومأ بحركة من ذراعه نحو صف الأطفال، بنات وأولاد الكل معا. وتوجّب علينا حتى إيقاف الفرس لترك الفوج الأخير من التلاميذ يجتاز الطريق على مهل. كانوا ينظرون إلينا (لا شك أنهم كانوا معجبين بنا) بلباسنا من الصوف والحرير وباللون الأبيض مع تدرجاته...

لكن عندما نُطقت الجملة عاليا بالعربية انتفض الخال حسن. ولا زلت استحضر صورته، أنا الصغيرة والتي كنت لا أزال أحمل الرضيع على ركبتي: كان خالي على وشك الإجابة بحميّة لكنه التفت نحوي وحدّق فيّ بنظرات طويلة ساخرة، ثم لم أعد أرى إلاّ ظهره وقد فضّل السكوت.

عند الرجوع إلى المنزل (عربية كانت في كل مرة تحضّر، لتكرم أخاها، كعكات محلاة بالعسل وفطائر بل حتى عشاءا وفيرا) وقبل النوم، كررت لوالدتي الجملة التي قالها والدي بصوت خافت وكما عايشتها مع خالي عندما استدار وألقى عليّ نظرة ساخرة.

والدي قال: ابنتي عندما تبلغ السادسة من عمرها ستذهب إلى مدرسة الفرنسيين.

قبلتني عربية بحنان دون أن تقول شيئا.

في خريف نفس السنة أو بعدها بقليل، تلقى أبي أمر الالتحاق بالجيش. وهكذا، ذات صباح، ذهب على متن حصان: عرفت بعدها أنه ذهب ليحارب في المغرب الأقصى بالريف – هو وزملاؤه القدامى في الفيلق.

لم نره لمدة أكثر من سنة ونصف، صحيح أن الحوالات كانت تصلنا بانتظام. وكان الخال حسن يأتي مرة في الأسبوع ليسهر على احتياجاتنا ومشترياتنا.

أما بخصوص **علي**، أخي الذي كان يكبر، فقد كنت أعتني به كما أمي. كنا نلعب معا في الفناء الصغير: نرمي لأبعد مكان نواة البرقوق، ونصعد إلى أعلى ما يمكن على متن الأرجوحة الخفيفة جدا والمعلقة على غصن شجرة زعرور. وكنت أقفز على رِجل واحدة لساعات طويلة، ولكن لوحدي.

في كل سهرة، كانت **عربية**، الجاثمة عند سريرينا، تضع كلاّ منا تحت إحدى ركبتيها وهي تهدهدنا وتغني طويلا أغنية حب حزينة. كنت متأكدة أن صوتها يصل حتى **تومي**، أبي هناك في البعيد! كنت أسمعها وأنام بهدوء، عيناي مليئة بالدموع ،ودائما في غاية السعادة.

أخيرا، عاد أبي. أتذكر أنّني كنت الأولى التي عانقته عند الزقاق الصغير أمام بابنا. كان جادّا وكانت نبرته خفيضة نوعا ما، سمعته يوما بعدها، في الصباح، يخبر والدتي:

- هذه المرة خَلاصْ الجيش، خَلاصْ! قالها وهو يشدّ على الكلمة "خَلاص! خَلاص!"، كما لو كان يتألم.

أخذنا، **علي** وأنا، للتنزه طوال اليوم. بقينا وجها لوجه أنا وهو، عند نهاية النهار وعدني بصوت حنون:

- في الشهر المقبل سنستقرّ بأومال. لقد كبرت، سترتدين فستانا. وعند الدخول المدرسي ستذهبين إلى المدرسة مثل فتاة فرنسية.

وقفت أمامه دفعة واحدة. رفعني من الأرض ووضعني على كتفيه تجاه الشمس الغاربة.

كنت أضحك، أضحك بعصبية، لا زلت حتى الآن على الرغم من أنه مات، هذا الرجل المسكين (رحمه الله)، لا زلت حتى الآن أتذكر وجهه في تلك اللحظة وفي تلك الحركة: وجه وقور حزين لكن عينيه تلمعان من اجلي. تعكرمزاجي دون أعرف لماذا.

بعد ذلك بوقت طويل (ذلك لأن الحياة، للأسف، ستبعدني مبكرا عن هذا الرجل، ولكني أتذكره كثيرا وأتذكر حياته!)، قلت حينها: «رجع تومي من الحرب، ولكن ليس كالمرة الأولى، كان كما لو أنه لم يعد فخورا بنفسه!» لقد ظهر حزينا وغامضا حتى لعينيْ الطفلة التي كنت.

فيما بعد، مرّة وفي حضرة زملائه الذين عادوا مثله من هناك، بدأ يستدعي، بصوت مهتزّ الزعيم الكبير الريفي المهزوم. لقد احتفظت في أعماقي باسم عبد الكريم، كان هذا هو اسمه. وأخبرنا والدي بأنه كان ينتمي إلى حرس الشرف الفرنسي في اليوم الذي قرر فيه هذا الثوري المغربي الاستسلام.

- لقد حضر ذلك اليوم، يتذكر تومي، وظنناه قد انهزم. لكن هذا الرجل القصير القامة الذي مر أمامي، يا ابنتي، التقيت لثانية واحدة بنظرته: كانت نظرة شخص لا يقهر!

## III

في أومال، ذهبت إذن إلى المدرسة؛ ومن بين الفتيات الفرنسيات، كنت المسلمة الوحيدة. وكان الأمر كذلك منذ السادسة من عمري لغاية بلوغي الثالثة عشرة.

لقد تابعت جميع الصفوف الابتدائية، واجتزت حتى الشهادة الإبتدائية، كنت أنا الأولى، من بين الفتيات التي يقال عنهن

"الأندجين"*، التي تحصلت على الشهادة في المنطقة في بداية الثلاثينيات. هل تدركين هذا يا أميرتي؟

كنا عشرين فتاة وكنت دائما أصنف من بين الثلاثة الأوائل مع فتاة إسبانية وأخرى يهودية – هذه الأخيرة كانت الوحيدة التي تجرني إلى بيتهم لأن والدتها كانت تحب الحديث معي بالعربية.

كنت فخورة جدا بنقاطي الجيدة! وفي كل فصل، عند استلام كراس المداومة، كان أبي يطلب مني أن أقرأ له النتائج: في الفرنسية وفي الحساب وفي التاريخ.

كنت أطلعه على النقاط وأشرح له امتداح معلمتي. وبما أنه كان لابد أن يُمضي، كان يضع إبهامه الأيمن على الكراسة وهو مبتسم. كنت أشعر بالفخر، كنت فخورة بفخره!

بدوره بدأ أخي يرتاد مدرسة الأولاد المتواجدة جنب مدرستنا. كنت أرانا، نحن الإثنين، ذاهبين، كلّ صباح، اليد في اليد، للتعلم.

ولكن في عامي الأخير (لم يكن قد بلغ الثامنة بعد، وقد احتفلنا ستة أشهر من قبل بختانه وقد كلفنا ذلك مصاريف كبيرة)، أصبح يرفض المشي إلى جنبي في الخارج. كان يفضل مصاحبة الأولاد الآخرين من "الأندجين" مثله: ابن القايد وابن خباز قبائلي.

*«في العام الأخير؟» قلت... سكتت **فاطمة** وكانت تتحكم بصعوبة في فورة من الحنين.*

*«لماذا أواصل؟» انهت حديثها بتنهيدة. «لقد رويت لك لحد الآن كل سعادتي في الحياة. أمّا الباقي...» بقي الصوت المتسائل معلقا. وبيدها طردت الراوية الأفكار السوداء، أجنحة الغراب التي تحجب نور الصباح...*

*فيما بعد، وبكلمات مختصرة وجافة، واصلت سردها: كيف تركت المدرسة في الثالثة عشرة من عمرها لتجد نفسها عاما بعد ذلك متزوجة!*

---

* ملاحظة: هي كلمة كان يطلقها الفرنسيون على الجزائريين بمعنى السكان الأصليين.

- نعم هذا صحيح، في نفس سن والدتي أعطى والدي يدي ... لأحد أصدقائه، عسكري مثله وهو ضابط صف كان يعزه. كنت أنا بالكاد أبلغ الرابعة عشر عاما وكان زوجي في الخامسة والثلاثين!

**فاطمة** تضحك، إنها ضحكة متقطعة لا نلحظ فيها لا المرارة ولا السخرية السوداء. ولا الخضوع بطبيعة الحال... الوقت مر، فلم الثوران أو حتى ظله المستنزف؟ ثمّ ما الفائدة من الحكاية؟

لكن الحكاية صارمة، بل إن هذا هو ما بقي منها، فقط هذا الخيط الفضي أو الأسود الأبنوس، يلمع في ظلمة الليلة الطويلة...

# الطفل الممنوح

## I

توقفت **فاطمة**: تساءلت **أنيسة** كنتها، تلك التي استمعت إليها طيلة الليل حتى مطلع الفجر، قائلة:

- *أتقولين أن والدك قد زوّجك؟ أيعقل هذا وأنت "محبوبة والدك"، اخبريني، فسري لي!*

- نحن الآن في فترة الاستقلال، الأمر مختلف! ... نعم، لقد زوجني والدي، بعد سنة من مغادرتي المدرسة! والدتي، على الأقل، في العمر ذاته، اختارت بنفسها! تذكري، لقد أخبرتك عن الأمر بينما كان ينبغي أن يبقى مكتوما! ...

وراحت **فاطمة** تلوح بيدها بقوة لتطرد الذكريات الملحاحة المتشبثة تشبث الخفافيش ...

كان والدي، في بداية الثلاثينيات، يحب الذهاب للاستماع إلى خطابات بعض قادتنا الجدد ... أتذكر صيدليا من سطيف يدعى **عباس** ... كان الرفاق من الفيلق يرافقون **تومي** ثم يتبعونه حتّى منزلنا. هكذا، في يوم من الأيام (لم أكن قد أنهيت دراستي عندها)، سألت والدي بشيء من... الوقاحة، أوبالأحرى بسذاجة:

- أخبرني، سألت **تومي**، والدي، لماذا لا تستقدم إلى البيت إلا العرب؟

حدّق فيّ بصمت. لم ينبس ببنت شفة. تركني أجتاز شهادة الدراسات الابتدائية. وفي العام الموالي، زوّجني من ذلك الصديق الذي كان يكن له الاحترام.

كان زوجي رقيبا أو رقيبا أولا. كنت، في الأشهر الأولى من زواجنا؛ أجلس إلى جانبه، كل مساء بعد العَشاء، وأقرأ عليه الجريدة ثم نأوي إلى الفراش.

في سن الخامسة عشرة، أنجبْت ولدا. في ذلك العام، هرب أخي بالتبني من المنزل: لم يخبر والدتي، ولم يرجع إلى والده، بل توجه مباشرة إلى الجزائر العاصمة. عمِد بعدها إلى تزوير وثائقه ليضيف إلى عمره سنتين أو ثلاث سنوات ثم التحق بالقوات البحرية.

آلم ذلك والدتي أشد الألم: كانت لا تنفك عن البكاء. كنت أذهب لمواساتها وأنا حامل آنذاك لكن على وشك الولادة. وفي لحظة اندفاع، وقد أثر في حزنها، اقترحت عليها مُشيرةً إلى بطني:

- "امّا"، إن كان ولدا، فخذيه: لكن، افعلي ذلك في اليوم الثالث لئلا يتعلق به قلبي!

نظرت إليّ عربية متفاجئة، ثم سألت مترددة:

- أحقا ستوافقين على ذلك؟

- ستكونين أما أفضل مني! أجبتها وكنت أظن بصدق أن ذلك سيملأعليها الفراغ الذي تركه أخي عَلي.

استأنفَت الكلام بحذر:

- لكن ماذا عن زوجك؟ هل سيقبل؟ وإذا كان المولود بنتا ...

لم أفهم إن كانت تقصد بذلك أن زوجي سيقبل بسهولة أكبر التخلي عن بنت، أو إذا كان، بالعكس، شأنه شأن والدي معي، سيتعلق بها أكثر ...

كنت واثقة في شبابي، فضحكت. حتى أنني ربتُّ بكفي على بطني البارز قائلة بغرور وصبيانية:

- عندي المصنع، هنا! سأنجب لنا غيره!

عندها، فكرت والدتي في الاقتراح بجدية وقررت:

- فلتخبري زوجك: أنا، عربية، أعدكما، وْحَقْ النْبي، بأنني سأُربّيه إذا كان ولدا بكل ما أوتيت من محبّة! لكن، إذا حدث لسوء الحظ أنْ ولدت، فيما بعد، البنات فقط، فأعدكما أنني، قبل أن يبلغ هذا الولد سن السابعة، سأعيده إليكما!

وهكذا، اتفقنا على الأمر.

## II

ولد هذا الولد عام 1936؛ وأصبحت والدتي إذن أمه ابتداء من اليوم الثالث!

طوال عام، كنت أشعر بالرضى: كنت مرتاحة وراضية. كانت تلك مصادفة جيدة: فقد أُعلن أن زوجي سيُرسل إلى فرنسا لإجراء تريص هناك، في فونتانبلو. سافر زوجي أولا ثم جعلني ألتحق به بعد شهر. آه، فرنسا! ... هناك، عاشرت نساء فرنسيات: كنّ جميعهن زوجات ضباط صف، وكنّ يستغربن معرفتي لغتهن. كانت فرنسيتي خالية من الأخطاء! وكنّ يلاحظن كذلك شبابي، بطبيعة الحال، فقد كنت في الثامنة عشر من العمر فقط ...

هكذا، عندما كنت أحضر برفقة زوجي الذي كان تجاوز الأربعين، كنّ يقلن له:

- زوجتك .... كم هي شابة!

وكانت بعضهن يضفن:

- وكم هي أنيقة! ...

كنّ يقصدن ضمنيّا:

- حقّا إنّ بشرتها بلون الحناء، وشعرها أسود لامع، وعينيها مخمليتان، لكن قد تكون من مرسيليا أو نيس أو كورسيكا ... (كنّ يتعجبن، وكنت أفتخر بهذا على وجه الخصوص). إنها تتكلم بدون لُكنة!

إذْ سرعان ما وجدتُ متعة في الاهتمام بمظهري وشراء المجلات ثم الكتب ...لكنني ألاحظ ذلك الآن: كانت تلك السيدات لطيفات، لكن لم تكن لديّ صديقات حقيقيات أقصّ عليهن حياتي – وحتى إن كان الأمر كذلك، هل كنت سأتجرأ على الحديث عن والدتي وعن الطفل الذي تركته في عنايتها؟ ...

بعد ذلك، اندلعت الحرب. عُين فيلق زوجي باللّورين. لم يحدث معه شيء: لم يكن يقاتل حتّى! ثم كان الاستسلام.

أما أنا، فقد بقيت بفونتانبلو لوحدي ذاهبة آيبة في ذلك المسكن، وكنت أبكي في الكثير من الأحيان بسبب وحدتي! وأخيرا، عاد **قاسم** ورجعنا إلى البلد ثم تمت ترقيته وعُيّن بالْمديّة.

ذهبت لزيارة أمي لكن ما إن وصلت حتى رحت أبكي إذ أبلغوني بوفاة والدي في المستشفى قبل عام بعدما اشتدّ عليه مرض السل! بالإضافة إلى ذلك، لم تكن تصل والدتي أخبار عن **علي** إلا نادرا، لهذا، تعلّقتْ أشد التعلق **بمحمد**، ذلك الابن الذي كنت قد تركته لها، والذي لم أجرؤ، في هذا اليوم الثامن الذي كنت سأتركها فيه للالتحاق بزوجي بالمدية، لم أجرؤ على الحديث عن أخذه منها: ما الذي كان سيحل بها إن بقيت لوحدها؟

كانت تعيش من نصف المعاش العسكري الذي كان يتقاضاه والدي، وكانت قد أحضرت والدتها العجوز التي أصبحت عمياء لتعيش معها. كان أطفال الجيران يتسوقون لهما. افترقنا، **عربية** وأنا، والدموع تغمرنا.

ماذا أحكي لك عن حياتي في المدية، يا ملكتي الصغيرة؟ وذلك، حتى حلول الاستقلال؟ لا شيء يستحق الذكر باستثناء ولادة نذير، بطبيعة الحال، في 1941 ... الذي عَرَفْتِه في تلك الاحتفالات التي شهدتها العاصمة: هو الذي احتلّ في قلبي مكان المولود الأول – الطفل الذي منحته لأمي، أسأَل الله أن يرفق بهما ويتغمدهما بواسع رحمته!

## III

*أنا **أنيسة**، كنّة **فاطمة**. بعد مرور بضعة أشهر على الاستقلال، رافقْتُ والدتي **الطاوس** إلى الجزائر العاصمة حيث كانت ستسافر على متن باخرة (ليس إلى فرنسا، إذ لم تكن والدتي من "الأقدام السوداء"، بل هي بربرية لم ترد، منذ شبابها، أن تكون مسلمة ولا أن تنتمي إلى أي عقيدة). لقد قررت أمي أن تعيش أيام تقاعدها من التعليم بجزرالبليار، ببالما. فقدعزمت «نعم، في هذه الجزيرة سأعيش وسأموت، لا في الجزائر عند العرب، ولا عند الفرنسيين»، هي التي كانت قد أظهرت نزعتها الوطنية الجزائرية منذ فترة طويلة جدا ...*

*أذكر هذا المسار الأمومي أمام **فاطمة**. فقد تزوّجْتُ ابنها نذير الذي تعرفت عليه بالجامعة حيث كان يتبع دروسا خاصة بقدماء المقاومين. تزوجته قبل عام دون بروتوكول، بعثنا برقية **للطاوس** ببالما ثم ذهبنا إلى المدية للتعرف على حماتي التي بالكاد تجاوزت الأربعين.*

*بعد مرور وقت قصير، أبلغت **فاطمة**، التي كانت أرملة تعيش لوحدها والتي رفضت، بالرغم من ذلك، الالتحاق بنا في الجزائر العاصمة، أبلغتها انني حامل ... وانني قلقة: كيف سأتمكن من إنهاء دراستي للحصول على شهادة الليسانس؟*

*وعدتني **فاطمة**:*

*- سآتي إلى الجزائر العاصمة لزيارتكما عندما تضعين وسأساعدك على الاهتمام بالطفل!*

كنت رافقتها لزيارة مقبرة مدينتها حيث ترحمت على روح ابنها الأول، **محمد**، ذلك الذي التحق بالمقاومة في الجبال منذ 1955 والذي لحق به **نذير**، وهو صغير جدا، عندما غادر الثانوية عاما من بعد...

في الليلة التالية لهذه الزيارة، وأنا متربعة أمام فراش **فاطمة**، سمعتها تسرد قصتها حتى مطلع الفجر...

لكن، جاء دوري كي أستغرق، ليس في القص، وإنما في عملية اعتراف عادي ...

# الطفل الممنوح، مجدّدا؟

## I

في هذه الليلة الطويلة لقصة **فاطمة**، غطّ **نذير** في سبات عميق على مقربة منا بعد أن انتظرني بدون جدوى. عندما يأتي **نذير**، في الصباح الباكر، لتقبيلنا وتُقدّم له والدته بسعادة الفطائر المحلاة بالعسل، التي تُعدّها خصيصا له، يبدأ بالمزاح – ويستعمل دائما لهجة ساخرة لدرجة أنه يبدو مستفزا، خاصة عندما يذكر ذكريات، تكون دائما متشظية، عن زمن مقاومته بالجبال وعن سجنه.

قال لي:

- **مومو** هو الأول الذي اهتم بتثقيفي السياسي! هل تعلمين أنه بالكاد قبل عامين من بداية حرب التحرير، لم أكن أعلم حتى بأن لي أخا؟

ثم بدأ **نذير** يضحك من قلبه بالرغم من نظرة أمه الحزينة التي همست:

- **نذير**، نحن نحبه لذلك! – قالت **فاطمة** وهي تخاطبني: إنه يمزح في كل شيء، خاصة عندما نوشك على الغرق في الحزن!

قامت وغادرت الغرفة.

أنا إذن حامل. تجاوزت مرحلة التقيئ والتوعك لكنني لست ثقيلة بعد. حكيت لـ**نذير**:

- في هذه الليلة، علمت كيف قبلت والدتك، وهي صغيرة جدا في سن الخامسة عشرة، منْح ابنها الأول إلى والدتها!

- فعلا، تذكّر **نذير**، عندما أصبح والدي ضابطا، عشنا هنا وسط العائلات الفرنسية حصرا... أصبحت الفرنسية لغتي الأم تقريبا! بالكاد

أتـذكـر عرْبيـة، جـدتي مـن السـهول العليـا: لم أرهـا إلا عنـدما كنـت طفلا صغيرا!

- ألم تكن تتكلم اللغة العربية مع والدك؟

- أظـن أن والـدي كـان يحـس بـدنوّ العاصـفة ولم يكـن يهمـه إلا التقاعد قبل فوات الأوان: وقد فعل ذلك قبل 1954 بقليل. والحال أنّه في صباح أحد الأيام، أتذكر ذلك كما لو أنه حدث البارحة.... (في تلك اللحظة، دخلت **فاطمة** ولاحظت أن **نذير** أناب عنها في قصّ الماضي فجلَست على حصيرة دون إصدار ضجة) ... إذن، في ذلك الصباح الخريفي، قبل الدخول المدرسي، رنّ جرس الباب.

كنت في الحادية عشرة من العمر تقريبا. ذهبت لفتح الباب: وها هو أمامي ولد يبلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة يلبس لباسا عربيا على الطريقة الأكثر تقليدا، طريقة أنيقة لكن تقليدية (غاص **نذير** في الحلم لثانية، ثم ...) ناديت أمي من الباب، بالفرنسية بطبيعة الحال –ترسخت هذه العادة عندنا كي يتمكن والدي من "تحسين" لغته الفرنسية البدائية بعض الشيء. نعم، أبلغت أمي وأنا أتأمل هذا المراهق الأجنبي وعلى أتم دراية بأنه ليس هنا لكي يتسوّل، لا، إذْ كان يرتدي لباسا أنيقا، لكنه قدم من أبعد مناطق الريف، ما الذي كان يريده عندنا؟ «أمي، صرخت بالكاد، هناك عربيٌّ عند بابنا!»

ضحك **نذير** ولكن مع شيء من المرارة (فيما بعد، عندما كنا لوحدنا، علّق: «نعم، كنت أشعر، أنا، بأنني فرنسي صغير، كنت قد أصبحت منتوجا جيدا للاستلاب الاستعماري!»)

## II

- وصلت والدتي إلى الباب. كانت أنيقة ورشيقة في كعبها العالي وفستانها القصير مثل فستان المرأة الأوروبية. فجأة، رأيتها تحتضن "العربي

الصغير"، التفتت إليّ وعيناها مغرورقتان بالدموع وقالت لي بلطف شديد: «**نذير**، هذا العربي الصغير هو أخوك ... أخوك الأكبر! والدتي قبلت أخيرا أن تعيده لي!»

أدخلت المراهق "**محمد**"، قالت وهي تقدّمه لي.

كان "**مومو**"، هكذا أصبحت أناديه فيما بعد، قد ارتاد المدرسة الفرنسية بأومال، لكنه كان يصرّ، وبقي يصرّ لزمن طويل، على التكلّم، في المنزل، باللغة العربية فقط، وهي في نهاية المطاف لغة أمه "الحقيقية"، **عربية**.

وأضاف **نذير**، بنبرة أكثر جدية:

- في السنتين التاليتين، حتى إن كان **مومو** يحاول الاستمرار في مجال التعليم التقني في الكهرباء، بدأت أنا، بفضله، أتكلم اللغة العربية ... والأهم أن **مومو** كوّنني في المجال السياسي، دون حتى أن يدرك ذلك. كان يروي لي عن بؤس المناطق الجنوبية والظلم المتزايد والمزايا التي كانت تحظى بها الأقلية الأوروبية! ...أمّا البقية، اختتم قوله لأنه لم يرغب الاستمرار في هذا الماضي، فأنت تعرفينها يا **أنيسة**!

فعلا، أنا، **أنيسة**، كنت قد علمت مسبقا من **فاطمة** ظروف موت "**مومو**" في القتال، في عام 1958، بالجبال المشرفة على البليدة. أما **نذير**، الذي جرح وهو برفقة أخيه، فقد قضى بقية الحرب بسجن بربروس بالجزائر العاصمة.

## III

بعد بضعة أشهر، نزلت **فاطمة** من المدية لتلحق بنا بالجزائر العاصمة.

بعد أن انتهى **نذير** من اجتياز الامتحانات الأخيرة، بدأ يزاول مهنة صحفي في وكالة أنباء. وقد سمح مسكننا الجديد المكوّن من ثلاث غرف والموجود بأعالي الجزائر العاصمة، سمح **لفاطمة** أن تنتظر برفقتنا

قدوم المولودة الجديدة "**مريم**". كانت حماتي ترافق الجارات كل جمعة إلى مقبرة بلكور مع أنها لم تكن تُصلّي:

«إن قبر **محمد** وقبر والده العجوز– الذي لحقه في الموت بسرعة بسبب الحزن – يحتاجان إلى زيارتي، في الأعالي!» تمتمت عند عودتها.

ها أنذا، أنا، ابنة **الطّاوس**، أستعد رويدا رويدا لغلق الدائرة –هذه القصّة التي تتطلّب العناية والتي لم أكن أريد الاقتراب منها... ألن يقوم خيط السرد بشدي وتقييدي وسجني؟

شعرت برغبة في سرد قصة أمي **الطاوس**، المعلمة القبائلية التي لازمت مهنتها بمدينة أخرى من مدن الجبل، مِلْيانة:

- كانت **الطاوس** قد تزوجت، في الثلاثينيات، من فرنسي من "المتروبول"* والذي قدم إلى هنا تقريبا بالصدفة بصفته مهندسا للجسور.

وراحت **فاطمة** تقول مستفربة:

- كان لأمك هذه الشجاعة: أن تتزوج من غير مسلم وأن تبقى في مدينتها؟

- كان والد أمي مدرسا اشتراكيا مقتنعا، وحرص على تربيتها حسب أفكاره. وقد بقيت بمليانة، حتى وإن خيّمت العزلة على هذين الزوجين من قِبل المجموعتين (العرب والفرنسيون). كانت **الطاوس** تدير مدرسة عليا للأستاذات وكانت تكرّس نفسها بالكامل لعملها! ثم ترمّلت في وقت مبكر: كان والدي يفرط في الشرب أحيانا، وقتل نفسه بعد 1945 بقليل في حادث دراجة نارية. غادرأخي، الذي رضيت أمي أن تطلق عليه اسما فرنسيا، في وقت مبكر جدا للاستقرار بفرنسا. أما أنا، فقد سمّتني **أنيسة** ولكن (أتذكر وأضحك) كانت تسميني أحيانا كذلك **أنّي**!

---

* ملاحظة المترجم(ة): المتروبول كلمة تطلق على البلد الاستعماري المسيطر بالنسبة للمستعمرات التابعة له.

بعد لحظة صمْت ختمت قولي:

- عند الاستقلال، قررت **الطاوس** الذهاب للعيش بمكان آخر، من المحتمل أنها سمعت عن قصص محلية كثيرة عن الانتقام (لم ترغب يوما في إخباري عن الأمر)، مكان يكون بين البلدين، نوعا ما...

فجأة تساءلت **فاطمة** التي استمعت لي بانتباه:

- إذا لم تأت **الطاوس** إلى الجزائر العاصمة لرؤية حفيدتها، فأنا – أنا التي كنت أحب في الماضي السفر كثيرا– سآخذ الطفلة إليها!

لم أضف ولا كلمة. لم أعد أفكر في والدتي، وإنما في هذا المولود الذي يتحرك في بطني من أعماق الظلمات والذي سيتموضع تدريجيا بيننا، أنا و**فاطمة**!

## IV

ولدت **مريم** في شهر جويلية ... عدنا جميعنا إلى المْديّة: إنّ الجو في غاية الجمال في الصيف في هذه المدينة بأعالي جبال الأطلس. منزل **فاطمة** مِضياف، يوجد به بستان في الخلف وحديقة صغيرة مزهّرة وواجهة. وتوجد في المؤخرة، شجرة لوز قرب السياج رأيتها، في المرة الأولى، مكسوّة بالأزهار.

بعد شهر، وجب على **نذير** العودة إلى الجزائر العاصمة من أجل عمله ونُويْت اللحاق به قريبا.

- يمكنك أن تتركي **مريم** معي هنا! اقترحت علي **فاطمة** في صباح أحد الأيام، شهرا أو ستة أشهر أو طوال العام إذا أردت، سأعتني لك بها: هكذا ستضمنين إتمام دراستك في الليسانس!

صَمتْتُ. فَطمْتُ الطفلة في وقت مبكر جدا! كانت **فاطمة** تملك خادمة، وبستانيا عجوزا يقوم بالتسوّق من أجلها، وفي المنازل المجاورة أصبحت الحضريات الجديدات صديقاتها. بالفعل، ستكون الطفلة هنا مَحلّ عِناية.

منذ البداية، كانت **مريم**، عندما تنام في أحضان **فاطمة** أو قرب فراشها، لا تبكي أبدا في الليل. لن تشتاق إليّ: أنا أشعر بذلك.

أوصتنا **فاطمة**:

- اعتادا، أنتِ **ونذير**، على القدوم إلى هنا، على الأقل مرة كل عطلتي نهاية الأسبوع، على أقل تقدير قبل سقوط الثلوج الأولى ....

لم أستطع النوم طوال الليلة التالية. بعد يومين، عدت لوحدي إلى الجزائر العاصمة، واستأنفت حياتي الجامعية برفقة **نذير**.

كنا نخرج كل مساء: نذهب إلى السينما أو إلى مطاعم السمك بلابيشري*. نعود بعد ذلك سائرين على الأقدام حتى أعالي المدينة، في مجموعات صغيرة من الأصدقاء والرفاق ونفرق جميعنا في الحديث في السياسة، سياسة العالم بطبيعة الحال!

غارقون جميعنا، إلا أنا! رُحْت أقول لنفسي فجأة، وأنا مستيقظة في فراشنا وعيناي مفتوحتان: «أنا إذن، بدوري، أعطيت ابنتي! أعطيتها حقا؟»

أصبح **نذير** ينشغل أكثر فأكثر في أنشطته الجديدة وغالبا ما يعود متأخرا في المساء. وصار، تدريجيا، يتركني أستقل الحافلة إلى المْدية وحدي. كنت أبقى ثلاثة أيام كاملة مع **فاطمة** والصغيرة، **وأنقل لنذير** أخبارهما، كنت أحمّض من أجله الصور التي تبرز تحوّلات الطفلة.

اقترب موعد امتحانات الليسانس الأخيرة. عملت إذن بكدّ وكنت أهاتف **فاطمة** يوميا تقريبا كي أسمع منها الأخبار. كانت **مريم** تبكي ليلا.

- هذا أمر طبيعي جدا! قالت لي حماتي مطمئنة. إنها تسنّن! ...

---

* ملاحظة المترجم(ة): تسمى كذلك الآن بالمسمكة.

كان نذير يستمع بالكاد ويترك صور ابنته مبعثرة على مكتبه الفوضوي.

عند اجتياز امتحاناتي، عدت مسرعة إلى المْدية. رافقني نذير، لكنه لم يبق إلا يوم الأحد. أما أنا، فلم أحدد لنفسي تاريخا للعودة. إنها لَأيّام رائعة تلك أقضيها في تأدية الطقوس واللعب مع مريم التي بلغت الآن عشرة أشهر. ستمشي عن قريب!

لمريم الملتصقة بفاطمة عاداتها الخاصة بها، فهي تزحف أحيانا إلى فراشي. أبقيها معي في غرفتي ويتوقف الزمن. كنت أنسى الجزائر العاصمة، ونادرا ما أهاتف نذير، وأنتظر مَنْصِبا في التعليم مع حلول العام الدراسي في فصل الخريف.

في يوم من الأيام، بدأت مريم، في الصباح، تخطو خطواتها الأولى، تترنح ثم تسقط. كنا نشجعها بالتناوب، أنا وفاطمة. لم تكن تبكي وكانت تعيد الكرّة: تترنح لكن تستمر في التقدّم، وأنا موجودة هنا، يا الربّ، يا رسول الله الحنين، كنت أتعجب مثلما كانت تتعجب الطاوس أحيانا (وهي الكلمات العربية الوحيدة وكلمات العبادة الوحيدة التي كانت تلفظها أحيانا عند ظهور اضطراب ما). أنا هنا، حاضرة، أنظر بإعجاب إلى ابنتي. إنها تمشي بخطى متقطعة لكن لوحدها: ستكون حرة، حرة تماما في يوم من الأيام مثل الطاوس في بَالْما!

بعثت برقية إلى نذير ووصفت له الحدث. كتبت مصرّة: «خاصة، لا تنس تسجيل مريم بالحضانة!»

## V

عدت إلى الجزائر العاصمة، من جديد من دون ابنتي. أحتاج إلى بعض الوقت لأجد مكانا في الحضانة أو، إذا تعذّر الأمر، امرأة أثق فيها كي ترعى الطفلة في الشُّقّة عندما أذهب للتدريس.

استأنفت عادة مهاتفة **فاطمة** كل صباح. بدأ موسم الخريف يمضي وبدأت دروسي بالثانوية. أما **نذير** فنادرا ما أراه. أصبح يعود متأخرا أكثر فأكثر ... قلت لنفسي: «يعود الأزواج تدريجيا إلى حياة العزوبية: يخرج الرجال مع بعضهم البعض مثل إخوتهم ومثل أجدادهم!».

لست موافقة، لكنني لا أثير النقاش. يبدو لي أنني أشتاق إلى **مريم** على وجه الخصوص!

فجأة، بعد بضعة أيام أو شهر أو شهرين، ظهر خلافنا الأول وأكبر شجار بيننا: حدث ذلك يوم جُمعة، أتذكر اليوم لأنني كنت أسمع، من مئذنة جامع قريب، صوت المؤذن – ليس الصوت النقي والعذب الذي كنا نسمعه فيما مضى وإنما لحنا أصبح الآن متضخما وأخنّ بفعل مكبّر الصوت – يدعو المؤمنين إلى صلاة منتصف النهار الجامعة... لم يكن يوم الجمعة يوم عطلة بعد، سيصبح كذلك في وقت لاحق، لكنني لن أكون موجودة في هذه المدينة!

بالفعل، شبت بيننا مشادّة كلامية حادة: ذلك أمر عادي أن نختم السنة الثانية من الحياة الزوجية بهذه الطريقة!

لا يهم إذن تعاقب الأحداث ولا الحجج ولا العناد من هذا الطرف أو ذاك. فبعد مرور أشهر، لا أتذكر من هذا الشجار إلا جملتين أو ثلاثا:

- قليلا ما أراك لدرجة أنك أصبحت تبدو لي عابر سبيل هنا! ... لوكانت **مريم**، على الأقل، هنا برفقتنا!

أجاب **نذير**:

- دعي **مريم** خارجا عن هذه المسألة، هي بخير مع أمي!

- لا، سأذهب لإحضارها. لقد اتخذت قراري! أنا وأنت، مسؤولان عن طفلتنا!

ردّد زوجي وهو في غاية الجدّ:

- دعي **مريم** خارجا عن هذه المسألة!

عندها صرخت وضربت الأرض برجليّ. ما الذي عبرت عنه إن لم يكن رفضي لهذا الإنتقال الغريب لأمومتي إلى أخرى، أمومة جدّة تحلّ محل الأم تدريجيا. وكان عليّ، علاوة على ذلك، أن أشكُره؟ بالإضافة إلى هذا فكّرت، حتى إن كان يمكن **لفاطمة** أن تعوّض الأم، ماذا عن الأب، أين يقف إذن، ما هي صورته في الوعي الحالي للطفلة؟

لمّا يعود النقاش بيننا، يحتدم وينحرف. هل السبب غضبي أم جرحي؟ لم أعد أعرف. لكن، يُخيّل لي أن **فاطمة**، غير مرئية، متربّعة في مكان ما، في ركن من أركان الغرفة الزوجية وتعدّ، بلا شفقة، الضربات التي نتبادلها، مثلما يحدث في مباراة ملاكمة. بطبيعة الحال، هي تنتظر أن يقوم ابنها المحبوب بسحقي ... ربما!

انطلاقا من هنا، يُعاد هذا المشهد في كل مناسبة، كنت، بطبيعة الحال، أنا المجروحة أكثر فأكثر من هذا الهجران واستقالة **نذير**، أنا التي كنت هائمة في الشوارع السُلّميَّة بالعاصمة لأجفف دموعي في الهواء خارج المنزل.

## VI

في يوم من الأيام، بعد أسابيع من الاضطراب، كنت أريد السّكينة. أريد ابنتي. حزمت حقيبة صغيرة وأنا أعضّ على نواجذي وتركت رسالة لـ**نذير**:

«إن عطلة عيد ميلاد المسيح على الأبواب. أنا ذاهبة إلى المْديّة. البارحة، عندما عبرت عن رغبتي في الذهاب مع **مريم** لزيارة أمي ببالما، تجرأت أن تقول لي:

- سيلزمك ترخيص من الأب كي تغادري مع ابنتي! لن أعطيه لك في الوقت الحالي.

لقد بلغ السيل الزّبى!»

وقّعتُ الرسالة وتركتها على المكتب الفوضويّ.

وصلت عند **فاطمة** في اليوم نفسه. لم أقل شيئا لحماتي عن أسابيع شجاراتنا.

وعلى مدى يومين متتاليين، أبقيت معي **مريم** في الفراش والبستان والمطبخ، **مريم** التي لم تَتعرّف عليّ عند وصولي. نعم!

في اليوم الثالث، أبلغت **فاطمة** أنني سأذهب برفقة **مريم** للتجول في متنزه المدينة ثم سآخذها فيما بعد للتسوّق معي.

تركت حقيبتي في الغرفة على مرأى العيان. ليست **مريم** معطفها بسبب البرد ونفّذت ما خططت له. في المدينة، اسْتقْلّت سيارة أجرة. وكنت أحمل معي كل مالي نقدا وأضم جميع وثائقي ووثائق ابنتي.

نحتاج إلى أربع ساعات من السفر بالسيارة للوصول إلى الجزائر العاصمة. عندها فقط أمرت السائق بأن يتفادى المدينة:

- إذهبْ مباشرة إلى المطار! أوضحت له.

كان والدي – الذي لم أعرفه كثيرا – فرنسيا، وبقيت **الطاوس**، في منفاها، تحمل الجنسية نفسها. وقد كانت الفكرة الجيدة لمّا سجّلت **مريم**، عند لادتها، في جواز سفري الفرنسي كذلك الذي ظننت أنني لن أستعمله مستقبلا... وأنا على متن الطائرة المتوجهة إلى مرسيليا، فكرت أخيرا، بعد الإقلاع، في انتظار **فاطمة**، هناك، وفي قلقها.

ذهبنا من مرسيليا إلى بالما على متن باخرة. استقبلتنا **الطاوس** بعينين ضاحكتين لكنها لم تطرح أي سؤال.

قلت لها بنبرة حزينة:

- مسافرتان دون حقائب!

في المْدية، من المؤكد أن **فاطمة** تتعذب لغياب ابنتي. لكنها لن تلومني على ما فعلت، أحس بذلك! لا أكف عن التفكير فجأة في **عرْبية** ... ماذا، **عرْبية**، تلك المرأة التي لم أعرفها، هي لا تعني شيئا بالنسبة لي!

لماذا إذن، من مكانها البعيد، قد تقضّ مضجعي؟

*سبتمبر- أكتوبر 2001.*

# اليـــوم

# نساء ' الجزائر' في شقتهنّ

## إلى أختي سكينة

### I

*رأس امرأة شابة معصوبة العينين، ممدودة الرقبة، مسرّحة الشعر – غير أنّ الضباب الذي يغمر الغرفة الضيّقة يحول دون تمييز لونه –، ربّما هو لون كستنائي فاتح، بل أصحر، أيمكن أن تكون تلك صارة؟ كلا، ذاك ليس شعرًا أسودَ.... بشرتها تبدو شفافة، على صدغها قطرة عرق لؤلؤية... تلك القطرة على وشك السّقوط. وذاك خطّ الأنف، وحاشية الشفة السفلى ذات اللون الوردي الفاقع: أعرفها، تعرّفت عليها ! فجأة؛ أخذ ذاك الملمح يتأرجح يمينا وشمالاً، تأرجحًا بطيئا خاليا من صوت تهويدة الحاضنة الذي كان يدفئنا جميعا في مهد الصبا؛ العالي والمعتم. كان يتأرجح يمينا وشمالا، وقد توقّف بكاء الألم العذب؛ استحالت لؤلؤة العرق دمعة، دمعة ثانية. دخان يتصاعد في أعمدة لولبية. كان الشقّ الأيسر للوجه معصوبا (عصابة بيضاء، لا سوداء، فهي ليست مدانة، لا شكّ أنّها وضعتها بنفسها، وسوف تنزعها وتقهقه وتشع حياة أمام عينيّ، هي ...)، وأما الشقّ الأيمن فيرشح رشحا في غمرة الصمت، بل الصوت المقطوع، شهقاته حسكات عالقة في العنق؛ وفي الشقّ الآخر من الوجه، ملمح جامد، تمثال بعيد سيحلّق إلى الوراء، دومًا إلى الوراء. صوت مقطوع...صارة... عند مناداتها، يضطرب النداء لتفادي التّضحية، ويا لها من تضحية ...*

*أخيرا، ضجّة قادمة من الغرفة الدامسة: رجال صدورهم عارية، على افواههم كمّامة الممرّض (كلا، ليس ممرّضِيَّ "أنا" : هؤلاء رياضيون، غُذُّوا جيّدا، ولهم طباع هادئة...)، يذهبون ويجيئون، ولا أستطيع عدّهم.*

*أخيرا هذه الضجّة، يا لهذه الاستراحة: قد يكون الريف هناك، قريبا جدّا؛ "دوّار" يُرى من كوة الحائط المفتوحة. ثغاء عنزة تليه أنغام 'بيكولو' تنبعث من خمّ الدّجاج... لا وجود للعصافير، صوت بكاء أطفال يأتي من بعيد تنبعث منه نغمة مرحة، نافورة في موقع عال، بل نبع بالأحرى، حيث الماء يرشّ الحشيش النابت... في موقع قريب، رئيس الممرّضين يعالج شيئا، يشغّل محرّكا، لكنّ ماء النّافورة يغمر كلّ شيء، سيول غذّاها الخلاص من الأسر، والعنزة تثغو وحيدة متطلّعة إلى الأفق البعيد، ولم يبق هنالك أطفال يغنّون أو يئنّون، فالأمر سواء...*

*قناع المرأة الشابة المُثبت في مكانه، الساقط جانبًا، ربّما بلا رقبة، أخيرا تتكشف الطاولة على جنبها قوارير معلّقة وأنابيب، هل هي معدّات مطبخية؟... طاولتي "أنا"، قاعتي "أنا"، لا، لن أجري عملية جراحية لأنّني لست هنا، في الداخل، مطوّق أنا أيضا، أنظُرُ، لكنّني لست حاضرا معهم، هل ستستفيق* ***صارة****، التخدير، بداية العملية أم نهايتها، وهذا "الدوّار" القريب الخالي من أصوات النّساء والأطفال، ودون نداءات تنبعث من الأفق، العنزة فقط، عنزة بيضاء ممدودة الرّقبة، اتّسعت الكوّة، سماء بيضاء تماما"، كأنما طليت بطلاء أبيض، سماء بكر، صامتة هي أيضا، تكبر فوق رؤوس الممرّضين، لا، فوق رؤوس التقنيّين، سماء ستمحوهم جميعا. مرّة أخرى طفل يئن عن قرب، أو لعلّها* ***صارة****، عيناها معصوبتان، عيناها مثقوبتان... بدأ المحرّك يشتغل بطريقة خطيرة، هل هو جهاز التعذيب الكهربائي؛ "الجيجين"...*

قفز **علي** من على سريره دفعة واحدة.

غمر ضوء الشمس أرجاء الغرفة، وكانت الشرفة مطلّة على زاوية من زوايا المدينة ومائلة نحو قوارب راسية في مرفإ. مراكب هادئة.

كانت **صارة** تستعمل آلة تحميص الخبز وهي تذرع المطبخ ذهابا وإيابًا. أمّا **علي**، الذي كان للحظةٍ متّكئًا على إطار النّافذة المطلّة على الشّرفة، فقد بدأ يستعيد وعيه تدريجيا. كانت عيناه ترفّان تحت تأثير

ضوء النهار القزحي، فرجع إلى داخل الغرفة وتوجّه إلى الحمّام، وفكّر: «الماء، أنا في حاجة إلى الماء النديّ !»، سيرشّ نفسه بالماء وسيتخلّص تماما من تهيّجات هذا الرقاد.

رنّ الهاتف. فجأة ظهرت صارة في الرواق.

انحنت ثم انتظرت: الحليب على النار وقد يحترق.

بادرت آن بالحديث: «هذه أنا ! أتستطيعين المجيء؟ لست على ما يرام» ... (لحظة ترقّب؛ نادت صارة هامسة)... ثم استأنف الصوت المعزول من بعيد كلامه، «لست البتة على ما يرام».

عادت صارة إلى المطبخ وتخلّت عن تحضير الفطور، ثمّ انتعلت حذاءها في الغرفة التي كان علي لحظتها يمارس فيها تمارينه الرياضية وأخذت مفاتيح السيارة.

- ما بال نزيم، أما يزال غائبا؟ (دمدم صوت رجل خلفها). قد نحتاج إليه هنا، الآن وقد...

انصفق الباب بقوة بفعل التيار الهوائي. هذه صارة تقود عبر الشوارع الضيّقة التي تصعد، وتنزل، لتتحولّ تدريجيا إلى أروقة أحلام منفلتة. شوارع مليئة بالقمامة. فجأة تنبّهت صارة: «اليوم الثالث لتوقّف عمّال النظافة عن العمل». لازمتها على طول مسارها حالة من التوتّر.

«هل يحدث هذا مع علي فقط، أم أنّها الحال معهم جميعا؟ ... عندما يخاطبني الآخرون، تكون كلماتهم مفكّكة..تسبح في الفضاء قبل أن تصلني ! ... هل الأمر سواء عندما أتحدث أنا، إن تحدّثتُ؟ صوتي لا يبلغ آذانهم. إنّه يظلّ محبوسا بداخلي.»

غير أنّ نبرة آن الأولى، وهي في التلفون، أحدثت فورة جزع ارتجّت لها السمّاعة.

عندما توقّفت السيارة، فتحت صارة باب رواق مفروش بالفسيفساء. منذ يومين وآن منعزلة في هذا المسكن القديم.

في الحمام المشيّد بالرّخام المائل إلى الخضرة، كانت حركات صارة مضبوطة وفعّالة: كانت الحنفية مفتوحة عن آخرها، وكانت آن تتقيأ في حوض الحمام لوقت طويل. أحضرت صارة العدّة اللازمة: دلو ماء، ومنشفة الأرضية، واسفنج؛ الأضرار كثيرة وتحتاج إلى الإصلاح.

كانت واقفة تنظر إلى المرآة المعلّقة فوق المغسل: ووراء الفرنسية ذات الشعر المديد الطول جذبت صارة تلك الكتلة السوداء. انحنت آن ثم بدأت ترشّ الماء على خدّيها وجبهتها وكامل وجهها. أطلقت أنّات متقطّعة. ودون أن تتحرّك، صنعت لها صارة ضفيرة شعر، ثم حملت بإحدى يديها قارورة عطر كولونيا وفتحتها ثم سكبت القليل منه على قفا صديقتها وتراجعت إلى الخلف. تعطّرت به هي أيضا، لكي تزيل رائحة القيء... لم تعد تسمع أنين آن:

- أنا آسفة، حقا...، اعذريني !

في الغرفة الواسعة، المنخفضة، التي غمرها ظلّ خفيف، حيث نامت المسافرة العابرة، رتّبت صارة المطارح، وعدّلت الوسائد ونفضت حصيرة الديس...

«من المفيد العيش مع جرّاح. لو حدث ذلك في الماضي لطلبت النجدة، بغباوة. وقد تناولت الكثير من الأقراص دفعة واحدة: يكفي فقط إرغامها على التقيؤ، الأمر في غاية السهولة !».

كانت آن تروح وتجيء راسمة بحركتها دوائر جامحة وسط الغرفة الفارغة. جلست صارة في زاوية على البلاط. فمن المعروف أنّ الحجر يقضي على الروائح: روائح المرض وروائح اليأس.

قالت آن مستهزئة: إنّها حالة كآبة عابرة ! ... ميلودراما بأتّم معنى الكلمة: قلق امرأة ناضجة ومهجورة، محاولة انتحار فاشلة ! ... لا يوجد إلاّ شيء واحد غير مفهوم: لماذا القدوم من مكان بعيد جدّا فقط لأمر كهذا ؟

أشارت بيدها على نحو متقطّع إلى الوسائد والمطارح التي أصبحت الآن مرتّبة.

- كان لا بدّ عليّ أن أخبرك بذلك البارحة، عندما انتظرتني في الميناء (تنهّدت ... ثم استرجعت رقّتها): اعلمي يا صارة أنّني جئت إلى هنا لكي أموت !

كانت صارة جالسة القرفصاء في الركن الأبعد والأظلم من الغرفة، وقد شعرت فجأة برغبة في أن تغرق في الظلمة.

- أدركت ذلك البارحة فجرا عندما قصدت السطح: كانت السفينة تقترب؛ وكان الجميع ينظرون إلى المدينة البيضاء، إلى أقواسها التي تبدو مغروسة في الماء، وإلى شرفاتها المائلة. أمّا أنا، وأمام ذاك المشهد المرتقب، فقد كنت أبكي دون أن أدري، لكن ما إن تفطّنت لذلك حتى خطرت على بالي هذه الكلمات، رغم البريق الظاهر: "يا إلهي، جئت إلى هنا لأموت !" ظهرت لي هذه الحقيقة جليّة: هذه المدينة التي يبدو أنّني ولدت فيها، ونسيتها، حتى عندما كانت جرائد الأمس تستفيض في الحديث عنها، هذه المدينة أعود إليها لألقى فيها حتفي...

بعدها أخذت آن تسرد تفاصيل قصّة في ترتيب كرونولوجي. قصّتها؛ زوجها وأبناؤها الثلاثة، خمسة عشر عاما من حياة غريبة لخّصتها في ساعة من الكلام: هل هذه تفاهة؟ بلى، إنّها كذلك.

أخيرا، قامت صارة من مكانها، متصلّبة الركبتين، واتّجهت نحو النافذة ثم فعلت ما كانت تودّ فعله منذ بداية الحكاية: بحركة عنيفة، سحبت الستار القماشي الضخم ذا الخطوط الحمراء.

صاحت المرأة الأخرى التي أعشاها الضوء: «لا !»

استدارت صارة استدارة نصفية: تراجعت آن التي كانت ضفيرة شعرها متدليّة على كتفيها، تراجعت حتى الحائط الأبيض الخلفي، ووضعت يديها على عينيها كأنّها تريد أن تغطّيهما بتشنّج رافعة ذراعيها المرتعشتين. وبعد ذلك بقليل، قالت منتحبة:

- لا أطيق الضوء !

ها هي صارة مرّة أخرى مقرفصة فوق الحصيرة، تحتضنها وتهدهدها بإيقاع، بينما ظلت هي تتهالك تارة وتتمالك نفسها تارة أخرى في حالة من تعب مغاير.

## *فاصل*

كان "الحزّاب" السّاكن في المنزل المجاور للحي الذي توجد به فيلاّت صغيرة، مطليّة بالأبيض بلا إتقان، أبا لعشر بنات. "الحزّاب"، قارئ القرآن في المسجد، لم يمنعه ذلك من أن يظلّ متمسّكًا بحرفة الإسكافي وأن يقصد بين أوقات الصلاة محلّه الذي كان مكانا يلتقي فيه "المتفقّهون" في الفقه الإسلامي. هو رجل مسنٌّ يرتدي جبّة بيضاء يغيّرها يوميا، جبّة ترفرف كل يوم بشهامة حول جسمه الأعجر. وهو الآن يمشي محاطًا بتقدير ظاهرٍ من أهل الحي.

قبل أزيد من ثلاثين عاما، خلال أحداث 8 ماي 1945، حُكِمَ عليه بالإعدام بعد أن حاول تفجير ترسانة أسلحة في مدينة ساحلية صغيرة. وبعد مرور ثلاث سنوات استفاد من العفو، تزوّج بعدها وجاء ليعيش في العاصمة حيث رزق بأربع بنات، لكنّه قضى بعد ذلك خمس سنوات في سجن "بربروس" (منذ انطلاقة "أحداث" الجزائر، ألقي القبض عليه لمجرّد الاشتباه بتورّطه في نشاطات سرّية).

ربّت زوجته ابنتهما الأولى في أحضان الفاقة، لكنّها مع ذلك كانت حريصة كلّ الحرص على ملء القفّة التي تأخذها لزوجها في السجن كلّ أسبوع. ثم استأنفت وتيرة الولادة "غداة الاستقلال" (... كثير من الحكايات الأنبل كانت تبدأ بهذه العبارة الخطابية...). عندما بلغت سنّ الأربعين كانت في حملها الثاني عشر، وقد سبق أن أجهضت مرّة، أخيرا وهبها اللّه تعالى الولد الذي طالما حلمت به.

بلغ وريث الحزّاب عامه السادس. وسيُحتفل، في الأيام المقبلة، بختانه، وهي أول حفلة عائلية.

كانت البنات الثلاث المولودات "قبل الاستقلال" مصدرا لبعض المشاكل (أمّا ابنته الرابعة، الأكثر انطواءً، فقد خطبها في تلك الفترة موظّف في البنك). كانت البكر، بنت الأربعة والعشرين ربيعا، تمارس رياضة الجيدو منذ سنّ المراهقة، وكانت، فوق ذلك، تأبى أن تخرج من البيت إلاّ مرتدية السروال (لعلّ هذا هو التّفسير الوحيد لعدم إقبال الخطّاب الجادّين عليها). أمّا الثانية، بنت الاثنين وعشرين عاما، فقد أكملت دراستها في الجامعة بالحصول على شهادة الليسانس في العلوم الطبيعية (كان أبوها عندما يتجوّل خارج البيت يحاول إدراك العلاقة بين العلوم الطبيعية وعقل الأنثى لكنّه لم يجرؤ على الخوض في هذا الموضوع؛ فقد جعله عامل السنّ خجلا مع بناته، وكانت معاناته تزداد حدّة كلّما استمر في التستّر على ذلك). أمّا الثالثة، **صونيا**، ذات العشرين عاما – وهي من قصّت علينا هذه الحلقة الموجزة من الوقائع– فكانت تستغلّ كامل أوقات الفراغ في ممارسة ألعاب القوى. وقد قرّرت في الآونة الأخيرة أن تصبح أستاذة للتربية البدنية. أضافت قائلة بنبرة متحمّسة: «لا أريد أن أعيش إلاّ في الملعب!»

في ذلك الصباح، دخلت **صارة** عند الحزّاب وأمضت وقتا طويلا تُغدقُ عليه بهدوء عبارات اللّباقة في فناء صغير حيث كانت الأمّ جالسة مباعدة بين رجليها أمام كانون تشوي عليه الفلفل والطماطم، بينما كانت ابنتاها تتزحلقان في الماء بأرجلهما العارية وتتهارشان بضحك خفيف. أمّا **صونيا**، فكانت، مع الأسف، في حصة تدريبية: وقد أوصتها **صارة** بأن تذهب لمؤانسة آن عند عودتها من الملعب.

عند باب المنزل، التقت الزائرة بالحزّاب. قبّلت كتفه الأيمن. استوقفها للحظات يعتذر منها عن القمامة المتناثرة على الأرض؛ وأخبرها بأنّه قد وُفّقَ في الحصول على موافقة الجيران ليغطوا صندوق قمامتهم. استمعت إليه **صارة** ثم عادت إلى سيارتها وناورت لتخرجها من الزقاق وأعين الحزّاب وأطفال تسمّروا عند عتبات بيوتهم تتابعها باهتمام.

بعد انقضاء ساعتين من الزمن، دخلت **صونيا** عنْد آن. من جهة البستان الضيّق، حيث تلتقي كل الفتيات، يوجد باب يوصل إلى العمارة التي تقطن فيها آن في شقة صغيرة تطلّ على جميع الأسطح المجاورة. جاءت **صونيا** مرتدية ملابس خفيفة وبابوجا في قدميها، ولمّا فتحت لها آن الباب ورأت الفتاة الشابة أدهشها بعض الشيء جمال قوامها الأهيف وسمرتها الموغلة في السمرة – سمرة زيتونية –.

قالت **صونيا**:

- أنا الجارة التي أخبروك عنها!

بلا كلفة، حَضَرَتْ شايًا ثم عادت إلى البستان وقطفت مجموعة صغيرة من أزهار الياسمين وضعتها في السكّرية، وأبدت بعد ذلك رغبتها في التعرف أكثر على ضيفتها.

وهكذا تحوّلت، بعد حين من التحادث مع الفرنسية، إلى ساردة لحكايات العائلة.

## II

اكّدت السكرتيرة المجمّلة تجميلا والحاملة لنظارات في يدها: «إنّها عملية استئصال مرّارة، وسيخرج أبوك من غرفة العمليات بعد عشرين دقيقة»

راقب **نزيم** للحظةٍ، من خلال الجزء الزجاجي في الباب، حركات **علي** على شاشة تلفاز داخلي تشرف على طاولة العمليات.

كانت القاعة تبدو ضيّقة. كان **نزيم** ينظر إلى الطبيب المخدِّر الثابت في مكانه، جامد الوجه، في ركن من أركان القاعة. وهنالك انتصب مساعد من وراء تشكيلة هندسية رسمتها قنّينات الدواء وأنابيب بارزة من جهاز الأكسجين الضخم.

كان جوّ المكان المتوسّط الإضاءة يبدو في انغلاقه كأنّه وهم مأساوي. وها هو ذا وجه **علي** المقنّع قد ظهر مجدّدا على شاشة التّلفاز...

عندما استدار **نزيم**، اصطدم بالسكرتيرة.

اقترحت عليه قائلة: انتظره في مكتبه ! هناك ستجد حتى تَرْمُسًا فيها قهوة !

ثم تابعت بنظراتها الفتى المراهق وهو يمضي في الرواق.

لم يستعمل المصعد، بل مرّ عبر بهو انتظار مكتظّ مطلٌّ على قاعتين يقوم فيها مساعدون باستقبال المنتظرين. خاطبته عجوز ريفية معاتِبة بلهجة بربرية. توقّف **نزيم**. كانت تلك المرأة، نصف المحجّبة والمرتدية فستانا برّاقا يغطّي جسمها الممتلئ، تحتج مشيرة إلى رضيع نعسان ملفوف في وشاح أسود جَرّح صدرها.

قام الشاب بحركة تنمّ عن عجزه، ثمّ استدار ومضى يبحث عن ممرّضة تتحدّث لغتين. استأنفت العجوز كلامها مخاطبة **عائشة**، السكرتيرة، التي ردّت عليها بالقدر نفسه من الخشونة. حينها ارتاح **نزيم** وانصرف.

في المكتب المكيّف والمؤثّث بأثاث بنيّ لامع مصنوع من خشب التيك، شَغَّلَ جهاز تلفاز داخلي آخر: على الشاشة، أومأ الجرّاح، الذي كان على وشك الانتهاء من عمله، إلى مساعديه بحركة أو بحركتين آمرتين ثمّ تجمّدت عيناه في صورة مكبَّرَة لفترة طويلة كأنّهما عينا امرأة محجّبة من المدينة.

أخذ الفتى المراهق ورقة بيضاء وقلم رصاص ثم كتب، بغيض شديد، العديد من الأسطر المائلة بالأحرف العربية على عرض الصفحة ومن يمينها إلى يسارها.

خرج؛ بينما كان وجه أبيه يختفي تدريجيا من الشاشة لتحل محله صفحة بيضاء متذبذبة.

كان **علي** لا يتحدّث إلاّ بعربية دارجة: إذ أنّ كثرة العمل في مصلحة الجراحة العامة، التي تعتبر من الأكثر تطوّرا في البلاد، لم تتح له في السنوات الأخيرة تحسين مستواه في اللغة الوطنية.

اتّصل هاتفيّا بمصلحة علم الخلايا المحاذية وطلب **باية**، المخبرية المنحدرة من قريته.

خاطبها بتذمّر متصنّع بعض الشيء: «يا بنت الأوراس، ما زلت أحتاج خدماتك في الترجمة، وهذه المرّة أحتاجك في الخطاب العائلي.»

جاءت بسرعة. وبصوتها المثابر – كجسمها الغضّ البضّ – شرعت تقرأ ما نصه:

«كنت، كما تقول، ممّن بصقوا على آبائهم الخاضعين ليلتحقوا بالجبل و"يشعلوا نار الثورة"...» (ثم علّقت قائلة: «العربية دائما مفعمة بالمجاز»، وكأنّها تريد بذلك الاعتذار.)

قطع **علي** كلامها: أهذا كل شيء ؟

- انتظر، وأكملت قائلة: «لم يعد أبناء اليوم يبصقون على آبائهم من أجل اقتحام باب المغامرة... أنا ذاهب، لا أدري إلى أين ... وإن عدت لاحقا فلِكَي أقبّل يد **صارة**.»

خيّم الصمت.

- هذا كل شيء، قالت **باية** التي راحت تعبث بزرّ مئزرها الأبيض.

قام **علي** من مكانه وقال متمتما: «لقد قلت مرارا وتكرارا أنّنا أفرطنا في تدليله ومنحناه مجالا من الحريّة أوسع من اللازم !»

لطالما كان الرجل ضخما، لكنّه الآن ثقل أكثر من ذي قبل. كان واقفا قبالة الخليج يحجب بظهره العريض منظر الميناء. هنالك، كان ما لا يقل عن أربعين سفينة متوقّفة، تنتظر منذ أيام الدخول إلى حوض رُسُوٍّ أقلّ اكتظاظا، وقد رسمت الآن ما يشبه أشكالا غير ثابتة لرقصة باليه معلّقة بين الماء والسماء. كانت تلك السفن المرغمة على الثّبات في مكانها تكاد تصبح وهْما أمام الأعين المستترة في الأسطح... فجأة، فكّر **علي** في الحريّة: هذه الكلمة التي تخلق هوة خاطفة عند استهلاكها للضوء الخارجي. . سبّب له ذلك ارتعاشة. استدار وتصلّب وجهه من جديد.

- أسمح لكِ بمهاتفة صارة ! ثمّ قال مترددًا : افعلي ما يحلو لك؛ بلّغيها الرسالة أو اطلبي منها الحضور... أنا عائد إلى القاعة: سأجري عملية على الكبد تستغرق ثلاث ساعات على أقلّ تقدير !

انصرف حاملا في يده فنجان قهوة: كانت عائشة، الواقفة عند عتبة الباب، تراقب الفتاة الشابة كما لو أنّها تراقب شخصا دخيلا.

قطّبت باية جبينها وتمتمت: «إنه قلق. الأمر يتعلّق بهروب فتى مراهق... ليس غريبا أن يحدث مثل هذا في سنّ الخامسة عشرة !»

لطالما شعرت باية بقربها من نزيم. كانت ترى فيه صورة ابن العمّ الدائم البشاشة. حتى أنّها قد درّبته خلال حفلة عيد الميلاد الأخيرة على رقصة أو رقصتين عصريتين.

التحقت باية ببطء بمصلحة علم الخلايا وشكرت زميلتها على أن ضمنت لها خلال فترة غيابها مراقبة حَسوِيّاتها. هناك عائلة بأكملها أتت من منطقة الجنوب تترقّب بقلق هذا اليوم الذي ستظهر فيه نتيجة تحليل "النمط النووي للخلايا": لهذه العائلة ابن ربّته إلى غاية ذلك الحين كما لو أنّه بنت، لكنّ جنسه صار محلّ شكّ. انهمكت باية في تحديث الاستمارات التي قد يطلبها منها مديرها عند نهاية الفترة الصباحية.

خارج المستشفى، كان نزيم، الذي هبط من الدرج بسرعة مستندا إلى الدرابزين، يأمل في ملاقاة شخص مألوف ليخبره بصوت عال بالحديث الذي أعدّه عن أبيه:

- كم حكى لي عن السنوات الخمس التي قضاها في الجبل؟ ..وعن الطريقة التي افتتح بها حفلة الرقص الرسمية بالكرملن قبل سنوات الستين بقليل ( إذ كان ضمن "الطلبة - الفلاّقة " الخمسة الأوائل الذين وصلوا إلى الإتحاد السوفييتي عبر الجبال مرورا بـ "الدول الشقيقة")... وأعطاني عن حياة الجبل تفصيلا وحيدا "بائسًا": حينما كانوا يتخفّون في المغارات، كانوا يقضون بعض الوقت في قتل قمل

بعضهم البعضَ في فصل الشتاء ! حتى أنّ أحد زملاء تلك الفترة المجيدة قال لي في يوم كان فيه ثملاً: «قتلنا الكثير من القمل وصرنا خبراء لدرجة أنّنا كنّا عندما نسحق القملات بأظافرنا نسمع صوتا يضاهي صوت الرشّاش»... كانت صارة تقول لي حينها (لم تكن تتصرف كحماة فحسب، بل كأنّها رفيقة تسلية عدائية): «لماذا تَلُومه على ذاكرته الشحيحة ! هل وددت لو أنّ علي، شأنه شأن الكثير من الآباء، أبدع لك هالة بطولية على المقاس؟»

استأنف نزيم حديثه وكأنّه حفظه عن ظهر قلب. وصل، دون أن يرى شيئا من الشارع، عامرًا كلمات ومتّقدا حيوية، إلى غاية الميناء القديم المهجور، حوض ميناء 'أسياد العاصمة' القدامى... جلس أعلى السور. هناك خاطبه سكران يرتدي بدلة أوروبية ويضع على رأسه عمامة – وجهه مجعّد مثل أولئك المغامرين في الزمن الماضي، المنتشين بالنهب والقوّة –. أبى نزيم أن يشرب معه: إذ كان دائما يتقزّز من البيرة. وبينما نام الآخر، أخذ الفتى المراهق ينظر إلى صفّ من مساكِن الصيادين القديمة الملتصقة ببعضها تحت قباب متتالية أسفل جادة مملوءة بالحركة: يسكنها الآن أهل ريف مهجّرون كأنّهم يسكنون في دهليز. هم بلا شك الوحيدون في المدينة الذين يتركون بناتهم ونساءهم يجلسن هكذا خارج منازلهنّ، تسرّح كل واحدة منهنّ الشعر الطويل للأخرى برقّة الغجريات. بدأ بعضهنّ يتهكّمن من الشاب ومن الشيخ الثمل النائم مكوّرا عند رجليه وعمامته تغطّي وجهه المحمرّ.

فكّر نزيم: «لن أعود أبدا إلى المستشفى...»، ثم غلبه النعاس من شدّة التعب، فنام مقابل المنحدرات المتموّجة للمدينة التي تتلاشى أصواتها في اغبرار الضباب الصباحي.

في المستشفى، كان عليّ يحضّر نفسه مع مساعديه. «هذه أصعب عملية... يتعلّق الأمر بفتح كبد ضخم... ليس أمام هذا العجوز الوطني الوجيه إلاّ فرص ضئيلة للنجاة...»

كان ثلاثة من أبناء المريض، وهم مسؤولون سامون متوتّرون اهتماما بمقامهم أكثر منه بمُصَابهم، ينتظرون في مكتب الطبيب الجرّاح، أمّا ابنه الرّابع، وهو صناعي حديث عهد بالاستثمار في الصناعة وذو مظهر براق، فقد انضمّ إليهم بعد وقت قصير، في حين كانت **عائشة** تقدّم لهم الشاي في صمت.

كان **علي** يُجري العملية في غرفة أخرى: أصغر حجما، في زاوية ضيّقة مثلّثة الشكل. عندما أراد أن يدخلها قبل العملية بقليل، وهو يضع كمامة ويلبس قفازتين، تردّد للحظة: هنا بالضبط، تذكّر، دفعة واحدة، وقائع حلمه في الليالي الماضية.

كان يوما حارا، لذلك كانت سياقة سيارة بيجو القديمة تتعب **صارة** اكثر.

في مختبر معهد البحوث الموسيقية، نزعت **صارة** سترتها وشمّرت كمّي قميصها. وعندما بدأت تسوّي شعرها أجالت يدها فوق جبهتها، ثم أخذت بعض الوقت لتدلّك قفاها مرّة أو مرّتين: كانت تلك أولى لحظات الراحة البدنية منذ ... سيطرت على ذاكرتها - منذ أي استمتاع، منذ أي ليلة؟ ألزمت نفسها بالتفكير في كيفية استدراك الساعتين المهدورتين.

عندما كانت جالسة شغّلت مسجّل الصوت الاعتيادي وأعدّت السمّاعات ثم أخرجت من علبتها شريطا ممغنطًا. بدأت **إيرما**، مهندسة الصوت المسؤولة عن المختبر، تحكي بطلاقة عن آخر عطلة نهاية الأسبوع الإسلامي التي تقضيها كالمعتاد مع زوجها وأطفالها الثلاثة في مدينة صغيرة محافظة في المنطقة الداخلية من البلاد.

- من الآن فصاعدا يطبّق القانون: لن تُربى الخنازير في أي مكان. **توقّفنا** حتى تلك اللحظة على الطريق أمام مزرعة رائعة من مزارع التسيير الذاتي الموجودة في السهل الذي كان يُربّي فيه حوالي مائة خنزير ! ستكون الخنازريّات التي سنشتريها هي من لحم الخنزير البرّي المعالج... هناك الكثير

من الخنازير البريّة في الغابات، بعد أن هجر المؤاكرون العديد من بساتين سفوح الجبال... بل سيُصَدَّر هذا الخنزير البري مجمّدًا...

تركت صارة السمّاعات على كتفيها من باب اللياقة. ثم اغتنمت فرصة الهدوء لتضعهما على أذنيها. اعتذرت بإشارة من إصبعها ثم استأنفت دراسة أغاني "الحوفي" التلمساني، التي كانت تترنّم بها النساء في الماضي.

وضعت بالقرب من الجهاز ورقتين مختلفتي اللون. كتبت، بتوتّر، على ورقة وردية ما كان يسكن بداخلها كل تلك الأيام عندما كانت، على قدميها أو في سيارتها، تطوف، شاردة الذهن كما يبدو، في شوارع المدينة:

«كيف يمكن تصوير مدينة بأكملها في قطعة موسيقية»

مشروع شريط وثائقي

وبنفس الكتابة العريضة، على ورق أبيض، أضافت:

«شريط وثائقي حول شوارع الجزائر العاصمة»

الزمن الذي يستغرقه الحوفي: زمن يبقى تحديده.

تردّدت بشأن كلمة الحوفي؛ إذ تذكّرت أنّ هذه الأغاني التي تغنّيها نسوة المدينة كانت تسمّى "أغاني الأرجوحة"، لكن ألم تكن ألعاب الفتيات الشابات فوق الأسطح في الماضي قد ولّى زمانها منذ وقت طويل؟

شغّلت الجهاز. كانت امرأتان تدندنان، بلا مصاحبة آلات تقريبا، كلمات غير مؤكّدة أحيانًا، كأنّ ذاكرتهما كانت تخونهما في بعض اللحظات. إلاّ أنّ صارة تعرفّت على اللحن: ففي طفولتها، كانت العمّات والخالات وبناتهنّ يشرعن فجأة في التّصفيق في الفناء وهنّ في أوج انشغالهن بالأعمال المنزلية. كنّ يردّدن تلك الأغاني نفسها مع إلحاحهنّ الصبياني على أن تنهض إحداهنّ وترسم بحركات وركها الإيقاع البطيء والرشيق... وقد بدأت صارة تترجم شيئا فشيئا:

«السلام على داري وعلى الغرفة الفوقانية...»

أوقفت صارة الشريط لدقيقة وراحت تفتّش عن الصيغ العربية القريبة المعنى (هل "الغرفة" تعني الحجرة العلوية فحسب؟)، ثمّ أعادت تشغيل الجهاز:

*«يا عدو العديان،*

*أنت، يا حبيب بكر النسوان...*

*فاتوا البنات وشافوك للعشاء لهفان...»*

كانت صارة تدوّن بوتيرة أبطأ من إيقاع الأبيات العربية: في بعض المرّات، تقهقه إحدى المغنيات قهقهة خفيفة عندما تبدأ في الاستذكار:

*«ما أزين الدالية بْلَعنب، ما أزين الساقية بالحوت*

*يا طالع الجبال ،*

*السلام عليك*

*السلام عليك*

*يا خويا يا ولد أمّا...»*

استمرّ الغناء. توقّفت صارة عن التسجيل: كانت أصوات المغنيات – تدخّل محقّق ليخبرها بأنّ ما كانت تستمع إليه ما هو إلاّ صوت أمها وأختها في يوم كذا سنة كذا... –. تتشد الأبيات مقطّعة مقاطع تثير الحنين. يبدو أنّ صارة كانت تتقفّى، بطريقة غير موفّقة، مسلكا من مسالك الحزن. كان فيض من الحنان، التي أُفعمت به تلك الأصوات، ينبثق زنبقة ماء من جوف النسيان. في الماضي، لم يسكن أفنية الديار المنفتحة على السماء سوى أمل الظفر بلقاء غرامي في إحدى الأسطح، سوى معجزة...

بحركة عنيفة، أرجعت **صارة** الشريط المغنط إلى الوراء، ثمّ استأنفت هذه الأغنية ذاتها من بدايتها وهي تحمل في يدها كرونومترا. لقد باشرت قياسا دقيقا للزمن الذي يستغرقه المقطع الأول.

كانت **إيرما**، بعصابة شعر أسود مجدول أعلى الجبهة، وجسد هادئ، منهمكة، وهي واقفة، في تصنيف الاستمارات: بعضها لم تكن تحمل سوى مراجع عربية. لقد وضعتها جانبا: كانت تلك الأغاني المأتمية لنساء يسكنّ في واحة؛ أيهنّ بالضبط، وأيّ إيقاع يستخدمن؟ كان عليها أن تتحقّق إن كانت أسماء المنشدات قد قيّدت أو أنّ الملاحظة أبقت الهوية مغفلة.

هل تقبل **صارة**، أثناء إحدى الفواصل، أن تساعدها؟ أرَت **إيرما** الاستمارات **لصارة** في صمت؛ وافقتها **صارة** بابتسامة.

رنّ الهاتف. من المستشفى، قرأت **باية** رسالة **نزيم**. أمّا **صارة**، التي حطّت سماعة الهاتف ببطء، فقد بقيت مسمّرة في مكانها.

اقتربت منها **إيرما**: ظنّت أنّ المرأة الشّابة قد أصابها توعّك.

سألتها: خبر سيء؟ إلاّ أنّ لكنتها الألمانية، المجهورة جدّا، قد حجبت رقة العناية في نغمة صوتها.

حاولت **صارة** أن تتحرّك، وأرادت أن ترجع إلى مكانها ثم قرّرت أخذ استمارات **إيرما** باللغة العربية التي كانت موضوعة؛ ثم بدأت تتقل المراجع:

- الأغاني المأتميّة لنساء الأغواط

مراسم مقامة في عائلة س...

في الثاني من شهر محرّم

اللّفيفة رقم: ..

تركت مكان الأرقام فارغا: كانت **إيرما** قد تعلّمت قراءة الأرقام الهندية.

ها هي **صارة** مرّة أخرى أمام مسجّل الصوت وقد أعادت وضع السمّاعات في أذنيها. كتبت على الورق الوردي:

- رقصة الشرفات الملئية بالأطفال المتجمّعين

أطفال حالمون

مساحة مستديرة.

تأمّلت تلك الملاحظات كما لو أن الأمر يتعلق ببداية قصيدة. وعلى الصفحة البيضاء، المقابلة لها، دوّنت أغنية نسوية جديدة كانت تستمع إليها:

*«يا يمّا، يا تاج راسي...*

*لقيت شاب مليح*

*اعْطيتو خوخة*

*قال لي: يا تاج راسي، أنا مريض.*

*الحبّ دْخَل لْداري...»*

باحتساب التكرارات، تستغرق الأغنية نحو دقيقتين وعشرين ثانية. دوّنت على الورقة السابقة ما نصّه: "بانورامية بطيئة جدًّا من اليمين إلى اليسار 20 د- 2 ثا"

أخيرا قالت بينها وبين نفسها: «غادر **نزيم**»، وانسلّت من قوقعة الموسيقى وتساءلت ما إذا كانت قد تحدّثت بصوت عال...

- أمر غريب! يمكن أن نتخيّل عالما تصبح فيه النساء – أعني "نساءنا" – أصمّات بدل أن يكنّ غير مرئيات. وسيتّخذ قرار بمنع مشاركتهنّ، عند سنّ معينة، في حفلة أو طقس من الطقوس: سيكون

ذلك، كما هو حالي الآن ولكن للأبد، من أجل أن توضع حواجز ضخمة فوق آذانهنّ..فلا يسمعن بعدها أحدًا وستكون جريمة شرف إن حدث أن حاول ذكر، من جهة أخرى أو حتى من هنا، أن يُسمِعَهُنّ صوته..فلا يسمعن سوى قرقرة بطونهن، وذلك إلى أن يبلغن سنّ الشيخوخة وينقطع حظّهنّ في الإنجاب.

حلمت لحظة، ثم أدارت الشريط الممغنط من أجل الاستماع، في فضاء صوتي جديد، إلى عزف منفرد على الناي.

- أزمة مراهقة...، هذا ما استخلصته إرما التي لا شكّ أنها قد قالت جملا كثيرة أخرى من غير أن ترفع صارة رأسها. حدّقت في صارة وعلامات الحرج بادية عليها كأنّها تقدّم التعازي، ثم أخذت استماراتها العربية المترجمة وانصرفت من المختبر مرفوعة الرأس.

في قاعة الجراحة، هنالك رأس معصوب العينين بملامح جامدة كصخرة مقلوبة. لقد مات المريض فوق الطاولة. ضاعف طبيب التّخدير جهده لدقيقتين إضافيتين. أصدر جهاز الأكْسجة هديرا. ثم ساد صمت مطبق بين ذوي الكمامات الستة أو السبعة. حركات قفّازات متسارعة في نسق غير مألوف. تلك جثّة، بلا ريب. أمر عليّ، بانفعال، أن تعاد خياطة الجسم. كان أول من خرج. كان الأبناء الثلاثة ذوو الوظائف السامية ينتظرون، أمّا الصناعي فكان قد غادر بعد ساعة نفد فيها صبره.

بعد أن أعلن عليّ عن النهاية المفجعة، شرح للأبناء بأسلوب مباشر: إنّه تليّف كبدي في مرحلة متقدّمة، وإن شئتم فسمّوه 'سرطانا متفشيّا' لكي لا تتصدم زوجاتكم المؤمنات، على راحتكم... هذه شؤونكم العائلية ! ...

- شكرا بروفيسور ! كلمة شكر قالها الابن الأكبر الذي بادر بالكلام معتبرا أنّ منصبه السامي يمنحه ذلك الامتياز. ثمّ نظر إلى أخويه باحتقار دون أن يضيف كلمة واحدة.

غادر عليّ المستشفى. ترك ميتا فوق "الطاولة" وكان يعرف كيف ينساه: ركب السيارة وابتعد عن المدينة عبر الطريق الساحلي الغربي، ثم

توقّف بعدها بقليل عند الرسّام، صديقه الوحيد. كان هذا الصديق يعيش، في فيلاّ نديّة، حياةً هنيّة، أي لا تغيب عنه المشروبات الروحية.

في الحديقة الفسيحة التالفة، خيام مفتوحة: ظهر سيّد المكان أشعثًا، لابسا تُبّانًا، وشرح للوافد الجديد:

- سيستقر في هذا المكان خمسة عشر فلسطينيا... منذ عامين وهم في فترة تربّص في مجال المحروقات... إذ أنّ المعهد يغلق أبوابه صيفًا: لم تبال الإدارة حتى بالبحث عن مكان لإيواء هؤلاء الإخوة... لقد جاؤوا محتجّين. وبدل أن أذهب لشتم الموظّفين، أفضّل أن يمكثوا هنا... فالشاطئ ليس ببعيد...

بالنّسبة للرسّام، بل الأحرى الشاعر (لكنّ ما كان يبيعه لميسوري الحال الجدد هو لوحاته، في حين أنّ شتائمه اليومية الجارحة تجلب له أحقادًا لا حصر لها)، لم تدم حرب التحرير الوطنية سبع سنوات، بل إنّها تمتد على الأقلّ لسبعين سنة أخرى. وأنّه بذلك كان لازال حاضرا فيها. ربّما ستكلّل الصداقة الفلسطينية بالنجاح في نهاية المطاف...

- لأي شيء؟

- لإخراجك من قوقعة الحقد ! هكذا أجابه علي متهكّمًا، ثم أخذ مكانه داخل المنزل، على مطرح، وسط صور لأمّهات نحيلات وشاكيات، بعضهنّ في نطاق سماء زرقاء وأخريات في خلفية تكاد تكون سوداء.

- الحقد ! أطلق الرسّام صفيرا وهو يحضر الشاي والويسكي معًا. إنّنا نرضعه مع حليب أمهاتنا المستعبدات ! ... لم يفهموا شيئًا: ليس الاستعمار وحده أصل مشاكلنا النفسية، بل كذلك بطون نسائنا المحبطات! ... فأمرنا مقضي ونحن أجنّة في بطونهنّ !

تأوّه علي وقال: أطعمني أولا !

ابتدره الرسّام بالكلام بعدما شرب الكأس الأولى: ذهبت اليوم عند المجانين. إنّني أرسم لأجلهم. كما لو أنّني كنت ملزَمًا بتعليمهم أي شيء، تماما مثلك أيها البروفيسور (قالها وهو يضحك متهكّما) ...! لكن، وأنا أمرّ من زنزانة إلى أخرى، تخيّلْ من وجَدْتُ، منعزلة ومحبوسة منذ أربعة أو خمسة أيام، **ليلى**!..نعم، **ليلى** العظيمة، البطلة. حتى وإن كانت تتعاطى المخدّرات، فلن نبالي، هل سبّبت الأذى للغير، لأولئك الذين مُنحوا وِساما معها! قطعًا ليس الأمر كذلك! ...صرَخْتُ قائلا: «ما الذي تفعلينه هنا؟». بكت عند رؤيتي. فتحتُ كلّ شيء ودفعتُ جميع من صادفني، وأحضرتُها على الفور! لعنت أطباء الأمراض العقلية وزمرتهم... عندما يصلون إلى هذا البلد الملعون، ماذا عساهم يفهمون فيكَ، فيّ أنا، أو في **ليلى**؟ ...أصابها غمٌّ، فأغمي عليها... ما الغريب في ذلك؟ حُكم عليها بالإعدام وهي في سنّ العشرين، سنوات سجن بالأمس ثم يحبسونها مرّة أخرى؟ يتجرّؤون! ..باسم العلم، هذا العاهر؟ ... أحضرتها هنا، وسأشفيها من علّتها!

بعد لحظة تأمّل، إعترف الرسّام: بما أنّك حللت عندي، أيّها الصديق القديم، فإنّك ستكون أول من أخبره بأنّي قرّرت الزواج بها ! أنا الذكر الوحيد الذي يرفض، مهما كانت الذرائع، أن تُحبَس المرأة... عندي، ستكون واثقة من التحليق في أمان... – ثم ابتلع دفعة واحدة كأسا أخرى.

ردّ **علي** سائلا: وهل تظنّها ستوافق؟

- شكّكَ يجرحني ! أعلن الرسّام وقد انحنى من أثر تُمالة عذبة.

عندما استفاقت **ليلى** شغّلت أسطوانة موسيقية: ذكّرتها بطفولتها مغنّيةٌ يهودية عجوز، كان عمّها، صاحب دكان في القصبة، يستقدمها في كل حفلة عائلية.

*«واش صار لخليلي، اللّي كان معايا؟ ...»*، غنّت **مريم فكّاي** التي كان صوتها الشجيّ يواسي النساء الواهنات في باحات الزمن الماضي.

على سريرها، كانت ليلى، وهي تستمع بلا انقطاع، قد غرقت في الصور الطافيات في كابوسها: نظرات نساء محجّبات بالأبيض أو بالأسود لكن بوجه متحرّر، يبكين بصمت، كما لو كنّ خلف زجاج. وكانت ليلى تقول لنفسها، وجسمها موجوع، أنّ تلك الخالات والجدّات كنّ يبكين عليها، على ذاكرتها المضطربة.

أنّت البطلة قائلة: «أغادر المدينة نهائيا ! فليعطوني مولودا حديث الولادة، سينتفخ ثدياي أخيرا بالحليب وسيُمْكِنني المغادرة، حافية القدمين، عبر الدروب...حتى.....حتى أصل إلى "لالا خديجة !"»

بعد أن أكملت صارة عملها، هامت لبعض الوقت في الخارج، طائفة حول "ساحة الحصان" (حصان الأمير بيجو الذي أنزل من مقامه في غمرة الفرحة الجماهيرية بالأمس): كان متسكّعون يمرّون بالقرب منها، كما كان أيضا بعض الأطفال يلعبون ألعابا ملوّثة. هناك، تُرى ربّات البيوت مصطفّات عند مواقف الحافلات المزدحمة. وفي الأسفل، هناك صواري المراكب متشابكة، كما لو كانت متوارية تحت أوراق الشجر.

ثبّتت صارة نظرها في واجهة محدّدة، غير بعيد عن المسرح البلدي، على مقربة من شارع الأقواس. هنالك شرفة قديمة، الوحيدة التي كانت مفتوحة وبلا ستائر. كلّ يوم، في الوقت نفسه، في حدود الساعة السادسة مساءً، تظهر فيها امرأة بتنّورة طويلة، كأنّها نوْرَة زهرة برتقالية زاهية، تحمل في ذراعيها طفلا في الرابعة أو الخامسة من عمره. حركات ذراعيها ترسم رقصة، الرقصة ذاتها خلال كل تلك الأيام. تستدير حول نفسها مرّة، ثمّ أخرى لتثبت في مكانها كأنّها معلّقة، بعيدة، نصف مائلة فوق السّاحة الصّاخبة.

بعد ثلاثة أيام متتالية، وخلال بحثها الدائر حول الصور الصوتية للشريط الوثائقي، كانت صارة تلاحظ ذلك المشهد الاستعراضي قبل أن تعود لتستقلّ سيارتها القديمة. قادتها في الزحمة، ولم تستطع نسيان المرأة المجهولة: هل هي محبوسة خلف أبواب موصدة بالمفاتيح حتى تنتقم بهذه

الطريقة، بأن تنتابها أزمة رقص مجانية مرحة... أو أنّ الطفل هو من يطالب بفضاء أوسع، بفضاء الحرية؟

وهي تقود السيّارة، كانت صارة تفكّر في تكدّس الأطفال في الغرف العليا، المتعدّدة الشرفات، المقفلة الشبابيك، المحيطة بواجهات الشوارع. كانت تفكّر في النساء المسجونات، ليس في الفناء حتى، بل في مطبخ حيث يجلسن أرضًا، وقد قهرهنّ الحصار... انقطاع منتظم للمياه، رائحة بول الأطفال، صرخات، تنهّدات... فلا أسطح، ولا فتحة تظهر من خلالها السماء فوق نافورة قليلة الماء ولا حتى الطراوة المسلّية في الفسيفساء البالية...

وحدهنّ النّساء الأحرار في المدينة يخرجن في طوابير بيضاء، قبل الفجر، للقيام خلال ثلاث أو أربع ساعات بأعمال تنظيف بالإدارات المحاطة بالزجاج الخاصة بالموظفين البسطاء والمتوسّطين والسّامين الذين سيلتحقون بمكاتبهم لاحقًا. كانت ضحكاتهنّ تتعالى في الدَرَج وهنّ يرتّبن الدّلاء باستعلاء، رافعات ببطء رأسياتهنّ المتراكبة، وهنّ يتبادلن ملاحظات ساخرة عن المسؤولين عن الطوابق، عن أولئك المسؤولين الذين يسألونهنّ، سؤال الرّاعي لشؤونهنّ، عن دراسة أبنائهنّ، وأولئك الذين لا يتكلمون معهنّ لأنّه لا يليق الحديث مع النّساء، سواءً عملن خارج البيوت أو كنّ، كنسائهنّ، موادا للعرض... ترجع نساء المدينة الأحرار إلى بيوتهنّ، ويحلمن، أمام فنجان قهوة فوق "الطربيزة"، بالطفل البكر الذي سيكبر ويصبح هو أيضا، بالتأكيد، أحد مسؤولي تلك الطوابق: سيستطعن في نهاية المطاف إغلاق أبوابهنّ وأخذ دورهنّ في حراسة الفتيات الشابّات لإبقائهنّ بعيداً عن مرأى النّاس، حبيسات الجدران.

## *فاصل*

في البستان، بالقرب من أربعة أشجار برتقال وشجرة ليمون، كانت بنات الحزّاب يرقصن. كان صوت "الشّيخ" – هكذا كان يُسمى المغنّي العاصمي الأكثر شعبية، على الأقل في أوساط المراهقين المرتبكين والمثقّفين

المنتزعين من بيئتم – تتخلله اهتزازات كأنّها فُواق: فالغناء الأندلسي، وإن كان ثابتًا عند الآخرين، هو عنده مشحون بمزيج واهٍ من السخرية واليأس. ولأنّه فلكلور مكسور، فقد كان صداه لا يغادر الأسطح. كان العود يرفد المغنّي بإيقاع بطيء: وكان "الشّيخ" نفسه – المزاجي وغير المنتظم في انقطاعاته – هو من يزيد في سرعة الإيقاع كما يحلو له. وكان يصعب على جوقة الأصوات الذكورية المتداعية التناغم معه.

عند استئناف الجوقة الغناء، تشكّلت مجموعة من الصبايا الصغيرات كنّ يتحرّكن تحت شجرة الليمون. كانت أوراكهنّ الممتلئة أو النحيفة ترتسم من خلال أوراق الأشجار والفواكه رغم الضوء الخافت، وكنّ يحملن شمعدانًا وضع فوق البلاط. اختُتمت المدوّنة الموسيقيّة. هناك في الخلفية، كانت الراقصات يتبادلن الضحكات.

كانت آن جالسة عند عتبة الغرف السفلية، بالقرب من أمّ صونيا ومن عجوز معمّمة كانتا تزيّنان الحلوى بالمبرّقات المتعدّدة الألوان، حلوى في شكلٍ مُعيّن ممتلئ باللوز. بركبتين منفرجتين وذراعين ممدودتين، كأنّهما أطلقتا شيئًا ثقيلا، كانت آن تستمع إلى نداءات أو تهاليل صبيانية دون أن تفهمها، وتحبس صوت ضحكة بلّوري، تحبس جملة بصوت حَلْقي مرتجف.

اقتحمت المكان فتاة في العاشرة من العمر: تلبس سروالا منتفخا فضفاضا تغرق فيه ساقاها النحيفتان، وطربوش والدها يغطي نصف شعرها المجعّد. أخذت، وهي مسلّحة بعصًا تقوم بحركات مضطربة: تمثّل دور ربّ عائلة يضرب نسائه الأربع. في أقصى الحديقة، تحولت اللّعبة إلى حركات فاحشة، وإلى صيحات.

استدارت الأم، البدينة والمرحة، والتي تحمل وشما دقيقا بين عينيها، لترى باية القادمة مباشرة من المستشفى. طلبت منها أن تخبر المرأة الفرنسية بأنّه يسرّها كمضيفة أن تستقبلها وتشرح لها:

- في هذا المساء، عشية ختان طفلنا الأصغر – ليحفظه الله! سنقوم، من أجل حمايته وسعادته في المستقبل، بوضع القليل من الحناء على يديه.

علّقت **باية** على هذه العودة إلى الفلكلور: توضع بقعة حمراء صغيرة على الكفين، في حين كانت تقام، فيما مضى، مراسم كاملة. كانت اليدان تزينان بالحناء حتى المعصم، والرجلان حتى الكاحل وتبقى طول الليل مقمّطة في عجينة الجنّة البراقة.

- إن الفلكلور، المحافظ عليه هكذا في العائلة، كما يحفظ المُربّى، يطمئننا ... قالت **صونيا** وهي تطلق شعرها.

استأنف "الشيخ" قطعة موسيقية أخرى بعد استهلال بالقيثار والعود. بدت هذه المقدّمة الموسيقية وكأنها نشرت العتْمة في كل مكان. أطفأ أحدهم النور في غرف الطابق الأول، لا شكّ أنه ابن عم(ة) أو خال(ة) جاء ليتجسس في الظلام على الراقصات.

قالت إحداهن ساخرة:

- هم الذين يختبؤون إذن! ...

واحتجت أخرى:

- يا لها من وقاحة! كنّا في غاية الراحة، بعيدا عن الرجال!

كانت **باية** تعتبر آن أجنبية فعلا. قالت هذه الأخيرة، صدفة، بأنها قادمة من مدينة ليون، وعلى التّو استحضرت الشابة، بكل سرور وطلاقة لسان، ذكريات دورة دراسية اتبعتها بليون، قبل سنتين أو ثلاث سنوات: هناك، وقد كانت الأولى في دفعتها، في البلاد، هي وثلاثة فتيان، بدأت تدرس علم الخلايا؛ وأضافت موضّحة أن البروفيسور **مونود** الحائز على جائزة "نوبل" قد شجّعها شخصيا عندما زار المصلحة.

- نحن نشرح للآباء أنّ الكروموزون **xx** و**yy**، من بين الستة والأربعين كروموزونا، هما اللذان يحددان طبيعة جنس الطفل. إنّ

مصلحتنا، وهي الوحيدة على مستوى البلد، تعاين الحالات الشاذة (كانت تقدم الشروح عن طيب خاطر كما لو أنها كانت تقدّم وصفات حول طريقة صنع الحلويّات). نحن في بلادنا، نحدّد النمط الحيوي للخلية انطلاقا من الخلايا الدموية المحيطية فقط وليس بعدُ انطلاقا من عينات النخاع الشوكي ...

- ما هو الشاذ اليوم؟ سألت أخت **صونيا** التي كانت تمارس رياضة الجيدو والتي كانت تقترح، كلما تزورهم **باية**، أن يهدّئوا الوالد بالكذب عليه: وفي كل الأحوال، ما الذي يمنع أن يكون كروموزومه الأخير X وليس Y؟

وقالت وهي تتنهد بعمق:

«كل شيء، نعم كل شيء فينا، قد يتغير بتغيّر حرف واحد!»

همهمت **باية** قائلة:

- اليوم، جاءنا ولد عمره 12 سنة من ولاية قسنطينة ... لا يمكنه المشي، وبالكاد يستطيع الوقوف. لم تعد والدته المسكينة، المنهارة، قادرة على إخفاء السر الرهيب! ...

صعدت الوالدة والعجوز المغطاة الرأس إلى الطابق وهما تحملان صينية الحلويات. انتشرت رائحة النعناع الذي كان يتم إعداده من أجل الشاي في الوقت الذي أعيد فيه إشعال الإنارة في الطابق الأول.

استأنفت **باية** كلامها وهي تمرر أصابعها في خصلات شعرها الأسود وتسحبها ببطء:

- الشاذ الذي جاءني اليوم، له قضيب ضخم ... حقا! قضيب فيل!

جاء من آخر الغرفة صوت راقصة أو راقصتين تحتجّان:

- الضوء يجذب الناموس.

استأنف "الشيخ" للمرة الثالثة بصوت أخن، في أسطوانة الفونوغراف، مقطعه الغنائي دون تعديله وفقا للتقاليد، لكنه كان يطلقه متنافرا تنافرا مع الايقاع وكأنه يتهكم:

*«أنايا في حماك قتلها يا ولفي مريم.*

*شفقي من حالي يا الباهية يتخفّف سقامي*

*من ذيك النظرة الباشرة حيّيني بسْلام!»*

قررت الوالدة وقد جاءت تمدّ الطاولة بالقرب من **آن وباية**:

- بعد شرب الشاي، سترين ابني وهو يرتدي **القْندورة**؛ ابني الوحيد جميل جمال الملائكة!

ترجمت **باية** كلام الأم وبينت أن لون الحناء يصبح أكثر نعومة في الكف عند منتصف الليل فقط.

توقفت **صونيا** عن الرقص واقتربت: كتفاها مكشوفتان وهي تضحك وتقضم ليمونا كبيرا كبر الليمون الهندي. قدمت واحدا لـ**آن** التي رفضت أن تأكل.

كان "الشيخ" لا يزال يعزف شكواه على العود. في طابق من طوابق المنزل، كان الحَزّاب، وهو يستمع إلى الأغنية، يحاول النوم. في كل ليلة، وبالرغم من الموسيقى ورائحة الحلويات، لم يكن يحس تماما بأنه في منزله ... وعزا استياءه هذا لخيبة أمله الحديثة: القبول بختان ابنه على يد طبيب وليس على يد طَهّارِ الأيام الماضية، والذي كان عادة رجل القرية أو الحي الأسرع في استعمال الموسى. كان هؤلاء البارعون قديما يشتغلون بلا انقطاع في بعض الأيام الصيفية: كانوا يسيلون دم عشرة أو خمسة عشر أو عشرين ولدا في أمسية واحدة، وكانت القلفة تسقط في مناشف مملوءة بالياسمين تصحبها زغاريد النساء. تنهّد الحزّاب: تلك أيام احتفال قد ولّت!.

في الليلة نفسها، رفضت صارة دعوة صديقاتها. كانت، وهي مستلقية إلى جانب علي في الظلام، تتخيّل غرفتهما وكأنها معبد، معبد عميق وفارغ. «كيف يمكنني البقاء معهن، في حين أن الولد ... أين ينام حاليا؟»

فكرت في حمّام مغربي، في رؤوس مُزَارِعِين مكدسة تحت الأغطية... أو ربما في ركن من قبو بناية ما. كانت هناك أحاديث عن شابات، تلميذات بالثانوية في الكثير من الأحيان، يهربن من بيوتهن إذا كان الوالد يشك في قصة حب عابر. حلمت صارة بنشأة صداقة مقدّسة بين مراهقين ثائرين وبدت لها الطرقات المنحدرة لأحياء كانت تحبها في النهار، بدت لها أروقة خطرة ... نزيم وشكله الطويل العظمي ونظرته التي أصبحت متحركة وعادته: سبابة الإصبع وهي تفرك جناح الأذن اليمنى من الخلف. كان من المفترض أن يمر بمرحلة المراهقة بتأن هادئ. لكنه أصبح، منذ ستة أشهر، يرفض الذهاب إلى الثانوية ويوزع أغراضه الشخصية؛ وقد يحصل أن يتجول أحيانا بأسمال بالية.

- كان يبلغ من العمر خمس سنوات، خمس سنوات وثلاثة أشهر عندما رأيته لأول مرة؛ ألقى عليّ نظرته، التي كانت آنذاك جدّية أكثر من اللزوم، ويكون قد فكّر: «هل ستتمكنين من حبي؟». مرت عشر سنوات ولم أستطع بعدُ... التقريب بين الابن والأب.

قبْل الزواج بعلي، تردّدَت كثيرا: ليس لأن علي الأرمل، لديه ابن صغير يتعيّن تربيته، وإنما بسبب الزواج بكل بساطة... بعد مراهقة قضتها في السجن – غرف مليئة همهمة، مليئة بالرفيقات –مدّدت فوق الحد سنواتها في الجامعة.

- ما الذي تفعلينه ؟ سألها علي بشكل بروتوكولي في رواق من أروقة المستشفى.

أجابت:

- أمشي طيلة اليوم. لا أسأم من المشي في الخارج. هل تعلم؟

استدارت في الفراش باتجاه زوجها: عيناه غائرتان ولحيته محلوقة بشكل سيء وأنفاسه تفوح منها رائحة الخمر، هذا المساء فقط، بصورة استثنائية.

تزوّجته لكن تسكّعها النهاري لم يتوقف، وقد احتفظ بشكله الدائري المبهم المرتجَل في الفضاء المائج بضوء لا ينضب. لكنها أصبحت تعود الآن إلى نقطة الانطلاق نفسها: هذا السرير المزدوج، وجسم الرجل هذا.

«وهو نائم على هذا النحو، كان، فيما مضى، يُثير حَنينِي. لكنني كنت أُحِسّه منغلقا على نفسه، وكأنه يخفي أسرارا لا تخطر على بال. ينام نوما منكمشا على نفسه. جسده لا يرتعد حتى. وكأنه ميت. أكمد، الرجل يبقى دائما أكمد.»

في الصباح، فتحتْ مصاريع النوافذ في وقت مبكر جدا. استمعتْ في المطبخ إلى الموسيقى. ثم قامتْ ببعض الحركات الرياضية الخفيفة أمام نافذة مشمسة. عادت إلى غرفتهما وهي تحمل صينية. بدأ **علي** يستيقظ.

- أحضرتُ لك فطور الصباح! أعلنوا في الراديو أن المدينة ستكون نظيفة: تم تسليم شاحنات النفايات من مصلحة الطرق، تلك الشاحنات العملاقة التي كنا ننتظرها، بالرغم من الازدحام في الميناء. كان عمال النظافة يعملون منذ أربع ساعات على أقل تقدير!

في الخارج، كانت تجري في الشوارع المنحدرة مياه جديدة. خارج العمارة التي يسكنان فيها، لاحظ **علي وصارة** أن رائحة خمّ الحمام النتنة التي كانت تنبعث من فيلا مجاورة قد اختفت. سيفوح عطر زكي من حديقتهما هذا المساء عند عودتهما. كانت شجرة ياسمين مزهرة تغطي السياج.

تركت **صارة علي** أمام مستشفاه. وأدْرَكت عندها فقط أنها تكلمت منذ نهوضها صباحا، وقد لاحت بوادر بهجة دائمة.

# III

يفتح الحمّام أبوابه في هذا الحي الشعبي يوميا عدا الجمعة - يوم الصلاة في المسجد الكبير- وكذا الاثنين - فالأطفال لا يدرسون وربّات البيوت اللواتي أضنتهن شقاوة الأولاد ، قد يبذّرن الكثير من الماء. أمّا صاحبة الحمام، عجوز في الستين تقية ومقتصدة، فقد تعمّدت أن لا ترفع السعر حتى لا تضطر إلى القيام بالترميمات اللازمة. ستكون تلك مهمة ابنها الوحيد عند عودته من أوروبا...إذا عاد فعلا.

زيادة على مشكل الترميمات المستعجلة، كان الهاجس الذي يؤرق العجوز، هو أن تجد ابنها يوما ما قد عاد مع زوجة أوروبية، لذا نظرت بتعالٍ وريبة إلى **آن** وهي تلج الحمام رفقة **باية** وخلفهما **صونيا** المعتادة على المكان.

حسمت **آن** الأمر وخلعت ملابسها لتبقى بـ"قِماط من قطعتين"، أمّا **باية** و**صونيا** فكانتا ترتديان كالعادة فوطتان مخططتان مبهرجتان، أضفتا حيوية على "البيت السخونة" ذات الإضاءة الخافتة.

قليل كان عدد النسوة في هذه الساعة. أربع أو خمس في الناحية الأخرى من المنصة الرخامية. كانت واحدة من بينهن تُهمهم مرثاة حزينة بنبر خفيض.

حرّرت **آن** بسرعة صدرها من قماش الجيرسي الأسود. كان يثقلها أحيانا ، بينما فتحت **صونيا** الحنفية وشطفت بالماء الغزير المنهمر حوضين صغيرين، ثمّ أخرجت عددا من "الطاسات" النحاسية بأحجام مختلفة. **باية**، التي جمّلها بريق بشرتها الدهنية البيضاء وسط البخار الشفاف، انهمكت في سكب الماء الدافئ على شعر **آن** الذي غطى بامتداده ظهرها بالكامل.

- تأخرت **صارة** ! لاحظت **صونيا**.

- نادرا ما تجيء إلى الحمّام.

أجابت باية وهي تدهن فروة رأس آن بعجينة ما ئلة إلى الخضرة. بعد أن غشي النعاس هذه الأخيرة بفعل الحرارة، سلّمت نفسها لباية وهي تقلب نظرها من حولها. هناك كوّة في السقف على شكل قوس واسع: قبّة سقف قديمة ـ يُحتمل أنها كانت قديما ديرا للرهبان. من ذا الذي يمكنه أن يختبأ هنا ليلا، من سيمزج بكاءه الصامت بالماء المتقاطر ؟ ... لغز كون الماء الجوفي هذا.

استمرت تلك المستحمة بجانب المنصة الرخامية في إنشاد مرثاتها بصوت خفيض.

- ماذا تغني ؟ سألت آن بصوت خافت.

- ما هي إلاّ كلمات تكررها. أنين تُرنّمه. لاحظت صونيا ذلك بعد هنيهة. إنها ترتجل!

- إنها بالأحرى تواسي نفسها. أضافت باية. كثيرة هن النسوة اللواتي لا تخرجن من بيوتهن إلاّ للذهاب إلى الحمّام. سنلاقيها فيما بعد في البيت الباردة. سنتحدث إليها هناك.

قطعت تلك المجهولة غناءها فجأة، كما لو أنها خمّنت أنّ هناك من يستفسر عنه، ثمّ طلبت بصوت مبحوح دلوا من حمّالة الماء.

- ماء حار ...أريده حارا يغلي.

ترجمت باية بصوت خافت لـ آن التي وضعت يديها على نهديها تفركهما، عندئذ توقفت الفرنسية عن السؤال تماما لتتأمل بافتتان الأجساد المنهكة حولها. ساعد المدّلكة المنتصبة فوق البلاطة، والتي جثت فيما بعد على ركبتيها، مطوّقة جسد إحدى المستحمات التي كان وجهها وبطنها ونهداها مضغوطة على الحجر، شعرها كثيف محمَر، ونُثار الحنّاء السائل ينساب في خطوط على كتفيها.

فتحت المُدلّكة شفتيها قليلا فظهرت أسنان من ذهب تلمع. ثدياها الطويلتان متدليتان تعبرهما عروق صغيرة حتى الحلمتين. وجهها القروي

الذي شاب قبل الأوان تحوّل، بفعل الوهج المتسلل من الكوّة في شكل خطوط مائلة، ليصبح شيئا يشبه قناع ساحرة شرقية. كانت تضع قلادة فضّية تصدر صوتا رنّانا كلما أنزلت كتفيها وذراعيها المعقودتين التي تتزحلق من رقبة المستحمّة، النائمة، حتى خصرها. كانت المدلّكة، الضاربة إلى السواد والهادئة والتي تعمل بانتظام تبدو وكأنها هي نفسها تسترخي. تتوقّف لتستعيد أنفاسها، ولتسكب ببطء إناء من الماء الساخن على ذلك الظهر العاري المسمرّ، بينما كانت تتصاعد من تحتها زفرات بصوت أجشّ.

وهكذا، بينما كانت الأمّهات برفقة أولادهن النيام والرضع النائحين يملأون شيئا فشيئا "البيت السخونة"، جلست المرأتان على منصة الرخام تتطلعان إلى باقي المستحمات واستعدن إيقاع الآهات وقد اتخذ شكلا غريبا، شجرة بطيئة متأرجحة، جذورها غارقة في الماء المنساب باستمرار على البلاط الرمادي.

- اللّه أكبر، يا كريم!

- حجة ليك هذا العام يمّا.

كانت الدعوات المباركة تتهاطل على المدلّكة التي كانت مجموعات كبيرة تطلبها. وكانتْ هذه الأخيرة وهي نازلة من المنصة بأبهة مثل معبودة قديمة، تترك بطنها المجعّد المبقّع يبرز من تحت الفوطة المنزلقة التي كانت ترتديها.

- الحج إلى مكة أصبح الآن من نصيب من يصل أوّلا! صرخت بعجرفة ثمّ قالت متذمرة: فليغفر لي النبي، حتى لو وجدت نفسي مغمورة ذهبا، إلّا أنني فقدت الرغبة في زيارة قبره! ربما فقط إذا تأكدت أنني سأموت هناك، أغادر حياة الشقاء هاته!

توجهت بكلامها هذا إلى صونيا وباية، متفحصة في الوقت ذاته آن العارية الثديين، وهي منطوية على نفسها وتجتهد لتثبت على وضعية

واحدة في ذلك المكان الرطب ذي الأصوات الجوفاء. بالنظر إلى طريقة جلوسها على المقعد الصغير وحرجها من عريها، شعرت العجوز أنها غريبة رغم شعرها الأسود، وخاصة ابتسامتها المتعبة التي تجعلها، بسبب استسلامها، تشبه نساء المدينة.

طلبت باية أن تُدلّك. كانت تسأل المدلّكة ثمّ تترجم الأجوبة لـ آن التي أحسّت فجأة بضغط في قلبها.«ارتفاع مفاجئ للحرارة بالنسبة إليك». قالت صونيا ودفعتها لتخرج إلى البيت الباردة.

في الطرف الآخر من البيت السخونة التي خرجتا منها، ووسط البخار الكثيف الذي تفوح منه رائحة الكبريت بشدة، رصدت آن ثلاث مستحمات، كنّ قد أبعدن أولادهن، يحلقن بتركيز عانتهن.

برودة منعشة الآن في القاعة الثانية التي توجد بها درجات حجرية في شكل دائري يُجلس عليها. الاتكاء على الجدار المنزوع الطلاء..في الزاوية ما يشبه مخدعا مظلما، حيث النساء، الواحدة تلوالأخرى، عند خروجهن من البيت السخونة، ترمين الماء بوفرة على أجسادهن وهنّ واقفات بعد أن تنزعن فوطهن خلسة، باحتشام وتحفظ. بعد ذلك تجلسن متوردات ومتشابهات استعدادا للتخفيف على أنفسهن: محادثات أو مناجات مع النفس بكلمات ناعمة، تافهة ومستهلكة تتساب مع الماء، في حين تتحررن أشاءها من ثقل الأيام ومن ضجرهن.

أخيرا، وصلت صارة مرتدية فوطة حزمتها تحت إبطيها تمتد حتى نصف فخذيها. كانت تحمل في يديها مشطا وكأس ماء بارد لتشرب، ثمّ جلست بهدوء وسط مجموعة. بالقرب منها كانت إحدى المستحمات ترش الماء الدافئ بكميات صغيرة على قدميها المنتفختين، شعرها مدهون بالحناء، وتنظر بعيدا. انخرطت مباشرة في سرد آخر الأخبار.

لم تكن صارة تعرفها، لكن، وهي تقترب من آن تطلب منها تمشيط شعرها المبلل، استمعت إلى تلك المجهولة ذات النظرات الشاردة. في

الخلف، كانت هناك جلبة من الأصوات المتقاطعة. همس متبادل وبوح بالأوجاع بعد أن تفتحت مسامّ الجلد وانزاحت ظلال الحجارة الباردة. نساء أخريات صامتات، يتفرّسن في وجوههن وسط البخار: هنّ اللواتي احتُجِزن لأشهر أو سنوات، لا يخرجن إلّا للذهاب إلى الحمّام.

بقيت صارة مرهفة السمع، في الوقت نفسه، إلى الصوت المستمر لانسياب الماء، الذي يحوّل الليالي هنا إلى همهمات سائلة..فُتحت باب: فاصل صوتي، دلاء تُصدم، أثير مخروم لضحكة أو أنين، صياح متواصل لأطفال حُمّموا وقمّطوا، تلعنهم أمّهاتهم المنهكات من حمل هذا العبء، عبء من لحم ودم، ومن عدم تمكنهن من التمتّع فقط، بالدفء والنسيان.

سلمت آن شعرها ليُمشط. كانت صارة تستمع لتلك الموسيقى الصامتة والكلمات التي تبحث عن نفسها.

- تدّخلت تلك المجهولة قائلة: في قرية اشتراكية (وذكرت مصدرها: يومية باللغة الوطنية يقرأها لها طفلها ذو العشر سنوات) لجأت النساء إلى تحطيم الحنفيات كي يتمكنّ من الذهاب يوميا إلى الينبوع ! الجهل !

- الحرية ! ردّت باية، الخارجة من البيت السخونة ..كيف بنيت منازلهم الجديدة ؟ كلّ واحد مغلق على نفسه. هل الأمر هكذا في الدوار؟

سرحت صارة بعيدا تُفكر.«ماذا عساني أحطّم بداخلي، أو، إن لم يمكن ذلك فخارجي، حتى أجد الآخرين مرة أخرى؟ أجد الماء الذي ينساب، يغني، يتلاشى، لكنه يحرر شيئا فشيئا دواخلنا؟» غابت صارة.

صنعت آن لنفسها ضفيرة، ثمّ ابتسمت مرتبكة وقد أحرجها صدرها العاري عندما شرع طفل، معلّق على ذراعي المرأة التي بجانبها، في مداعبته.

- كم أرضعتْ من طفل ؟ سألت تلك المرأة صارة التي انتفضت في مكانها.

- ثلاثة. أجابت دون أن تترجم. أمّا آن التي شعرت بالبرد، فقد وقفت لتعود إلى دفء البيت السخونة.

عندئذ رغبت **باية** في الحديث، ليس مع **صونيا** فهي تراها شابة صغيرة، وإنما مع **صارة** التي ترتاح لها: بذلك ستتمكن أخيرا من تجاوز مخاوفها. منذ الأمس لم تبد أيّ تعليق حول رسالة **نزيم** التي قرأتها **باية** عبر الهاتف. **صارة** شاردة، **صارة** صامتة. على من تُراها ستقلق، تساءلت **باية**؛ على المراهق الذي اختفى أو على الأب؟ لطالما رغبت في سماع صوته: الكلمات التي ستختارها ستمنح ذلك الهروب معنى، ستجعل منه مأساة أو تحوله إلى حدث تافه.

- أن أتزوّج؛ مازالت هذه المسألة تقلقني، صرحت **باية** لـ **صارة** التي لم تسألها، والتي مالت منتظرة.

يداها تمزجان عجينة من الأعشاب المهروسة والزيت... واصلت الاستماع: بعض العذارى في هذه المدينة يبادرنك بالتعبير عن تأثرهنّ لحالك، بأيد ممدودة. سذاجة معروضة بالمجان. لو كان الأمر ممكنا، لبكت **صارة** بنعومة مقهورة، ضمن أصوات نسائية قابعة في الظلّ. من أجل لا شيء أو من أجلهن كلهن...التطور، الخطوات الصغيرة تتم في قصر نظر تام، عندما منعت حرارة قديمة من أن تغرق الثورة في دوران حول نفسها، في شكل دوامة تافهة.

- هل تتذكرين الخاطب الذي حدثتك عنه العام الماضي؟

أومأت **صارة** بتردد أن نعم.

- ناوليني الماء...لا..بارد!

واصلت **باية**، كانت تُخفف عن نفسها:

- في الأخير طرده أبي بعنف من المنزل..رغم أننا كنا قد حددنا موعد الخطوبة، لكن أخته الكبرى التي لا تعيش هنا والتي يحترمها،

كانت آخر من يعلم بالموعد.شعرت بالإهانة فأقسمت أن لا تحضر، لذا رغب الخاطب في تأجيل الموعد لكن والدي ..تعلمين كيف هم الرجال في القرية، تعرفين نزقهم وتوجساتهم...

تركت صارة الولد ذاته يتعلّق بظهرها. فتخلت عنه أمه المنهكة.

- لست محظوظة.

- بل أنت محظوظة، اعترضت صارة، يبدو أنك حصلت على ترقية في المختبر!

- طبعا، قالت باية بحسرة وعيناها تلمعان...أنت تعرفينني: لن أطمئن حتى أتزوج!

تدّخلت قادمة جديدة، في سن متقدمة، تفهم الفرنسية. وضعت دلو ماء ساخن بين قدميها وكانت تغطس فيه ذراعها المريض تدريجيا.

- رغم جمالك! قالت بتعجب، ثمّ أضافت باللغة البربرية لتتأكد من المنطقة التي تنحدر منها الفتاة الشابة: «اللويز لا يحتاج إلى البحث عن مشتر! سيتقدم إليك الذي اختاره لك القدر!»

ابتسمت باية بدلال.غابت صارة عن الحديث، ورغبت في الدخول بدورها إلى البيت السخونة، لا يمكنها أن تبقى داخلها أكثر من ربع ساعة بسبب قلبها الذي قد يتعب.

لمحت آن، بعد أن التحقت بها صارة، وجلست على ركبتيها وتخلّصت من فوطتها، لمحت ندبة واسعة مزرورقة على بطن صديقتها.

- هل هذا حرق؟ سألتها وهي تتلمس كامل بطنها على مهل.

لم تجب صارة. «إصابة حرب» كان يجدر بها أن تجيب، ربما بأسلوب ميلودرامي. كانت آن تجهل كلّ شيء عن المدينة أثناء فترة القتل والنار الماضية: نساء في العراء تحت رحمة الرشاش، غلالات بيضاء تخترقها بُقع دم..كيف أفنت صارة شبابها؟ هكذا، هناك في مكان ما من هذه

الشوارع المفتوحة، ثمّ في سجن حشرت فيه مراهقات..هل من أجل الإجابة عن السؤال الذي أصبح يسكنها في ذلك الوقت، بدأت العمل على مشروع يبدو أنه مشروع فنّي، يتعلّق بتحقيق وثائقي حول المدينة؟ جدرانها، شرفاتها، عتمة سجونها الفارغة...

التقت صارة وآن في المطار السنة الماضية: ذكرى الذهاب معا إلى المدرسة الابتدائية، قبل الحرب بزمن طويل... كان والد آن قاضيا تمّ نقله فيما بعد إلى مستعمرة أخرى. سقط درج في الحديقة ذات يوم. كانتا تستعملانه كلّ يوم، بنتان مختلفتان غير أنهما تضحكان بمناسبة كلّ يوم يتكرر فيه هذا اللقاء. كان شجر الأكاسيا يُطيّب برائحته الحديقة العامة. «هل تذكرين؟» قالت آن، التي انتهى بها الأمر أن رقصت الليلة الماضية في الحقل، بل بكت وهي ترقص...«إيقاع أكتاف متشابه، ذراعان تبحران تحت شجرة الليمون المتثاقلة، ضحكات أطفال وسط عديد النساء...هل لأجل هذا أيضا عدت؟»

رشّت المرأتان الماء على بعضهما. عرضت المدلّكة خدماتها بأسلوب ماكر: أحضرت المناشف والماء البارد لتنظيف الأقدام عند آخر خروج من آخر قاعة: بل جهزت أيضا، في جو البهو المنعش، أفرشة لترتاح عليها النساء المسترخيات، وكانت تنتظر، من وراء كلّ ذلك، الحصول على بقشيش محترم. عندها، وبعد أن لفّتهما بحنان أمومي، «مثل عروستين جديدتين» كما قالت، وهي فرحة بالنتيجة التي يمكن أن تحصل بفعل هذا الكليشيه الذي طالما يُردّد، عندها حصل فجأة، بعد أن قامت بحركة وفي يدها الإناء النحاسي، أنِ انْزلقت وسقطت وارتطم قفا يدها اليمنى بحافة بلاطة الرخام.

ماعدا المرأتان الخارجتان للتو، كانت هناك مستحمة أخرى قوية تركت أولادها لتساعد على حمل المدلّكة المتأوهة.

في الخارج، لبست صارة ثيابها هي الأولى. غطّت شعرها بوشاح مزركش، وخرجت لتُتلفن عند عطار الناحية. رافقتها صاحبة الحمّام إلى

الرواق، وهي التي تظل في العادة مشدودة إلى صندوق الدراهم، ثمّ دخلت في حالة انفعالية، عندما فكّرت في الفوضى التي قدّرت أنّها ستحصل في الأيّام القادمة: المهنة الآن تتلاشى، أين ستجد الآن حاملات الماء؟

أضافت المريضة التي بدأت تستفيق من حالة خدر:

- أين ستجد، مثلي أنا، اللاّ "الحاجة"، حاملة صفائح الماء (لقد أنهكتني صفائح الماء، مصيبتي) ومدلّكة في الوقت نفسه؟ لحسن الحظّ، أنّي لا زلت أدلّك لفائدتي الخاصّة:

كانت آن تعاين الوجه المُجوّف، والأعين المشتعلة حقدا عاجزا. مسحت لها جبينها الذي كان ينضح عرقا.

دخلت إلى الغرفة الباردة، وهي مرتدية كلّ لباسها، وجلبت طاس ماء حتّى تتمكّن المريضة بدورها من ترطيب يديها وجبهتها.

في التاكسي، غفت العجوز بين صارة وآن، وهي مثقلة بستار صوفي مهترئ لكنه لم يفقد شيئا من بياضه.

في المستشفى، طلبت صارة مصلحة الاستعجالات. تعرّف عليها طبيب داخلي متربّص شاب. وهو ما سمح للمدلّكة أن تشعر بالأمان.

- بعد ساعة، يجب فحص يدك اليمنى مرّة أخرى... أيّتها الأمّ، سنُدخلك المستشفى!

عاينت العجوز بريبة المسكّنات التي قدّمها لها الطبيب المتربّص الشاب. قرّرت آن البقاء قرب سريرها، في قاعة ترقد فيها نساء أخريات.

كانت تمسك باليد التي تراكمت فوقها الضمّادات فأصبحت تشبه عوّامة: كانت المريضات الأخريات يتخيّلن أنّها كنّتها الودودة، وأنّ ابنها سيحضر، دون أدنى شكّ.

عادت صارة، بصحبة علي الذي خرج من درس مع الطلبة.

بعد فحص طويل أكّد:

- لا بأس الأمر هيّن، أيتّها الأمّ. ستتعهدّك زميلتي وستُجري لك عملية، دون شكّ!

- عمليّة!... لا أريد أن أخدّر، ذلك ضدّ معتقداتي!

- أيّ معتقدات؟ ردّ عليّ بقسوة. في هذه الحالة، قومي إذن واذهبي، إن كنت ترغبين في ذلك: وبعدها لن تتمكّني من استخدام هذه اليد!

لم تتفوّه العجوز بكلمة حتّى بعد خروج علي. أدركت آن الأمر، وتبسّمت لها بثقة. «لو أنّي أستطيع الاعتراف لها بأنّي اشعر أنّي مرتبطة بها!... ربّما ربّتني حاضنة تشبهها...لو أنّي...»

- صارة، ما اسمها؟

- فاطمة، أجابت العجوز بحدّة. فجأة أظهرت فمها الأدرد (ولكونها حذرة، فقد نزعت، وهي في الطاكسي، طاقم اسنانها الذهبي، إذ فكّرت أنّ قبولها في المستشفى لن يكون، عندها، مجانيّا). أفهميها أنّ "الفاطمات" عندنا يدعون كلّهن فاطمة!

بعد ساعة نامت، وقد صرعتها الحمّى.

قالت صارة لـ آن أنّها ستعود مع الطبيبة الجرّاحة الوحيدة في المدينة وقد تخصّصت في جراحة اليدين ذلك أنّ حوادث العمل جعلت هذا القطاع مزدحما ازدحاما.

ظلّت آن قابعة عند سرير حاملة الماء، وكانت تتفرّس باهتمام في المرضى الآخرين. بدأت العجوز النعسانة تئنّ وقد كانت يدها مدفوعة إلى الأمام تخرق الفضاء، مثل يد غارقة، تغوص وتغوص. وكان يبدو أنّها لا زالت تعاني تحت ثقل صفائح الماء.

عندما حُملت في سيّارة الإسعاف لتُنقل إلى مصلحة الجراحة، في الطرف الآخر من المدينة، استفاقت بالكاد. كان حُلمها، الذي تُوقّعه صفارة سيارة الإسعاف وهي تسعى إلى تجاوز الازدحام المروري، ينعقد وينحلّ إلى كلمات متلاطمة، شبيهة بمعاناة مُمعنة في القدم.

*«نايمة، أنا النّايمة، ويحملونني، من يحملني...»*

جسم ثقيل ممدّد أفقيّا في العربة التي تصفّر وترسم أثر سيرها عبر المدينة السفلى. قرقرة، تنفّس يسعى إلى الخروج من البطن..سرّة عين فتحت مجدّدا، يدان مرفوعتان في مواجهة السماء، اليد اليُمنى ملفوفة في لفاف أبيض، أضخم من لوح تحميل الخبّاز، واليد الأخرى تحمل نتوءات وتجاعيد بلون حناء قديمة، كفٌّ مدلّكة مساعدة تدلك لحم مستحِمّات متأوّهات تحت الأقواس الرّطبة...

رَشْحُ كلمات متبخّرة، وخم يليه وخم، تحت أشجار الظلّ هذه، وهي تطفو في أروقة مائيّة. كلمات متحرّرة في إثر تحرر جسدي، جسد النحاتة العجوز، الذي يرسمني أثرَ أُخدود في سيارة الإسعاف المسرعة. كلمات في تناغم مكهرب من نعيب الحريم، كلمات من بخار، من أصداف شفافة...

*« نايمة، أنا النايمة، وجسمي يُنقل...»*

إنّ كلّ تضرّع إلى الرسول أو حتّى أراملة سيظلّ بلا جدوى

وحدها، الكلمات، الكلمات البالية، الكلمات عديمة الشكل، الكلمات التي لا تسبّب الضيق بينما تنساب اليدان البيضاء والمحمرّة وتتواتر على إيقاع آهات المستحمّات الورعات، كلمات متلاشية يمكن أن تنير الصفير المتواصل لسيارة الإسعاف المندفعة من أجلي أنا- ناقة ملكية لا تبالي بالشوارع الصاعدة، بين جُرف من الدُّرج التي كنت من وقت قريب، أهبطها، متلفّعة بستار مهترئ...

من الآن فصاعدا وأنا عارية هكذا، سأتحرّك مُحلّقة، ولن أكون مومياء، أنا الآن سيّدة نفسي، إمبراطورة أفقيّة يمكن أن تقطع حركتها، هي الآن حركة تقدّم قربانا. هكذا هو تحليقي السلس، تحليق الانتصار (المراكب، المتوقفة في المرسى هناك، هي شهودي الثابتة في المكان) لأنّني أتحرّك، أنا المرأة، وكلّ أصوات الماضي تتبعني

بالموسيقى، غناء متنافر، صيحات مخنوقة، وفي كلّ الأحوال كلمات غريبة، أصوات متعدّدة تخترق، منتصف النهار، المدينة المتبدّلة...

*«أنا – هل أنا –، أنا السافرة...»*

في نهاية المطاف، تلك جيولوجيا الكلمات الضائعة، كلمات- جنينيّة غارت إلى الأبد، هل ستُفلت، غِمدٌ سوداء، هل ستستيقظ لتخلّصني من الأشواك بينما لم أعد أحمل أبدا، أبدا، قناعا يغطّي وجهي في الخارج، ولا صفائح فوق رأسي في الداخل، انتهى الأمر، هل غارت الآلام المتراكبة، الصوت الفرعي بلا نبرة ولا ذبذبة:

*«أنا – هل أنا –، أنا الوحدانية...»*

ازدحام كلمات الأغوار التي تتبثق مجدّدا داخل الجسم الأفقي الذي يتقدّم، وسيارة الإسعاف تفتح طريقا لها في الناحية: أنهج متعرّجة تلتوي بين شرفات تتسّع فيها أحداق أطفال مسمّرين مثل نُصب..مراكب ملوّنة، بحر هائج دوما، أعالي المدينة ذات اللّون الخبّازي طريحة الصمت: هل ما زال المستشفى بعيدا، هل إنّ الطبيبة الجرّاحة تستعدّ، وهي وحدها آخر الأمر، لتغلق فمها بقماش أبيض؟

تنعقد الهمهمات، تتكوّن حزمة القرقرات فوق البطن، أسفل الصدر المجوّف... تتجمّع المقاطع المنسلّة حيث تطوّق اللّغة التي تصدرها زفرات النساء العربيات، نحيب ممتدّ، ينساب بلا انقطاع ترافقه مصاحَبات حزينة، خسائر مُدماة يتكبّدها انبعاث العادة الشهرية، ذاكرة متهالكة، ذاكرة حريمٍ انكشاريين ضُربت أعناقهم، والتي تهتزّ حيطانها الجيرية على وقع أصوات جديدة، كلمات ممزّقة، تحيط بي كلّها، أنا، أنا حاملة الماء التي تصنع فضاءها الجديد.

صوت متردّد يتألّم ويتفسّ بصعوبة، إذ يبحث عن ذاته:

*«أنا – أنا؟ أنا الوحدانية، أنا التي أمروا بالحجر عليها*

*أنا التي حاولوا إخضاعها، وقبضاتهم فوق رأسي، لإغراقي مباشرة، وإنزالي حتّى فصيلة الشرّ سِحْنة القرد؛ أنا العالقة في ألواح الشقاء الأصمّ المرمرية، أنا العالقة في الصمت الحجري، صمت الحجاب الأبيض...»*

وهذا الماء، الماء المتدفّق رشات لا تنضب، الماء الذي استمرّ، طيلة هذا الوقت، يتبعثر شلالا وراء شلال، ارتعاشات مُحرِقة من حرير، دلاء سوداء على الكتف تُصبّ خارج الحفرة التي يتصاعد منها البخار.

*«أنا، أنا التي حاولوا كتم أنفاسها، خطفها على مقربة من حفرة النار، أنا التي ظنّوا أنّ جلدها دُمغ، وهو ما زال حيّا، جلدها المليء ندوبا فاغرة، أنا، هل أنا؟...»*

ما إن انطلق صرير الكوابح، حتّى قام السائق- الممرّض بزحلقة سيارة الإسعاف داخل مبنى مستشفى أعالي المدينة؛ الصفير الذي انقطع لحظة عاد إلى الظهور في الغرفة مثل عذابات تحيط بجسمي الغافي الذي خدّروه للتوّ، حفيف نُصيلات ومثاقب وشفرات سكّين..دقائق تسبق العمليّة.

ترتيلٌ في الفاصل بين اللّحظتين يتشكّل على إيقاع التحضيرات تحت مراقبة عيني الجرّاحة ذات الرموش الطويلة والمكحلّة، وقد وضعت قناعا على الجزء الأسفل من وجهها.

*«أنا كنت تلك التي عزموا على تزويجها منذ فجر الكون...»*

كانت صحراي تمتدّ وتمتدّ، كان والداي يتذكّران أنّهما كانا بدوا رُحّلا، وكنت أنا أجري حافية القدمين فوق الكثبان الرمليّة..كانت الغرف تفوح برائحة السّماد، كانت معزتي البيضاء تتطلّع إلى الأفق... هكذا هي مزرعة أبي التي كنت أظنّها ميسورة.

أتذكّر صورة أبي وهو يرتدي لباس جنديّ في الفرقة الأجنبيّة، أتذكّر بزتّه، وقماش لباسه الأحمر. كنت أمسّح خدّي عليه عندما

يشدّني أبي بين ركبتيه..وكنت أرتعد...كان يأتي من بعيد... وكانت عمّاتي المتحلقات، يختنقن من شدّة الضحك عندما كنّ، عند مجيء أبي، يقدّمنني له لابسة عديد الفساتين النسوية – أنا التي كنت أُطرِق، التي كنت أنساب ملتصقة بالسروال المنتفخ القرمزي.

اصطحب أبي، خلال رخصة، جنديّا آخر؛ كانت عمّاتي صامتات. كنت سأُمْنح مثل طفلة زوجّوها منذ فجر التاريخ..قالوا، بخصوص ابن الأجنبيّ، أنّ الأب هو الذي قرّر ذلك. كانت العمّات يبكين، وكنّ يقلن لو أنّ الجدّة ما زالت حيّة لما تجرّأ الأب أبدا أن يفعل ذلك...

خضّبوني وأنا في سنّ الثالثة عشرة، ونتشوا حاجبي، ونزعوا شعر إبطيّ وعانتي، ووضعوا طرحات لامعة على جبيني وعلى وجنتيّ، واشتروا لي بغلات موشحة زخارف. كان قلبي يخفق خفقانا بسبب ارتحالي الأوّل، أنا، المزوّجة منذ البدايات.

ومضت العربة باتّجاه الشمال.

*«النايمة، أنا هي النايمة، التي حملوها، والتي...»*

كانت العربة تمضي مسرعة، وكانت مجهولات تحمِلن أحجبة سوداء ثقيلة يَجْسُسننني بأصابعهنّ التي احمرّت من فرط الإكثار من الحنّاء، يجسُسن نهديّ وكتفيّ وبطني، ثمّ ينعقن فرحا، كنّ يُطلقن صرخاتهن المُرصّعات في الوقت الذي كنت أنا أصعد نحو مرتفعات الشمال. صيحة حلقيّة تطلق بين الحين والآخر، من قبل واحدة أو أخرى (كنّ أربع أخوات). كانت هذه الصيحة تجمّدني، تغرز فيّ طفولتي، وتعود بي إلى جريي في الكثبان، وضحكاتي المتتالية.

*«كنت، كنت المزوّجة من فجر التاريخ... حاملة، حاملة الماء لينتهي بها الأمر داخل حُفرتنفُث الدخان من أثر البخار»*

كان عمري ثلاثة عشر عاما، كنت أظهر كبيرة بالنسبة لعمري وسمراء بالغة السمرة، ينزل شعري حتّى صلبي، عيناي مكحلّتان،

وكفايّ محمرتان. ثلاثة عشر عاما وأصبح نهداي مُمتلئين منذ سنة أو سنتين؛ كانت دقّات قلبي تتسارع منذ أوّل سفر، أمل ثمّ خوف، ثمّ... الظلمة فجأة، واليوم أصبحت في سنّ الخمسين أو الستّين، لا أعرف سنّي بالضبط، ظُلمة الزمن: لا شكّ أنّها صفيحة ماء المصير الشديد الحرارة على أكتافي وأنا بنت الثالثة عشرة. من يومها أصبح عمري خمسين أو ستّين سنة وظل كذلك دوما، لكن ما أهميّة ذلك، فالمستحمّات يدخلن ويخرجن دوما، والأطفال يتصايحون في خضم ضباب الحمّام البخاري، والماء لا يتوقّف عن السيلان فوق البلاطة، البلاطة من البرونز الأسود التي تثقل كاهلي، وفي آخر المطاف، أدلّك، و...

*«حمّالة الماء، أريد ماء..ماء يغلي! حمّالة، حمّالة الماء...»*

هناك في الخلف، العتمة والبخار المتصاعد من الحفرة...البؤس في هذه المزرعة، في نهاية المطاف! أطفال على الأرض بطونهم منتفخة، يتقاطر الذباب على أعينهم؛ ولا حتّى مصباح في الغرف الطينيّة، والجرار المثبتة في الأرض تغمر الفضاء كلّه..والنساء، وجوه غزتها الشيخوخة، نهودهنّ ظاهرة لترضعنّ صغارهنّ الذين يجذبن على أضرع فارغة؛ بعض رجال، بعيون محمومة، يقبعون جلوسا طيلة اليوم : توجد حول المزرعة مساحات واسعة من الأحجار، وفي الأسفل سهل أخضر، وافر الخير، كان الفرنسي قد استولى عليه بعد حلول رجال قانون ودركيّين... عند نزولي من العربة، استقبلني السيّد، يحمل نفس النطاق الذي يحمله أبي وعايناني بعينين متقدّتين وكأنّي جئت له... كان الزوج المراهق يتلمّس تلك الليلة بتردّد جسميَ البارد. في الغد، جاءت النساء بحميتهنّ: «اشتغلي! بيّني ما تقدرين عليه، أيّتها الأميرة!»... وبعد قليل أضفن: «أنت التي باعك أبوك مقابل زجاجتيْ بيرة في مدينة من مدن تقبع فيها حاميات الجند!»

انتهى الأمر، أدركت من الشتيمة أنّ الأمر قد انتهى! لا زال ينتظرني شهران أو ثلاثة أشهر من التّعاسة.

استأنف الصوت المساعد الغناء، صوت متنافر، خافت، مصحوب بفُواق:

*«أنا- هل حقّا أنا؟- لأنّهم أرادوا تحطيمي، عزموا على إغراقي، إغراق رأسي أوّلا ، في قشرة الشرّ السوداء، سجنة القرد...»*

أخيرا الجري. ذات ليلة، هربت دون حجاب مرتدية ثوبا فضفاضا أحمر وبداخلي هذه الكلمات: «الجري أماما...أماما دائما!» لم يعد يوجد جنوب ولا شمال؛ ثمّة فضاء والليل، ليل حياتي الطويل الذي بدأ.

ما عاد هناك أطفال عراة منتفخو البطون. ما عادت هناك زوجات الأخ يجسسْنَني كلّ صباح:«متى ستقرّر هذه أن تحبل؟»، أنا وحدي في ليل معتّم، مسكونة بهذه الكلمات البسيطة:«أهرب، ...أجري الآن إلى الأمام، أمامي أنا!» الكلمات، مثل الحسكات، تعقد الحلق أحيانا، وتمزّق الصدر...الكلمات تمزّق، حقّا، إنّها تمزّق...

أن أمشي، أمشي الليل. أمشي بجانب الطريق، أمضي أسرَع فأسرَع، أسرَع من ظبيةِ صحرائي المفقودة.

فجرا، هذه مدينة صغيرة، في السوق هناك شيوخ في ركن يخاطبون الشاي المدخّن ورائحة النعناع الصادرة عنه... «لو كان عندي برنوس فقط، كنت سأبدو مثل طفل!... ويمكن أن أتسكّع في الأنهج، وأكون الآخرين، الناس، أناسا حقيقيّين»... همهمة امرأة، ظهرت عيناها فقط في الوجه المقنّع: «ماذا تفعلين هنا- يا ابنتي؟» بعد ساعة، وجدت نفسي في ملجأ، لا بل مكان عمل: ظللت سنتين أنسج زرابي نهارا، وفي الليل أخدم امرأة مسنّة مهيبة..ثمّ، في نهاية المطاف، الشارع من جديد: الفرار ليس مشيا هذه المرّة، وليس ليلا، بل سُلِّمْتُ لرجل آخر أخذني إلى العاصمة. ها أنا الآن في أحد البيوت، عندي بطاقة وزبائن. خمس سنوات، عشر سنوات، السنوات تمضي سريعة..... حلّ الاستقلال تصحبه الاحتفالات: منازل مفتوحة، شوارع تعجّ فرحا. خرجت. كنت أظنّني حرّة. شاهدت وجهي في واجهة زجاجيّة: «عجوزا كنت، أصبحت عجوزا... وكنت جائعة!» قبل سنة أو سنتين، في القصبة المنتفضة، جاء قرويّ. خبّأناه. تكلّم. هو من دوّاري، يعرف القبيلة الفلانيّة، والقسم الفلاني منها...

اهتزّ قلبي:

هل تعرف عمّار، الجندي؟ كان يملك مزرعة كبيرة ... منذ زمن طويل...لا شكّ أنّه تقاعد منذ ذلك الوقت...لقد عملت خادمة عند عائلته (وكذبت)!...

- كان واحدا من أوائل الحرْكة الذين قُتلوا منذ بداية الحرب..وُجد مذبوحا في خندق..بيعت مزرعته وتشرّدت عائلته...

- شكرا يا أخي، قلت له ومنعت عنه السرير، دخلت أخرى، من باب الصداقة، وأخذت مكاني في الغرفة.

ثمّ كانت صاحبة الحمّام. الحرارة والبيت السّخونة، وغرفة التعريق، والصفائح...صفيحة، زبون...لكن لماذا العدّ؟ ثمّ الدور المزموري، خارج الماخور وخارج الحمّام... البارحة كان غناء الأمل ينطلق في الشارع، أمّا أنا فقد تغلغلت في كياني أغنية الشكوى لا غير:

*«أنا- من أنا؟ أنا الوحدانية...»*

أمام جسد **فاطمة** الممدود، ركّزت الجرّاحة اهتمامها وهي في خضم إجراء العمليّة؛ كانت **آن** مسمّرة في قاعة الانتظار. في اللّحظة نفسها، انتصبت **صارة** أمام سرير **ليلى** التي كانت تهذي. توقّفت المغنيّة اليهودية عن أغنية الشكوى التي تعود إلى الثلاثينيات.

*من أجل ديوان حاملات النار*

- أعلنوا في كلّ مكان أنّني عُذّبت..تعرفين أنت ما هو التعذيب بالكهرباء!..

واصلت **ليلى**، وتذكّرت **صارة** في الوقت نفسه، وهي تضغط بيديها طرف السرير المعدني:

- أين أنتنّ يا حاملات القنابل؟ كنّ موكبا يحملن في أكُفهنّ قنابل يدويّة تتفتّح نيرانا، ويُضيء وجوههنّ بريق أخضر...أين أنتنّ يا حاملات

النار، أنتنّ يا أخواتي اللّواتي كان عليكنّ تحرير المدينة... إنّ الأسلاك الشائكة لم تعد تسدّ الأزقّة، لكنّها الآن تزيّن النوافذ والشرفات وكلّ منفذ نحو الفضاء...

كانت تُصوّر في الشوارع أجسادكن التي جُردّت من ثيابها، وأيديكن المتوعدّة أمام الدبّابات..كنّا نتألّم لأرجلكن التي فرّجها الجنود المغتصبون. ولطالما تحدّث عنكنّ شعراء كبار في قصائد غنائيّة من دواوينهم. عيونكنّ المضطربة...لا..بل أجسادكنّ التي استُعملت أجزاء أجزاء، بل أجزاء صغيرة جدّا...

عادت السيّدات ربّات المكان إلى عادتهنّ في تكديس مجموعات الحليّ .... التركي والبربري. قلادات وسلاسل لتوشيح رؤوسكن المقطوعة..أحزمة عفّة، مرصّعة بفضّة ومرجان لأولئك اللّواتي عُزلن في السجون..يتوجّب أن نعمل مخطّطات كبيرة في كلّ يوم مظفّر من أيّام المرأة: هذه أصابع كالعادة مصبوغة بالحناء؛ هي عادة أياد نشيطة للأمهات المصُونة (وجه تلسعه الحرارة من أجل إعداد الخبز ومن أجل الاحتراق). الأصابع نفسها دون حناء لكن مع أظافر مُدرّبة تحمل القنابل مثل البرتقال. تتفجر جميع الأجسام التي ظنناها "أجسام الآخرين" ... تتمزّق أشلاء الأعداء. وأولئك اللائي، فيما بعد، يُزعم أنهن بقين على قيد الحياة في سجون من حديد ثم داخل قضبان الذاكرة ثم ... (بكت) ثم مثلي أنا من خلال رعدة الحمى (لأنه، يا صارة، أنا محمومة، أتعلمين، سأعاني دائما من الحمى)، هل بقين حقا على قيد الحياة؟ إن القنابل لا زالت تتفجر ... لكن على مدى عشرين عاما: على أعيننا، لأننا لم نعد نرى خارجا، لا نرى إلا النظرات الفاحشة، إنها تتفجر لكن على بطوننا وأنا – صرخت ليلى– أنا جميع البطون معا، بطون المرأة العاقر!

كانت صارة تبكي، كان هناك ألم يضغط صدرها.

- عزيزتي، عزيزتي الصغيرة – بدأ صوتها أخيرا يتعالى، بدأت تسمع نفسها وهي تتكلم عربيتها بلهجة منطقتها – عزيزتي، اصمتي، توقّفي عن الكلام! ... الكلمات، ما الكلمات؟

- بالعكس!- كانت **ليلى** تستعمل لغة فرنسيّة عنيفة. - يجب أن أتكلم، يا **صارة**! إنهم يخجلون بي، لقد نشفت، أصبحت خيال ما كنته في الماضي ... ربما لأنني قدمت خطبا كثيرة في محاكم البارحة، دخلت كثيرا في اندفاعات علنية وعندما كان الإخوان يصفقون، كنت أعتقد ... (ضحكت). هل كان هناك إخوان حقّا يا **صارة** ... قولي لي؟ ... أنت ... كانوا قد سمّوك منذ ذلك الوقت الصامتة ... لم نعلم يوما شيئا عن التفاصيل المسجّلة عن تعذيبك أنت! عالجوك فيما بعد مثلي، ظنوا أنه لن تبقى إلا بعض الندوب، لم نعلم أبدا...

«لطالما كانت لدي مشاكل مع الكلمات!» فكّرت **صارة** وهي تنزع صدارها، ووجهها لا زال يدمع. كشفت عن الندبة الزرقاء فوق ثديها والتي كانت تمتد حتى البطن.

اقتربت من الفراش وعانقت **ليلى**. كانت تجسّ جبينها وقوسي حاجبيها، كانت تود أن تلعق وجهها وتبكي هكذا على نفسها، وأن تسحق بعنف دافئ هذا الجسد النحيل ذي الكتفين المقوّسين وهذين الذراعين الهزيلين هزالا والمعصمين الشبيهين بمعصم طفل والرأس المليئة بالزوايا كأنها رأس ميتة ... أحست **صارة** باندفاع شهواني محض ... بحثت صماء - بكماء عن كلمات حب، كلمات مهرّبة، في أي لغة ستجد الكلمات، مثل كهوف أو دوامات من الحنان. لكنها لم تكن تتحرك وكان كل شيء حانق فيها عندما أغلقت ببطء صدارها.

كانت **ليلى** لا تزال تهذي عندما دخل الرسّام إلى الغرفة واقترب من **صارة**:

- لا حاجة لأن تتأثري! إنها نوبة. أنا معتاد على متعاطي المخدرات. وقد مررت بهذا ...

وعندما كانت **صارة** تهم بالمغادرة:

- اهتمي بالأحرى بابن علي! أنت الوحيدة التي يمكنها حمله على العودة!

نظرت إليه صارة بقلق. يجب العودة إلى السيارة بسرعة.

- ما أدراك؟ تعجّبت بقوّة وهي في الخارج واستغربت هي نفسها عندما أحست فجأة بأنها ترتعش. هل تساءلت حتى عن السبب الحقيقي الذي جعله يغادر؟ تصوّر مثلا أن الولد رآنا نتشاجر ذات مساء، أنا ووالده! هل تعلم، أنت الذي دفنت نفسك لوحدك هنا، هل تعلم كيف يقضي الأزواج لياليهم في هذه المدينة؟

ثم انطلقت بالسيارة. بقي الرسام منتصبا أمام بوابته لفترة طويلة بعد أن اختفت السيارة.

«ربما يجب الذهاب عند العمة العجوز»، فكرت صارة التي لم تستعد هدوءها إلا بعد فترة. في القصبة، حيث التجأ نزيم في الليالي الأخيرة. عليّ انتظاره، ومن أجل ذلك، سأنام كل ليلة بالشرفة: في فناء تحتها مباشرة، مثلما في بئر، هناك فتيات شابات مشغولات كالنحل ترقبهن نظرة الأخ الأصفر الفاحصة. «أمير الأحلام، بصوت عال تحلم هذه الجارات، لن يمكنه أبدا المثول عند الباب، ربما سيفعل ذلك بالقفز بالمظلة وسط الفناء!» وتعالت قهقهاتهن ضحكاتٍ حادةً ...

إن نزيم – كانت صارة تقود في الضواحي المكتظة بالسكان – سينتهي بالعودة، هادئ النظرة أخيرا. وإلاّ، إن لم يأت أحد، أين سيكون أولاد المدينة الجدد؟

أوقفت السيارة أمام مدخل المستشفى. وبعد ذلك بقليل، أخبرتها آن بأن يد فاطمة ستتعافى. في رواق كانت ترتاح فيه الممرضات وسط الضوضاء، قامت الجرّاحة، التي نزعت قناعها الأبيض ومئزرها، بالابتسام لهن بهيئة متعبة.

# IV

لا أرى أمامنا أي حل آخر إلا من خلال هذا اللقاء: امرأة تتكلم أمام أخرى تنظر، هل تحكي تلك التي تتكلم عن الأخرى ذات العينين المفترستين والذاكرة السوداء أم أنها تصف ليلتها هي بعبارات مشعليّة وشموع يذوب شمعها بسرعة كبيرة؟ تلك التي تنظر، هل كان ذلك من كثرة ما هي تستمع وتستمع وتتذكّر أنّها في نهاية المطاف سترى نفسها ذاتها من خلال نظرتها هي، وبدون ستار أخيرا ...

جابت صارة الغرفة المظلمة التي عاد إليها الصمت. كانت تدخن بعصبية، كانت تحس بأنها تخرج من ضغط تراكم كلّ هذه الأيام مع أنه لم يحدث شيء يذكر، على الأقل بالنسبة لها ...

- كيف سيكون الانتقال بالنسبة للنساء العربيات؟

كان رأسها مطأطأ عندما اقتربت من آن، التي كانت أمام المصباح، ثم رفعت نحوها عينيها المتّسعتين وهمست:

- أليس الوقت مبكرا للكلام بصيغة الجمع؟

استأنفت مشيتها المتقطعة.

سألت آن لأول مرة صديقتها:

- في الماضي، كيف عشتِ أيام السجن؟

التفتت إليها صارة، لم تجلس إلاّ بعد فترة وكانت نظرتها تائهة.

قالت هامسة:

- أصعب يوم وأطوله في سنوات الحبس تلك ... كان اليوم الذي جاؤوا ليبلغوني في غرفة الاستقبال أن والدتي قد توفّيت، ماتت فجأة! لم أبك. لم أستطع! لن أنسى الشيء الذي مزقني فيما بعد ... ربما لأنني علمت بهذه الوفاة في ذلك المكان؟

توقفت. بقيت آن تنتظر إذ لم تتجرأ على التحرك. جلست صارة من جديد، طوت ساقيها ووضعت وجهها على ركبتيها، وراحت تنكمش أكثر فأكثر:

- أظن أنني فكرت عندها: لن أخرج من هذا الحبس أبدا! ومنذ ذلك اليوم (بقيت في بريروس لمدة سنة أخرى) أصبح جسدي وكأنه يرتطم بالحائط مع كل حركة. كنت أصرخ في صمت... لم يكن الآخرون يدركون إلا صمتي. بالأمس فقط قالت ليلى ذلك من جديد: كنت سجينة خرساء. شيئا ما مثل بعض نساء الجزائر العاصمة الآن، أولئك اللواتي نراهن يتجولن في الخارج بدون "حايك" الجدات واللواتي، مع ذلك، خوفا من الوضعيات الجديدة غير المتوقعة، لففن أنفسهن في سُتُر أخرى غير مرئية، لكنها مع ذلك ظاهرة تماما... أنا كذلك: سنوات بعد بريروس، لازلت أحمل في داخلي سجني الخاص!

تأوّهت آن بلطف قائلة:

- صارة، تذكري، عندما كنا صغيرتين، كنا حُرتين، كنا نلعب في هذه الحديقة!

- أمي. هَمَسَتْ صارة.

بكت فجأة؛ كانت دموعها تسيل سيلانا متدفقا منتظما دون أن تغير تقاسيم وجهها. لم تظهر آن شيئا من شفقتها. كانت صارة تمسح الجزء السفلي من خديها بيديها المتشنجتين التي كانت تفركهما فيما بعد على قماش تنورتها.

- يمكنني أن أتخيلها جالسة لقرون وعيناها تنظران في الفراغ بدون عزاء! ... يمكنني أن أتكلم عن أمي لأيام عديدة دون انقطاع! قالت صارة في شهقة حادة.

وأخيرا، في وقت متأخر من الليل، خلّصت نفسها ... وبدأت آن تفكّر: في هذه المدينة الغريبة المنتشية بأشعة الشمس والتي هي مع ذلك مليئة

بسجون تطوّق كل شارع، هل تعيش كل امرأة لحسابها الخاص أم تعيش، قبل كلّ شيء، من أجل سلسلة النساء اللواتي كنّ فيما مضى محبوسات، جيلا بعد جيل، فيما كان الضوء نفسه يسطع، في زُرقة أبدية نادرا ما يصيبها الكدر؟

- أمي ميتة ... حياتها التي لم يحدث فيها شيء. مأساة واحدة حصلت لها: أنجبتني ثم لا شيء، لم تنجب لا ابنا ولا طفلا آخرا! أفترض أنها تكون قد عاشت في خوف من أن يتم تطليقها! لم أفكر في هذا إلا لاحقا، بعد موتها، بينما كانت رفيقاتي في الزنزانة يحاولن مواساتي ... كان الأمر وكأن والدتي، وهي جالسة وساكنة، قد انضمت إلينا في السجن! فيما مضى، في منزلنا، بالدار الكبيرة الموجودة بالضاحية كانت صامتة وتعمل طيلة النهار. لم تكن تتوقف. كانت تنظف مطبخها؛ وعندما تنتهي من كل شيء، كانت تغسل البلاط والحيطان، وتفتح الأفرشة وتغسل الأغطية مرّة أخرى. كانت تفرك وتفرك من جديد ... هاجس مثل هاجس آخر على كل حال! لكن، عندما بلغني، في ذلك السجن، خبر وفاتها تبدت أمامي جميع حركاتها (لم تكن تكلمني تقريبا على الإطلاق، كانت تقبلني أحيانا بتشنّج، عندما كانت تحسبني نائمة!) فهمت كذلك لماذا غادَرْت المنزل والثانوية، وأنا في سن السادسة عشرة، (ووالدي الذي كان يفتخر كل الافتخار: ابنة حائزة على البكالوريا، وكأنما كان لديه سبعة ذكور دفعة واحدة!) لكن ...(اكتسحت المرارة صوتها فجأة) كانت حرب التحرير عندنا في ذلك الوقت – شَردت، تردّدت – انشغلنا بالتحرير أولا، ولم نحصل إلا على الحرب فيما بعد!

تمدّدت عينا صارة بفعل الشرود. وبعد صمت، استأنفت الكلام بصوت شاحب، دون مرارة ولكن دون انفعال:

- كانت أمي، كل مساء، عند عودة والدي، تجيء حاملة دستا من النحاس مليئا بماء ساخن وكانت تغسل له قدميه. بعناية شديدة. وكنت

أنا، جالسة على الدرج (كان عمري سبع أو ست سنوات) أراقبها. لم أكن أفكر في شيء! لم أقل لنفسي شيئا أبدا. في ذلك الوقت كنت، دون شك، أعتبر هذا المشهد أمرا طبيعيا، لعلني كنت أشهد نفس الطقس في باحات أخرى، فيها الياسمين وفسيفساء فقدت رونقها كما هو الحال في باحتنا ...لم أنهض يوما لقلب الدست ولأقول للزوجين الهادئين والرصينين «اذهبا إلى الجحيم، أنتما الاثنان!» كنت أعلم رغم ذلك أنني لن أغسل أبدا أي شيء هكذا. كان يمكن أن نقول، بصفة من الصفات، أن فلكلور الدست النحاسي قد قتل الباقي ... لكن، سنوات من بعد، في تلك الزنزانة بسجن بريروس، اقتحم ذلك المشهد العائلي، اقتحم عليّ سجني ولم يتركني أرتاح! هكذا إذن، ماتت أمي: ماتت صامتة، وبسبب زكام طفيف. فهمت عندها أنها لن تحصل يوما على ثأرها. ولم أتمكن من القبول بهذا!

كانت آن تستمع. في فترات التوقف، لم تكن تنطق ببنت شفه، بل لم تحرك ساكنا حتى. ألم تقم هي كذلك، منذ أيام أو منذ سنوات مضت، في هذه الشقة الصغيرة نفسها، بسرد قصة حياتها بكلمات عجِلة ؟

استأنفت صارة:

- لم أفكر حقا في «الثأر من والدي». كان والدي بالنسبة لذويه يعتبر، على ما أظن، زوجا صالحا. عند خروجي من السجن، أبلغني والدي، عندما رافقني في الطريق في فترة فاصلة بين درسين بالجامعة، بنبرة حرجة جدا، أبلغني أنه سيعيد الزواج. تساءلت في نفسي: «لماذا يحس بالحرج إلى هذه الدرجة؟» ... لكن، أمي وطَيفَها المتضائل، هي التي لم تكشف يوما علنا عن مخاوفها ولا عن أفراحها، هي التي لم تئن حتى، شأنها شأن الكثيرات من غيرها اللواتي أعرفهن، ولم تعلن، بصوت عال، ضيقها، أمي، وكأنني لم أتمكن من تحريرها! ... لطالما تجولت في الخارج، وقدت حياتي وأنا أعيش اللحظة يوما بيوم مرتجلة وكما يحلو لي، لطالما استمتعت، يجب أن أقول الكلمة، بكل هذه "الحرية"،

لكن، هناك سؤال واحد يؤرقني: هذه الحرية، هل هي لي حقا؟ أمي ماتت، ولم تخطر على بالها أيّ فكرة عن الحياة المتعرجة التي أعيشها! ... آن، ما الذي يجب فعله؟ الانحباس من جديد، البكاء من جديد عليها، العيش من جديد لأجلها؟

مسحت دموعها، لكنها كانت تتعذب، كانت قسمات وجهها متوتّرة مبرطمة برطمة العاجزة.

أضافت بصوت أخفت في اعتراف وجيز:

- بالنسبة لي، الأمر مرتبط بأمي. بالنسبة لآخرين، الأمر يرتبط بأشباح أخرى من العائلة!

بدأ الفجر ينير ستائر الشقة الصغيرة.

- لا أرى بالنسبة للنساء العربيات إلا وسيلة واحدة فقط لكشف كل شيء : أن نتكلم، نتكلّم باستمرار عن البارحة وعن اليوم، نتكلّم فيما بيننا، في كلّ خِدرٍ، التقليدية منها والأبنية المشتركة. نتكلّم فيما بيننا وننظر. النظر خارجا، ننظر خارج الحيطان والسجون! ... المرأة – النظرة والمرأة – الصوت. أضافت بصورة غامضة ثم ضحكت ضحكة ساخرة:

- ليس صوت القاصّات اللواتي يسجنّهَا في أنغامهنّ المعسولة! ... بل الصوت الذي لم يسمعنه يوما لأن أمورا مجهولة وجديدة ستحدث بالتأكيد قبل أن تتمكنّ من الغناء: صوت تنهدات، وضغائن، وآلام جميع أولئك اللواتي حبسوهنّ ... الصوت الذي يبحث في القبور المفتوحة!

حلمت صارة بهذه الأجيال من النساء. تخيّلت أنها عرفتهن جميعهن ورافقتهن: ذلك هو يقينها الوحيد والرّاعش.

- «يا إلهي!» أضافت، وفكرت في ليلى. ليلى التي تعيد كشف الشظايا. «يا له من جديد، يا له من حريم مهاجم!» (صرخت) «حقّا، بدون "حرام" بدون موانع! باسم من؟ باسم ماذا؟ ...»

علمت أن الأمر كان دائما هكذا في كلّ الأصقاع: إن إعلانات عن الحرب التي لا مفر منها، مهما ما تقوله الجمعيات الخيرية المنظمة، لا تتغذى إلاّ انطلاقا من نهر جوفي ما من الحب اليائس والمتبصّر ... انكمشت ونيران الغضب تأكلها أكلا.

- الآن، ختمت فيما بعد كلامها بصوت هادئ، بينما كانت آن تعدّ حقيبتها من أجل سفرها القريب الآن – استأنفت – سيصرخ اسماعيل حقا في صحرائه: الحيطان التي دمرناها نحن ستستمر في محاصرته وحده!

أملها أو تحديها، ذلك لا يهم إن كانت تجهل إذا كان يتعلق بالأيام القادمة أوالسنة الموالية أو الجيل الذي ليس هو دائما جيل "الآخرين".

تأخرت الطائرة التي كانت ستستقلّها آن فجرا، وفي اليوم التالي، تأخّرت أكثر من ساعة.

انتظرت المرأتان مع مجموعة عمال مهاجرين قضوا أيام عطلتهم المدفوعة الأجر بقريتهم الجبليّة. كان اثنان أو ثلاثة منهم، ذوو وجه أسمر لكن أكثر هدوءا، مصحوبين بزوجاتهم اللواتي كنّ يرتدين ملابس طويلة ريفية، بعضهن يحملن صغارا في أذرعهن وجباههنّ موشومة بعناية شديدة.

كانت أجملهن – علمت آن من صارة التي تبادلت معها بعض الكلمات الخشنة – قد تخلّت عن حجابها في الصبيحة نفسها. هي شابة، نظرتها مسودّة بالكُحل لكن وجهها بالكامل مشحوذ بالأمل، حافظت على وضعية انتظار متصلّبة إلى غاية الدقائق الأخيرة للصعود على متن الطائرة.

- «لن أغادر!» صرخت آن فجأة. حدّقت بحدّة في المسافرة الشابة، ابتسمت لها (هكذا، ستحمل هذه الغريبة معها علامة الاعتراف هذه مثلما كان الغير يحملون قففهم وأوانيهم إلى غاية البيوت القصديرية، بالضاحية الشمالية بباريس، التي كانت تنتظرهم).

- «لم أعد أريد المغادرة!» ردّدت آن وهي تلحق بسرعة بـ صارة التي كانت خارجة من المطار. تعانقتا.

في العربة القديمة، في الطريق المؤدية إلى الحيّ المنبسط أولا والمفتوح كأنه محظية تبدو سهلة المنال، قبل الجادات القوسيّة التي تحمل عاليا فناءها المشجّر الضيّق والأبيض، كانت المرأتان تدندنان.

- «في يوم من الأيام، سنستقلّ الباخرة معا!» قالت الأولى .«ليس للذهاب، لا، وإنما لتأمل المدينة عندما ستتفتح جميع الأبواب ... يا لروعة ذلك المشهد! حتى النور سيرتعد له!»

وأضافت الأخرى أنها ستُحْيي أخيرا الفرحة المزهوة، فرحة قرصان الزمن الماضي، الوحيدين في هذه المدينة التي أطلقت عليهم تسمية "ملوك"، ذلك دون شك لأنهم كانوا مارقين.

*الجزائر، جويلية - أكتوبر 1978.*

# المرأة الباكية

«هذه الرقصة المتواصلة من خطوط متكسّرة»

أ.أداموف

بخصوص لوحة بيكاسو:

"المرأة الباكية".

قالت بصوت منخفض:

- جميعهم قالوا لي إني قد أخطأت ! ثمّ رفعت قليلا من نبرة صوتها:

- جميعهم قالوا لي: «زوجك، ليس زوجاً فرنسياً! ما كلّ الأمور تقال للزوج!..أنا...» بدّد البحر الصوت بفعل اضطراب أمواجه الصمّاء.

- أنا...أن أنام مع رجل كل مساء، هذا...(صار إيقاع الصوت محموماً) يعني أن أستلقي بجانبه هيكلا عظميا! ..كان بإمكانه أن يراني حتى العظام!

ضحكت ضحكة حادة، بل فُواق. وراحت تفكّر في تلك السّنين كلّها: «منطرحون»، كانت تقول في نفسها أثناء لحظات الاضطجاع الجسيمة الماضية تلك.

نسيم البحر: رمادي وأخضر. نِثارأزرق كان يتوارى غرباً.

- حينها، ضربني...(وجهت نظرها نحو الأفق) "هشّم وجهي" تماماً !

شظايا صوت بعدها..كانت ستضيف: «في ذلك الوقت، في شوارع العاصمة، كنت أسير وأسير، وكأنّ وجهي كان سيسقط بين كفّيَّ، وكأنّي كنت أُلَمْلِمُ قِطعه، وكأنّ الألم كان يتقاطر من قسماته، وكأنّ...».

ثمّ سرحت في أحلامها: كانت مدينةً مخصّصة لذلك السير بالتحديد، فضاءٌ يتأرجح، شوارع نصف متوازنة ومتواطئة حين تتنابك الرغبة في الإسراع...أفق يحاصرك من كل صوب.

انتصبت، والماضي عند قدميها. كان ثوب السباحة المكوّن "من قطعتين" يظهر جسدها أكثر بياضاً وبالتحديد عند الوركين والبطن.

- أنا ذاهبة !

في لحظة، وذراعاها ممدودان صوب السماء، ارتدت فستاناً قطنيّاً ضيقا فاتح اللون على جسدها غير المبتلّ. ومن حقيبة القماش الحمراء الملقاة أمامها، أخرجت – وهي تتثنى ببطء – قطعة قماش كبيرة بيضاء بها ثليمات حريرية أغمق لوناً. بسطت اللّحاف، وكأنّه كان سيفلت منها، وكان يمكن أن نتخيّل جريها وراء ذلك القماش الناصع البياض عبر الشاطئ الفسيح.

تلفّعت بالكامل بالقماش الذي أبدى مقاومة في البداية ثمّ أصدر صريراً خفيّا حين تجعّد: لاحظ الرجل، الذي ظل ملتزما الصمت، ذلك الحفيف على الرغم من هدير البحر المستشري (لقد نشطت حاسة السمع لديه بعد كل تلك السنين التي أمضاها في السجن).

صارطيف المرأة حينئذ يُظهر شكلاً متوازي الأضلاع ومائجا؛ بقيت واقفة تجاهه، جيدها ورأسها مكشوفان بالكامل، إلاّ أنّ الريح المتسلّل تحت إبطيها قد جعل منها مظلة غريبة متأرجحة بين الأرض والسماء. وللمرّة الأولى ابتسمت له على الرغم من كل ذلك البياض.

أخرجت، من الحقيبة مجدّداً، ما يشبه منديلا نصفه مغطّى بالدّنتيلا البيضاء، طوته على شكل مثلّث. وضعته على قصبة أنفها، وربطته حول قفاها ثمّ أسدلت أعلى اللّحاف الحريري على شعرها القصير جدّاً. ومن فوق قناع الدّنتيلا، بدت عيناها ذواتا اللون البنّي الفاتح أكثر استطالة، وكانت تبتسمان مجدّداً.

- إلى اللقاء !

بقيت الكلمات عالقة. أمّا الظّل الأبيض، الملتوي، فقد ابتعد.

التفت الرجل ليتبعها لحظة، ثمّ راح يحدّق في البحر مجدّداً. رماديّ وأخضر: ما عاد من أثر للّون الأزرق مع بداية هذا المغيب من دون شمس.

في اليوم الموالي، بقي الطقس على حاله. تراجعت حدّة القيظ مع نهاية العصر: ثمرة يانعة للغاية آيلة للسقوط ببطء. على بعد كيلومترات من ذلك المكان، كانت المدن تعجّ في الغبار عجّاً.

عاد الرجل إلى المكان ذاته. لا يمكن أن نقول أنّه كان ينتظر. ننتظر حينما لا نملك الوقت الكافي لأنفسنا. منذ أن أقدم على ذلك الفعل مع حلول الغلس: ثنيُ قضيبين من الحديد الصدئ بعناية، منذ أن جرح خاصرته حتى أدميت حين انزلق، مثل يُشروع طويل وضخم، عبر الكوة الضيقة، منذئذ كان يملك الوقت الكافي حقّاً. كان جرحه قد إلتأم بفعل الماء المالح؛ صار خطّاً مائلا إلى السمرة يتخلّل الجانب الأيمن من ظهره.

ألقت بنظرها على هذا الخط غير المنتظم حين تكلّمت:

- يغمرك الآخرون، شيئاً فشيئاً..بفيض خفيّ. أمّا أنا أنا، فقد راحوا يغمرونني من جهة العينين!... طوال هذه الأشهر الأخيرة كلّها، وفي هذا البيت الحاشد بالخالات العجائز والقريبات، قلت في نفسي: «أن أستمع للآخرين، لا غير ! هذا يكفيني !».

راحت تفكّر. كان هناك طائرا نورس أو ثلاثة تحوم دانياً. تعالى صياح من بعيد، لعلّه أن يكون صياح طائر.

- أن تستمع للآخر !...أن تستمع إليه ببساطة وأنت تنظر إليه ! (توقفت، كما بين مقطعين شعريين) أن تحب الآخر ــ أردفت بصوت خفيض، أخفض بقليل من ذي قبل ــ أن تحبّه وأنت تتأمّله؛ فيتبدّد الهيجان

الـذي فيـك، والعنـف الموجـود فيـك، والصـيحات الـتي لم تطلقهـا قـط !
...(ابتعد النورسان، وغزا البحر الصمت المخيّم). يصلك صوت الآخر، ذلك المتألّم، أو الذي تألمّ..والذي يتحرّر، وها أنت ذا تبكي من أجله، من أجلها، ولن يسعك إلاّ أن تبكي من أجله، من أجلها !

بـدأت يـدها، بعـد فـترة طويلـة، تحفـر في الرمـل، باحثـة عـن بعـض الحصى. كان اللحاف الذي كانت تتلفّع به عند مجيئها، والذي ستتلفّع به حين ذهابها، بعد ساعة أو ساعتين، كـان هـذه المـرة ملقًى على الأرض كجلد ميّتٍ.

- أحيانـا، أقـول في نفسـي: لا أدري أيـن هـي ملامحـي، كيـف هـو شكلي..ما الجدوى من المرايا؟

شـهدت تلـك اللحظـة بالـذات ميـلاد أوّل مداعبـة لهمـا. تـذكّر الرجـل، لاحقـاً، تلـك المـدة حـين تكـوّر مجـدّداً في جحـره المظلـم: رفعـت ذراعهـا حينئذٍ، ألقت نظرة فاحصة على أصابعها وهـي تباعد بينهـا، وتفصلها في الفضاء، وبدت في هيئة صبيانية، بفعل هـذا التركيـز تحديداً... ولم تمدّ يـدها إلى سـاق الرجـل إلاّ بعـد مضـيّ مـدة طويلـة؛ لمسـت ركبتـه، وراحـت تتفقّد مفصلها وكأنّها تفحصها، لامست أصابعها بعد ذلك باطن ساقه من أعلى إلى أسفل إلى غاية القدم، لتعاود الصعود. كانت تداعبه بدقّة.

- عضلاتك صلبة. لاحظت، ثمّ أضافت: - لا أعلم سنّك...لا تخبرني به، فالأمر لا يهمني!

كان قد وضع بدوره يده على أصابعها الرقيقة حين عاودت الصعود إلى ركبتـه، ثـمّ إلى فخـذه. بقيـا علـى تلـك الحالـة متشـابكيْ الأصـابع واسـتغرقا وقتـا في التحـديق في بعضـهما الـبعض. لمـس بعـد ذلـك نهـدها الأيمن، دون أن يكشف عنه. لكنها قطعت بداية اضطرابها.

- أنا ذاهبة !

انتصبت. أحدث القماش صريرا، على الرغم من هدير البحر. راح متوازي الأضلاع الأبيض يتأرجح بالتردّد ذاته.

اختفت المرأة، وبقي الرجل جالساً إلى أن أسدل الليل، الصافي رغم ذلك، ستاره على امتداد البحر الواسع بدءاً من أركانه، هناك، على جانبي الأفق.

في اليوم الثالث، بينما كانت تتكلّم همساً (سنوات الزواج البرجوازي تلك، ذلك الانفصال العنيف، ذلك الاندفاع الطويل المؤلم، والذي استغرقت شهوراً لترويضه، نحو الرجل الثاني، ذاك المراهق الشاحب والهزيل...) هل كان يستمع إليها، لا شيء مؤكّد، هل كان يفهمها؟ حينها فقط فكّرت أنه، في نهاية المطاف، قد يكون يتحدث لغة أجنبية، ولكنّها كانت تفضي بما يجول في خاطرها أخيراً، كانت تهمس، كانت الكلمات تتدفق، كان البحر يواصل ترنيمته الشبيهة بترنيمة الطلّق، وما عادت النوارس تأتي، كما اختفى صياح الطيور. في البعيد، على مسافة كيلومترات، صارت المدن الرازحة تحت الغبار مدناً للأحلام، توارت لا ريب تحت وقع الجولات الهدامة للقرون الماضية، كانت تتكلم، انفتحت أخيراً، ويدها لا تزال على ركبة الرجل اليمنى.

لاحظت: «فيما بعد، حين سيُسحب كل شيء، كل هذا الوحل، وهذه المخلّفات..فيما بعد، سأمرّر شفتيّ الجافتين على هذا الندب في ظهرك، سآخذ كامل وقتي، سأرسم بلساني أثر جرحك...لقد "حطّموا وجهي"، ولكن لم يشوّهوه، عندي شفتان من جديد، ولسان...لاحقاً» – وأخيراً وصل الماضي في كلمات كأنها الحجارة، وصل إلى مساره الكئيب، شيئاً فشيئاً. اهتزّت هذه اللحظة، المفعمة بالمشاعر، بين الشخصين لوَقع موسيقى مكتومة (بالكاد، كان البحر يزمجر في البعيد).

في تلك اللحظة بالذات، ظهر خلفهما جنديّ أوّل، ببزّة بنيّة فاتحة حاملاً سلاحه.

صوت صافرة..توقفت المرأة عن الهمس، دون أن تلتفت.

التحق بالجندي الأول جنديان آخران يحملان بندقيتيهما. لم يصدرا هما بدورهما، أيّ حركة.

في ذلك اليوم، لم يكن الجو، كما في السابق، مغمورا بضباب متكتّم. كان قرص الشمس المنتشر والآيل للأفول قد غلّف الأفق بأكمله باللّون الوردي. لاح الأمل أخيراً بقدوم صيف جميل.

بادرت المرأة بالكلام:

- يمكننا أن نقف ونمشي. كانت ستضيف: «كما يفعل العشاق».

لم يسعها الوقت لذلك، فالحيوان الضخم، كلب راع ألماني، كان قد وصل قادما بسرعة صوبهما، ويبدو أنه كان يقفز من السعادة.

نهض الرجل، والتفت نحو المرأة. قدّم يديه، مضمومتين معاً، كما في الماضي حين كان معصماه مكبّلين. رفع بأصابعه اللّحاف الأبيض الملقى على الأرض، ثمّ أفلته..كان سيقول شيئاً: عن اللّحاف، عن المرأة التي كانت تنتظر.

التحق بالحيوان الذي راح يحوم حولهما، وهو يهتز نشوةً، في دوائرقد تنبئ عن شراسة، أو ربّماعن عشق.

بعد مضي بعض الوقت، توارت ظلال الجنود المحيطة بالرجل المكشوف الصدر. ما عادت الأنظار ترى الكلب الراعي الألماني: لا ريب أنّه كان يتقدّمهم. في هذا المكان، بدت الربوة شبيهة بكثيب رملٍ آيل للانهيار.

قبالة البحر، دون حراك، ويداها غارقتان في اللحاف الأبيض الذي راحت تجعّده بتشنّج، كانت المرأة تبكي، كانت المرأة تبكي.

*الجزائر، 20 جويلية 1978*

# أمـــس

# لا وجود للمنفى

في صباح ذلك اليوم، كنت فرغتُ من أشغال البيت في وقت مبكّر عن المعتاد، حوالي التاسعة. كانت أمّي قد ارتدت حجابها وحملت قفتها؛ وهي على عتبة الباب كانت تردّد كما عهدت أن تفعل يومياً منذ ثلاث سنوات:

- استلزم الأمر أن نطرد من وطننا حتى أضطر للخروج إلى التسوّق كالرّجال.

- لرجالنا اليوم أمور أخرى يتولّونها! أجبتها كما عهدت أن أفعل يوميّاً منذ ثلاث سنوات.

- ربّي يسترنا !

رافقتُ أمّي إلى غاية الدرج، ورحت أنظر إليها وهي تنزل بخطى متثاقلة بسبب ساقيها:

- ربّي يسترنا ! كرّرت في نفسي عند دخولي المنزل.

بدأ الصياح حوالي العاشرة، أي بعد مرور ساعة من الزمن تقريباً. كان يتعالى من الشقة المجاورة، وسرعان ما صار عويلاً. ومن الطريقة التي تلقت به النسوة الحدث عرفناه ثلاثتنا، أنا وأختاي **عائشة** و**أنيسة**، : إنّه الموت.

أسرعت **عائشة**، أختي البكر، إلى الباب، وفتحته حتى تسمع بشكل أفضل، ثمّ همست:

- اللّه يبعد علينا البلاء ! لقد زار الموت عائلة **سْماعين**.

في تلك اللحظة، دخلت أمّي. وضعت القفة على الأرض، توقّفت، كان وجهها متكدّرا وراحت تضرب على صدرها بتشنّج. كانت تطلق صرخات قصيرة ومخنوقة كما تفعل حين يكاد يغمى عليها.

كانت **أنيسة** تتمالك أعصابها دائماً، على الرغم من كونها أصغرنا سنّاً. سارعت لإغلاق الباب، وضعت عن أمي حجابها، وأمسكتها من كتفيها ثمّ أجلستها على إحدى الأفرشة، وقالت لها:

- لا تنفعلي بهذه الطريقة بسبب مصائب الآخرين ! لا تنسيْ أنّك عليلة القلب ! ربي يحفظنا دائما!

وهي تردّد هذه العبارةمرات ومرات، ذهبت لتجلب الماء حتى ترشّ به وجه أمي التي باتت تئنّ الآن وهي مستلقية بكامل طولها على الفراش. غسلت **أنيسة** بعد ذلك وجهها بالكامل، ثمّ أخرجت من الخزانة قارورة ماء كولونيا، ووضعتها تحت أرنبتيْ أنف أمي بعد فتحها.

- لا ! قالت أمّي. أحضري لي ليمونا.

ثمّ عادت تئنّ من جديد.

واصلت **أنيسة** انهماكها في الأشغال. أمّا أنا فكنت أنظر إليها. فلطالما كانت ردود فعلي بطيئة. رحت أنصت إلى البكاء المتواصل المنبعث من الخارج، وما كان سينقطع لا ريب، على الأقل حتى حلول الليل. كان هناك خمس أو ستّ نسوة عند عائلة **سماعين**، كنّ جميعهنّ ينتحبن بصوت واحد، وكلّ واحدة منهنّ قد استقرت للأبد، على ما يبدو، في خضمّ انفجار ألمهنّ المتداخل. بعد ذلك، سيكون عليهنّ، بطبيعة الحال، تحضير الطعام، وتولي أمر الفقراء، وغسل الميّت...إذ ثمة أمور عدّة يجب القيام بها، يوم الجنازة.

حتّى تلك اللحظة، كانت أصوات المنتحبات، المتماثلة كلّها، دون أن نستطيع تمييز صوت واحد من بينها بنبرته الأكثر حرقة، تشكّل نشيداً طويلاً واحداً، لاهثاً، وعلمت حينها بأنّه سيدوم طيلة اليوم مثل ضباب في يوم شتوي.

- من الميّت عندهم؟ سألت أمّي التي كانت قد هدأت تقريباً.

- ابنهم الشاب. أجابت وهي ترشف الليمون رشفاً. دهسته سيارة أمام الباب بالضبط. كنت أهمّ بالدخول حين أبصرته عيناي وهو يتلوّى للمرة الأخيرة مثل دودة. أقلّته سيارة إسعاف إلى المستشفى، إلاّ أنّه كان قد مات.

ثم عادت للتأوّه مجدّداً.

- "مْسَاكن" ! كانت تقول. لقد رأوه يخرج من المنزل نابضاً بالحياة وها هو سيعاد إليهم في غطاءٍ مخضّب بالدّماء !

نهضت قليلا، وكرّرت: «كان نابضاً بالحياة !». ثمّ سقطت مجدّداً فوق الفراش وما عادت تردّد سوى العبارات الشعائرية لإبعاد الشرور. بيد أنّ الصوت الخفيض الذي كانت تتضرّع به عادة إلى الله كان هذه المرّة ينمّ عن نبرة قاسية نوعاً ما، ومحتدّة.

- إنّه يوم لا يبشّر بالخير ! قلت، وأنا واقفة أمام أمي، دون حراك. لقد أحسست بذلك منذ الصباح، ولكنّي لم أدرك أنها كانت رائحة الموت.

- زيدي: الله يسترنا ! قالت أمي بحميّة. ثمّ رفعت ناظريها نحوي. كنّا لوحدنا في الغرفة، كانت **أنيسة وعائشة** قد عادتا إلى المطبخ.

- ما ذا بك إذان؟ قالت أمّي. تبدين شاحبة. هل يؤلمك قلبك، أنت أيضاً؟

- الله يسترنا ! أجبت وأنا أغادر الغرفة.

عند الزوال، كان **عمر** هو من عاد أوّلاً إلى المنزل. كان البكاء لا يزال متواصلاً. كنت قد سهرت على تحضير الطعام وأنا أستمع إلى المرثاة وترنيماتها. كنت أعوّد نفسي عليها. كنت أظنّ أنّ **عمر** سيسأل عن سبب النحيب. ولكن لا. ربّما أخبروه في الشارع.

جرّ **عائشة** إلى إحدى الغرف. سمعتهما بعدئذٍ يتهامسان. هكذا، حين يطرأ أي حدث مهمّ كان **عمر** يتحدّث إلى **عائشة** أوّلاً، لأنّها كانت البكر، والأكثر رصانة. كان أبي قد فعل، آنفاً، الأمر ذاته مع **عمر**، خارج المنزل، ذلك أنّ **عمر** كان الابن الوحيد.

ثمّة أمر جديد قد طرأ إذاً؛ وما كان ذلك يمتّ بأيّ صلة إلى الموت الذي زار عائلة **سماعين**. لم يَنتبْني الفضول البتّة. اليوم يوم الموت، أمّا الباقي فلا يهمّ.

- أليس كذلك؟ قلت لـ **أنيسة** التي انتفضت من الدهشة.

- ما الأمر؟

- لا شيء. أجبت دون أن أسهب في الموضوع لأنّي كنت أعرف ردودها المستغرِبَة دوماً، حين كنت أفكر بصوت مرتفع هذا الصباح كذلك...

ولكن لِمَ ينتابني فجأة هذا الشعور الصفيق بأن أتأمّل نفسي في المرآة، أن أواجه صورتي مطوّلاً، تاركة شعري ينساب حتى خصري كي تتأمله **أنيسة** مليّاً، وأن أقول؟

- أُنظري. وأنا في سنّ العشرين، بعد أن كنت تزوّجت، بعد أن فقدت ابنيَّ الواحد تلو الآخر، بعد أن تطلقّت، بعد هذا المنفى، وبعد هذه الحرب، ها أنا ذا أعجب بنفسي، وأبتسم لها مثل شابة فتيّة، مِثلكِ...

- مثلي ! قالت **أنيسة**؛ وراحت تهزّ كتفيها.

عاد أبي للمنزل متأخراً شيئا ما، لأنّه كان يوم جمعة وكان عليه أداء صلاة "الظهر" في الجامع. وسرعان ما سأل عن سبب هذا الحداد.

- زار الموت عائلة **سماعين**، أجبت مُهرولةً نحوه لأقبّل يده. لقد اختطف ابنهم الشاب.

- مْسَاكن ! قال بعد صمت.

ساعدته ليجلس في مكانه المعتاد، على الفراش نفسه. بعدئذ، ومع انهماكي في تقديم الطعام له وحرصي ألاّ يتأخّر عنه أي شيء، نسيت الجيران لفترة. كنت أحبّ أن أخدم أبي؛ كان ذلك، على ما أظنّ، العمل المنزلي الوحيد الذي يروق لي. خاصة الآن. كان أبي قد شاخ كثيراً منذ

أن غادرنا البلاد. كان كثير التفكير في الغائبين، مع أنّه ما كان يتحدّث عن ذلك أبداً، اللهمّ إلاّ إذا وصلت رسالة من الجزائر، فيطلب حينها من عمر أن يقرأها له.

سمعت أمي تهمس أثناء الطعام:

- لن يرغبوا أبداً في تناول الطعام اليوم !

قال أحدهم:

- بقي الجثمان في المستشفى.

لم ينبس أبي ببنت شفة. نادراً ما كان يتكلّم أثناء الأكل.

- لم أعد أشعر بالجوع. قلت معتذرة، بعد أن قمت من على مائدة الطعام.

كان النحيب، من الخارج، يبدو منكتماً أكثر، مع ذلك كنت أميّز إيقاعه. إيقاعه الرّتيب. إنّها اللحظة، قلت في نفسي، التي يصبح فيها الألم إدماناً وتلذّذاً وحنيناً. إنّها اللحظة التي ننتحب فيها بنوعٍ من اللّذة تقريبا، لأنّ حاضر الدموع هذا إنّما هو حاضر بلا نهاية. إنّها اللحظة التي كان فيها جثمانا ابنيّ يبردان بسرعة، بسرعة كبيرة، والتي كنت فيها أعلم...

عندما فرغ الجميع من الأكل، جاءت عائشة إلى المطبخ حيث كنت لوحدي. ذهبت قبل ذلك لإغلاق النافذة المطلّة على الشرفات المجاورة، من حيث كان النحيب يصل مسامعي. أمّا أنا، فكنت لا أزال أسمعه. والغريب أن ذلك هو ما كان يجعلني هادئة جداً اليوم، وكئيبة نوعاً ما.

بادرتْ بالكلام:

- ستأتي نسوة عصر اليوم ليرينك ويخطبنك. يقول أبي أنّ الخاطب مناسب من جميع النواحي.

أدرت ظهري لها، دون أن أجيب، وتوجهت صوب النافذة.

- ما بالك؟ قالت بحميّة

- أريد أن أتنفس، أجبتها وأنا أفتح النافذة على مصراعيها، حتى يدخل النشيد. لقد باتت، منذ مدّة، رائحة الموت في ذهني"نشيداً".

التزمت عائشة الصمت للحظة، ثمّ قالت أخيراً:

- عندما يخرج أبي، ستتولّين الاعتناء بمظهرك. هؤلاء النسوة يعلمن جيّداً أنّنا لاجئون من بين لاجئين آخرين كثر، وأنّهن لن يجدنك متزيّنةً كالملكة. مع ذلك، ينبغي أن يكون مظهرك جميلاً.

- لقد توقفن عن النحيب، لاحظتُ، أو لعلّهن تعبن، قلت وأنا أفكّر في ذلك التعب الغريب الذي ينتابنا عندما يبلغ الألم مداه.

- فلتهتمّي بالنسوة اللائي سيأتين ! ردّت عائشة بصوت أكثر ارتفاعاً نوعاً ما.

كان أبي قد خرج، وعمر أيضاً حين وصلت حفصة. هي جزائرية مثلنا، تعرّفنا عليها هنا، هي شابة في العشرين من العمر وكانت متعلّمة. هي معلّمةً، لكنها لم تكن تعمل إلاّ منذ مجيئها مع والدتها إلى المنفى، هما أيضاً. كانت أمها في السابق تقول: "المرأة الشريفة لا تعمل خارج بيتها". ولا زالت تكرّر ذاك، لكن بحسرة المغلوب على أمره. كان من الضروري كسب لقمة العيش، وبيتهما، الآن، بات خالياً من الرّجال.

وجدت حفصة كلاً من أمي وأنيسة منهمكتين في تحضير الحلويات وكأنها كانت أمراً ضرورياً بالنسبة للاجئين مثلنا. إلاّ أنّ آداب السلوك، عند أمّي، كان أمراً فطرياً؛ إرثٌ من حياتها السابقة لن تقوى على التخلي عنه بسهولة.

سألتُ:

- هؤلاء النسوة اللائي تنتظرن مجيئهن، ، من يكنّ؟

ردّت عائشة صارخة:

- لاجئات مثلنا. لعلّك تتخيّلين أنّنا سنزوّجك من أجانب؟

ثمّ أضافت بعزم:

- فلتتذكّري، يوم العودة إلى وطننا، سنرجع جميعنا، جميعنا، دون استثناء.

- يوم العودة، هتفت فجأةً حفصة الواقفة وسط الغرفة، وقد اتّسعت عيناها الحالمتان. يوم العودة إلى بلادنا ! كرّرت. لكم أودّ أن أعود إليها مشياً على الأقدام، كيما أطأ ثرى الجزائر بشكل أفضل، كيما أرى بشكل أفضل جميع نسائنا، الواحدة تلو الأخرى، جميع الأرامل، وجميع اليتامى، وجميع الرجال أخيراً، منهكين كلّهم، وربّما محزونين، ولكن أحراراً – أحراراً ! وسآخذ القليل من التربة بين يديّ، آه ! حفنة صغيرة من التراب، ولهؤلاء جميعاً سأقول: «انظروا، يا إخواني، انظروا إلى نقاط الدّم في حبات التراب هذه، في هذه اليد، لكم نزفت الجزائر من سائر جسدها، من سائر جسدها الشاسع، لكم دفعت الجزائر من كامل ترابها في سبيل حريتنا نحن، وفي سبيل هذه العودة. إلا أنّها، من خلف عذاباتها، تتحدّث الآن حديث العفو. فلتنظروا، يا إخواني...»

- يوم العودة، كرّرت أمّي بهدوء في غمرة الصمت الذي تلى... إن شاء الله !

حينها، عاد النحيب من جديد لينبعث من النافذة المفتوحة. وكأنّه أوركسترا بدأت تعزف فجأة مقطعاً موسيقياً. ثمّ قالت حفصة مذكّرة، بنبرة مغايرة:

- جئت من أجل الدرس.

اقتادتها عائشة إلى الغرفة المجاورة.

لم أعرف ماذا أفعل أثناء خلوتهما. كانت نوافذ المطبخ والغرفتين الأخريين تطلّان على الشرفات. كنت أنتقل من نافذة إلى أخرى، أفتحهما، وأعيد غلقهما، ثم أعيد فتحهما من جديد. فعلت ذلك كله، دون استعجال، وكأنّني لم أكن أسمع النشيد.

فاجأت أنيسة لعبتي تلك.

- من الواضح أنّهم ليسوا جزائريين، قالت. لم يعتادوا قطّ على الحداد.

- عندنا، في الجبال، ردّت أمّي، لا يجد الموتى أحداً يبكيهم قبل أن تبرد جثامينهم.

- النحيب لا طائل منه. قالت أنيسة برباطة جأش. سواءً أكان موتنا على الفراش أو في الفلاة في سبيل الوطن.

- وما أدراك أنتِ، أجبتها فجأة، لا زلت صغيرة جداً لتدركي ذلك.

- سيدفنونه قريبا، همست أمي.

ثمّ رفعت رأسها، ونظرت إليّ. كنت قد أغلقت النافذة مجدداً، وما عدت أسمع شيئاً.

- سيدفن اليوم، كرّرت أمي بصوت أعلى قليلاً. هذه عادتنا.

- ما ينبغي أن نفعل، أجبت. إنها عادة مقيتة أن نُسلم للتراب جسداً لا يزال يشعّ جمالاً ! عادة مقيتة بحقّ..يبدو لي بأنهم سيدفنونه وهو لا يزال يرتعش، لا يزال (لكنّي ما عدت أتحكّم بصوتي).

- لا تفكري في ابنيْك ! قالت أمي. فالتراب الذي وُورِيا به إنّما هو غطاء من ذهب لهما. يا ابنتي المسكينة، لا تفكري في ابنيك ! كرّرت أمّي

- لا أفكر في شيء، قلت. لا، حقاً، لا أريد التفكير في شيء. في شيء !

كانت الساعة تشير إلى الرابعة عصراً حين دخلن. سمعتهنّ، من المطبخ حيث كنت أختبئ، يسألن مندهشات بعد إلقاء عبارات التحية المعهودة:

- ما هذا النحيب؟

- ربّي يُبَعِّدْ عُلينا لِبْلاء ! ربّي يسترنا !

- جلدي اقشعرّ، قالت الثالثة. كنت قد نسيت الموت والدموع هذه الأيام. نسيتها بالرغم من أنّ القلب لا يزال محزوناً.

- مكتوب ربّي ! أردفت الثانية

راحت أمي تشرح سبب هذا الحداد بصوت هادئ، وهي تدعوهن للدخول إلى الغرفة الوحيدة التي تمكّنا من تأثيثها بشكل لائق. أما **أنيسة**، التي كانت بالقرب مني، فراحت تبدي أولى الملاحظات عن شكل القادمات. كانت تطرح الأسئلة على **عائشة** التي استقبلتهنّ مع أمي. أما أنا، فكنت قد فتحت النافذة من جديد ورحت أنظر إليهما وهما تتبادلان انطباعاتهما.

- بم تحلمين ؟ قالت **أنيسة** وعينها لا تفارقني.

- لا شيء، أجبت بفتور؛ ثمّ أضفت، بعد لحظة صمت: كنت أفكر في وجوه القَدر المتعدّدة. كنت أفكر في مشيئة اللّه. خلف هذا الجدار، ثمة ميّت ونساء يعصرهن الألم، وعندنا، هنا، نساء أخريات يتحدّثن عن الزواج. كنت أفكّر في هذا التباين.

- توقّفي عن التفكير، قطعت **عائشة** كلامي بحمية، ثمّ التفتت نحو **حفصة** التي كانت تهمّ بالدخول:

- يفترض بك أن تعطي الدروس لها هي، وليس لي. إنّها تقضي وقتها في التفكير. وكأنّها قرأت الكمّ ذاته من الكتب التي قرأتها أنت.

- ولم لا تودّين ذلك؟ سألت **حفصة**.

- لست بحاجة لتعلّم الفرنسيّة، أجبتها. فيم سينفعني ذلك؟ لقد درَّسَنا والدنا جميعنا بلغتنا. فقد دأب على القول: «وحده هذا التعليم ضروري».

- من المفيد معرفة لغات أخرى غير لغتنا. قالت **حفصة** بتمهُّل. إنّه بمثابة معرفة أناس آخرين، وبلدان أخرى.

لم أجبها، لعلها كانت محقّة. لعله من الواجب التعلّم بدلاً من تضييع الوقت وترك الذهن شارداً في أروقة الماضي الخاوية على عروشها، كما أفعل أنا. لعلّه من الواجب متابعة الدروس وتعلّم الفرنسية أو أيّ شيء آخر. لكنّي لم أشعر يوماً بالحاجة إلى خَضْخضة جسدي، أو ذهني ليستفيقا. أمّا **عائشة**، فقد كانت مختلفة. كانت مثل الرجل: صلبة وتحبّ الكدّ. كانت تبلغ الثلاثين من العمر. من ثلاث سنوات، لم تر زوجها الذي لازال مسْجونا في بربروس منذ الأيّام الأولى للثورة، . مع ذلك، كانت تتعلّم ولم تكتفِ بانجاز الأشغال المنزلية. حاليا، وبعد مضي أشهر قلائل من تلقيها الدروس على يد **حفصة**، ما عاد **عمر** يقرأ لها الرسائل النادرة التي قد تصلها من زوجها. باتت تستطيع فكّ شفرتها لوحدها. وكنت أغبطها على ذلك أحيانا.

قالت **عائشة**:

- **حفصة**، حان الوقت لتذهب أختي لتسلّم على النسوة. أُدخلي معها.

لكن **حفصة** لم ترغب في ذلك. فراحت **عائشة** تصرّ عليها. أمّا أنا فكنت أشاهدهما وهما تؤدّيان لعبة المجاملة التافهة تلك.

- أتعلمن إن رُفع الميّت؟ سألتُ.

- ماذا؟ ألم تسمعي الطُّلْبَة منذ قليل؟ أجابت **أنيسة**

- لهذا توقّف النحيب لفترة إذن، أردفتُ. غريب كيف أنّ النساء يكففن عن البكاء بمجرّد ترتيل بعض الآيات القرآنية. مع أنّها أصعب اللحظات، أعرف ذلك. بما أنّ الجثمان لا يزال هنا، أمامنا، يبدو الابن وكأنّه لم يمت حقّاً، وكأنّه لا يمكن أن يكون قد مات، أليس كذلك؟ ثمّ تأتي اللحظة التي يقف فيها الرجال، وذلك ليرفعوه على أكتافهم ملفوفاً في غطاء. هكذا، يرحل، سريعاً، كاليوم الذي جاء

فيه إلى الدنيا..بالنسبة إليّ، ربّي يسْمحْ لي، مهماً رتّلوا من آي القرآن، فإنّ البيت يبقى فارغاً، بعد مغادرتهم، فارغاً تماماً...

كانت **حفصة** تستمع ورأسها مائل نحو النافذة، التفتت إليّ وهي ترتجف. بدت لي حينها أصغر سنّاً من **أنيسة**.

- يا ربيّ، قالت بصوت متأثّر. بلغت لتوّي العشرين، ومع ذلك لم أصطدم بالموت أبداً، أبداً في حياتي كلّها !

- ألم تفقدي أحداً من ذويك إبّان هذه الحرب؟ سألتها **أنيسة**.

- بلى، ردّت. إلاّ أنّ الأخبار تأتي دوماً عبر الرسائل. وأخبار الموت عبر الرسائل، كما تعلمن، يصعب عليّ تصديقها. لي ابن عمّ كان من بين أوائل الذين أعدموا بالمقصلة في بربروس. لم أبكه يوماً لأنّي لا أصدّق أنه قد مات. مع أنّه، أُقْسِمُ، كان مثل أخي. ولكن لا يمكن أن أصدّق أنّه مات، أفهمتنّ؟ كانت تتحدّث بصوت غشيته الدموع.

- لا تحسبنّ الذي يموت في سبيل القضيّة ميّتاً فعلاً! أجابت **أنيسة** بهبّة فخر.

- لنفكّر في الحاضر ! لنفكر في اليوم ! قالت **عائشة** بنبرة قاطعة. الباقي في يد ربّي !

كنّ ثلاث نسوة: عجوز يفترض أنّها أمّ الخاطب، والتي سارعت، عند دخولي، إلى ارتداء نظّارتها، وامرأتان أخريان جلستا الواحدة بجنب الأخرى وكانتا تشبهان بعضهما البعض. جلست **حفصة**، التي دخلت خلفي، بجانبي. أمّا أنا فقد كنت أخفض بصري.

كنت أعرف دوري لأنّي أدّيته من قبل: أن أبقى صامتة هكذا؛ غاضّة الطرف، وأدعهنّ يفحصنني برويّة، حتى النهاية، كان الأمر بسيطاً. كل شيء بسيط، قبلاً، بالنسبة للفتاة المقبلة على التزويج.

كانت أمّي تتحدّث. بالكاد كنت أسمعها. كنت أعرف تمام المعرفة المواضيع التي كنّ سيتطرقن إليها: كانت أمّي تتحدّث عن وضعنا المحزن كلاجئين، بعدها كنّ سيتبادلن الآراء لمعرفة متى تحين النهاية: «...رمضان آخر بعيداً عن الديار...لعلّه سيكون الأخير...لعلّه كذلك، إن شاء الله ! صحيح أنّنا كنّا نقول الأمر ذاته في العام الماضي، والذي قبله...لا داعي للمزيد من التذمّر والشكوى..فالنصر أكيد لا محالة...جميع رجالنا يقولون ذلك. نحن، نحن نعلم أنّ يوم العودة آتٍ...علينا أن نفكر في من ظلّ هناك. علينا أن نفكر في الشعب الذي يعاني...الشعب الجزائري شعب يُحِبُّو ربّي..ومناضلونا أشدّاء كالحديد...». ثمّ سيعدن إلى سرد عملية الفرار، والسبل المختلفة التي سلكها كل واحد لمغادرة أرضه حيث النيران مشتعلة..بعد ذلك كنّ سيذكرن كآبة المنفى، والقلب الذي يحنّ للبلاد..والخوف من الموت بعيداً عن مسقط الرأس..ثمّ..ولكن سبحان الله العظيم !

استغرق الأمر وقتاً أطول هذه المرة، حوالي السّاعة أو أكثر. إلى أن جاءت القهوة. بالكاد كنت أسمع حينها. كنت أفكّر، أنا كذلك، في هذا المنفى وفي أيّامه الحالكة، ولكن بطريقتي الخاصة.

كنت أفكّر في أنّ الأمور كلها قد تغيّرت، وأنّنا كنّا، يوم خطبتي الأولى، في غرفة الاستقبال المديدة والنيّرة بمنزلنا، الموجود بأعالي الجزائر العاصمة، أنّنا كنّا حينها ننعم بالرخاء، بالرخاء والسلم، وأنّ أبي كان فرحاً، وكان يشكر الله على بيته العامر..ولم أكن كما أصبحت عليه اليوم، كئيبة الروح ومحزونة، وفكرة الموت هذه التي تختلج داخلي بوهن منذ الصباح...أجل، كنت أفكّر في أنّ كلّ شيء تغيّر، وأنّ كل شيء، مع ذلك، بقي على حاله، بطريقة ما. ما زالوا منشغلين بأمر تزويجي. لكن لِم ؟ قلت في نفسي فجأة. لِمَ إذن؟ كرّرت، وبداخلي شيء يشبه الغضب الشديد، أو صداه. لكي تتابني هموم كتلك التي لا تتغير في زمن السلم كما في زمن الحرب؟ لكي أستيقظ

في منتصف الليل متسائلة عمّا يرقد في أعماق قلب الرجل الذي يشاركني الفراش...لكي أنجب أطفالا وأن أبكي، لأنّ الحياة لا تُقبل لوحدها على المرأة، فالموت يسير خلفها دوماً متخفّياً، حثيث الخطى، ويبتسم للأمّهات...أجل، ولِمَ إذن؟ قلت في نفسي.

كانت القهوة قد قدّمت حينها. راحت أمّي تدعوهنّ لشربها.

- لن نأخذ رشفة واحدة منها، بادرت العجوز بالكلام، قبل أن نحصل على وعد بخصوص ابنتكم.

- أجل، قالت الأخرى، أوصانا أخي بألاّ نرجع إلاّ ومعنا وعد منكم بتزويجها له.

بقيت أستمع لأمّي وهي تتفادى الإجابة، تتمنّع بشيء من النفاق، وتدعوهنّ من جديد لشرب القهوة. انضمّت عائشة إليها. كانت النسوة يُكرّرن رجاءهن...هكذا تجري الأمور.

دامت اللعبة تلك بضع دقائق إضافية، راحت أمّي تستحضر وتحتجّ بسلطة الأب:

- أنا، أمنحها لكم...أعرف أنكم أناس طيبون...لكن يوجد والدها.

- سبق وأن أعطى والدها موافقته لأخي، قالت إحدى المرأتين المتشابهتين. صارت القضية محل نقاش بيننا فحسب.

- بلى، قالت الثانية. الكلمة الآن لنا، فلنحسم القضية.

رفعت رأسي؛ كانت تلك، على ما أظن، اللحظة التي لاقت فيها عيناي نظرة حفصة. والحال هذه، كان ثمة بريق غريب، يشعّ من أعماق عينيها، بريق المصلحة لا ريب أو السخرية، لا أدري، ولكن كنت أشعر بأنّ حفصة غائبة، منتبهة وفضوليّة في آن، ولكن غائبة ! لاقت عيني هذه النظرة.

- لا أرغب في الزواج، قلت. لا أرغب في الزواج، كرّرت صارخة بالكاد.

حصل انفعال كبير في الغرفة: أمي التي وقفت متنهدة، وعائشة التي رأيتها تحمرّ خجلاً. والزائرتان اللتان التفتتا نحوي في حركة واحدة بطيئة ومصدومة:

- ولِمَ؟ قالت إحداهما.

- ابني، صاحت العجوز بنوع من التكبّر، ابني رجل علم ! سيسافر بعد بضعة أيام إلى المشرق.

- أكيد ! قالت أمي في عجالة مؤثّرة. نعلم أنّه واسع المعرفة. نعرف عنه طيبة قلبه..بكل تأكيد!

- الأمر لا يرتبط بابنك. قلت. إنّما لا أرغب في الزواج. مستقبلي يتراءى لي، أمام ناظري، أسودا. لا أعرف كيف أشرح الأمر، هذا من عند ربّي لا ريب..ولكنّ مستقبلي يتراءى لي، أمام ناظري، أسودا! كرّرْتُ باكية في حين راحت عائشة تخرجني بصمت من الغرفة.

بعد ذلك، ولكن ما الجدوى من سرد باقي القصّة، سوى أنّي كنت أحترق خجلاً من فعلي، والذي لم أفهمه. وحدها حفصة من بقيت بجانبي، بعد أن غادرت النسوة.

- صرت مخطوبةً، قالت بصوت حزين. قالت أمّك بأنها قد منحتك للزواج. هل تقبلين؟ وراحت تحدّق فيّ بعينين مترجّيتين.

- لا يهمّ ! أجبت. كنت أفكّر هكذا حقّاً في دخيلتي: لا يهمّ ! لا أدري ما الذي دهاني منذ قليل. لكن، جميعهنّ كنّ يتحدّثن عن الحاضر، وعن التغيرات التي طرأت عليه، وعن مآسيه. أنا، كنت أقول في نفسي: بماذا يمكن أن تفيدنا المعاناة بعيداً عن بلادنا إن كان عليّ أن أستمر، كما في السابق، كما في الجزائر العاصمة، في البقاء جالسة وتأدية الدور..ربّما حين تتغيّر الحياة، يفترض أن يتغيّر معها كلّ شيء،

كلّ شيء على الإطلاق ! قلت، كنت أفكّر في هذه الأمور كلّها، ولكن لا أعرف حتى إن كان ذلك أمراً سيّئاً أو جيّداً... أنتِ الذّكيّة، والعارفة، لعلّك تفهمين ذلك.

- أفهم ! قالت بتردّد وكأنّها كانت ستهُمّ بالكلام ثمّ فضّلت بعدها التزام الصمت.

- افتحي النافذة، طلبتُ منها. سينقضي المساء.

راحت لتفتح النافذة ثمّ رجعت إلى جنب سريري حيث بقيتُ مستلقية أبكي، دون سبب، من الخجل والتعب في الوقت نفسه. أثناء الصمت الذي تلا، رحت، شاردة، أتأمّل الليل وهو يغشى الغرفة رويداً رويداً. كانت الأصوات في المطبخ حيث أختاي تبدو وكأنّها تنبعث من مكان آخر.

ثمّ راحت حفصة تتكلّم:

- كان والدكُ قد ذكر المنفى مرّة، منفانا الحالي، وكان يقول! أتذكر ذلك جيّداً، لأنّه لا أحد يتحدّث كوالدك، كان يقول: «لا وجود للمنفى لرجل يحبه الله. لا وجود للمنفى لمن يسير في طريق الله. ثمّة ابتلاءات فحسب !»

وراحت تستمر في الكلام، لكنّي نسيت الباقي. الذي لم أنسه هو أنّها كانت تكرّر في الغالب كلمة "نحن" بنبرة متّقدة. كانت تلفظ هذه الكلمة بحماسة متميّزة، لحدّ أني رحت أتساءل، في النهاية، إن كانت الكلمة تعنينا نحن الاثنتين لوحدنا، لا، بالأحرى، النساء الأخريات، جميع النساء في بلادنا.

في الحقيقة، حتى لو كنت أعرف ذلك، كيف كنت سأجيب؟ كانت حفصة أعلم منّي. وهذا ما أردت إخبارها به حين سكتت، ربّما في انتظار ما سأقوله.

لكن صوتاً آخرهو الذي أجاب، صوت إمرأة، منبعث من النافذة المفتوحة، صاعد بوضوح نحو السماء وكأنّه سهم، صوت كان ينمو،

ويحلّق، يحلّق تحليقا رحبا كتحليق الطائر بعد العاصفة، يتهاوى، من جديد، بتتابع فجائي.

- سكتت باقي النسوة، قلتُ. وحدها الأمّ بقيت لتبكي. ... هكذا هي الحياة، أضفت بعد لحظة. ثمة أولئك الذين ينسون أو ببساطة ينامون. وثمة الذين ما زالوا يصطدمون بأسوار الماضي. ربي يلطف بهم !

- أولئك هم المنفيوّن حقاً، قالت حفصة.

*تونس، مارس 1959 .*

# الأموات يتكلّمون

**إلى اللاّ فاطمة صحراوي، جدّتي (الأمّي)، تابينا لها.**

## I

خلال جنازة الجدّة، كانت المحادثات تجري على قدم وساق. كانت **عائشة** تنظرغائبة. نظنّها غائبة، بسبب وجهها الشاحب وهذه العين الباردة التي تبدو لنا بلا معنى. كتفان مضغوطان، جسد ذابل يسبح في قميص واسع فاتح اللون، القميص نفسه الذي ترتديه منذ سنوات، والذي ليس له لون محدّد. اجتاحت الزائرات – حشد يدفعه بالفضول، مغطاة الرّأس بخُمر بيضاء منزلقة على شعورهن الطويلة السوداء إلى غاية الجيد – اجتاحت المسكن الواسع للغاية. كانت **عائشة** جالسة، تنظر.

**عائشة**، اسم زهرة متفتحة، أصبحت انكسارا وذبولا منذ عهد بعيد. خلال هذه الحرب، لم نَعُدّ الأيام ولا الشهور، ويبدو أنّ الزمن السابق على الحرب قد غمره النسيان، وأنّ حتّى ذكراه تُمحى.

اضطراب أقوى خلال السنوات الأخيرة، حتّى لو استمرّ ازدهار العذارى (ابتسامات هزيلة وجفون محمّرة أغلب الأحيان، خدودهن، ألق الفجر رغما عنهنّ، أجسادهنّ الأنثوية الممتلئة...). أمّا الذكور، وقد قاربوا سن البلوغ، ألم يملأوا أفئدة أمهاتهم خدوشا من شدة قلقهن عليهم «..ينتزعهم، من سينتزعهم منهنّ، الجبل أو كوماندوس لَيْلي ما أو طلقة بندقية...»

بفعل الاضطراب عمّت المرارة كلّ شيء، وبصفة لا رجعة فيها بالنسبة لبعضهن.

خلال جنازة الجدّة، كانت المحادثات تجري على قدم وساق.

كانت **عائشة**، متربّعة على الأرض، وعلى بعد خطوتين كانت المتوفاة ممددة تحت غطاء ناصع البياض. بياض الصوف والحرير في كلّ مكان؛ وتُلمح شُعور سوداء لامعة؛ وجوه مرمريّة من الاحمرار. امرأة تستشق بلطف. حرّ المكان يكاد أن يكون طنينيا. **عائشة** منطوية على نفسها.

**عائشة** تنظر. عيناها، الخالية تقريبا من الرموش، أنهكتها دموع ليلية. هي لا تبكي. تتمخّط من حين لآخر. حيّاك فضولية بيضاء مُتشاغِلة من حولها. نهشة متأجِّجة كما في كلّ مناسبة حينما يجب فتح البيت للغير، في حال حِداد أو بمناسبة فضّ بكارة في القبيلة...

رفعت **عائشة** رأسها. القبيلة؟ كان ذلك فيما مضى. خلال هذه الحرب، كانت الجدّة صامدة سنديانة وسط العاصفة. خلال السنوات الخمس الأخيرة، كانتا تتجوّلان، ظلان صامتان، في هذه الأماكن البورجوازية. في الطابق الأوّل، على طول الشرفات المزجّجة، كان ابن **عائشة** يهرول وراء العجوز حدّة، متوفاة اليوم. ثمّ يتقوقع في تجويفات الأفرشة، في هذه الغرفة نفسها. امرأتان وخيدتان، طفل. الصّمت.

- أقول سنوات الصّمت الخمس هذه...

- اخفضي صوت، إنها تسمعنا !

- وكأنّها لا تعلم، المسكينة، إنّ سنوات الانتظار الخمس هذه قتلت العجوز.

- **عائشة**..قلت لك اخفضي صوتك...

- وهو؟

- هو؟

- متى جاء ؟

- جارة البيت المقابل تلك التي كانت تُراقب من نافذتها.

- وماذا؟

- رأته يدخل في المرّة الأولى ! يمّا حدّة لم تكن ميّتة...

- انْهَنَّاتْ!

**عائشة** تحلم. الزائرات يثرثن. أماكن متتالية تسدعيها ذاكرتها، أين لا تزال المدينيات أنفسهن حاضرات هنا، في مراسم الزمن هذه. صور ثابتة، وكأنّها متوقّفة وراء نظرتها التي لا تتحرّك: سرير والدة وضعت حملها وظلت مستنزفة ومسترخية العضلات، وإلى جانبها يئن مولودها تصحبه البركات – جثة معدوم أُحْضِرت بالأمس إلى هنا، تحيط بها الندّابات وقد تصلّبن فجأة، وظلت شفاههن نصف مفتوحة على صرخة لم تنطلق – طاولة القهوة أو الشاي بالنعناع نفسها، عليها الحلويات المصنوعة من السميد نفسها...

وهؤلاء النسوة أنفسهن، حاضرات، مرتّلات، هامسات، حانياتٍ الرأس الواحدة نحو الأخرى، يُعدّلن براقعهنّ بحركات صغيرة خاطفة، فيُحدثن صوت صرير القماش تحت أفخاذهن الثقيلة.

لكن في كلّ مكان، خلال هذه السنوات المترنّحة، المنهكة بسبب الحرب، تَبْرُزُ من وراء الأفواه المكممّة، صرخات مخنوقة تنطفئ وكأنّها في حالة أفول أو علامة تنبئ عن توقّف مستديم– علّقها الفزع من فوق خلفية الحفيف والاضطراب الطفيف لهذه الزائرات ... حاولت **عائشة**، وهي تهزّ رأسها، إزالة الضجّة من هذه الأماكن والاحتفاظ برؤى صامتة لا غير.

هناك في ظل الخلفية الطفيف، وجه قمر يلفّه خمار أبيض. كانت كنّتاها جالستين واحدة في طرف والثانية في طرف آخر، بمظهر متواضع، ونظرة داكنة. هما أرملتان أيضا. شهِدَتْ أكبرهما، في ساحة منزلها الصغيرة، بالقرب من شجرة الياسمين، تحت المشاعل، شَهِدت أكبرهنّ سقوط ابنيها وزوجها البالغ من العمر خمسين سنة. ظنّت الزوج

والابنين ضمانة لأيام شيخوختها. الزوج، بأس الأسد الهادئ، والإبنان، الرجلان الناضجان. خلال الشتاء السابق، زوّجتهما وسط الجوقات، في الليلة نفسها...

ثلاثة رجال قُتلوا الليلة نفسها. حضر حشد هائج، يقوده ابن المقاول المالطي،

بوابة صفّاقة في رواق الفناء،

هدير الأسلحة والموكب المهاجم،

أضواء المِسرجات المكسورة،

حشود منتشرة في المدينة، ...

غرفة النساء. ظلال أذرع على الحيطان، أذرع عارية مُنتصبة، تتناهش. صرخات طويلة ممزّقة.

تلك، هناك، في آخر الغرفة، وجه القمر، هادئة اليوم بالكاد. بكماء لمدّة سنتين. لا تظهر إلا مجبرة خلال المناسبات الجادّة، لتُشارك حدادات أخرى، جزع العائلات الأخرى. سنتان. اليوم، ها هي قد عادت. تتكلّم. عائشة تنظر إليها تتكلّم. بطبيعة الحال، هي لا تبتسم. حرير ألم راسخ ممدود على ملامحها، يُجَعِّد زوايا الجفون. لكنّها تمدّ جيدها لتستمع. لكنّها تُجيب باقتضاب.

الكنّتان، وهما تتبعانها، تجسّان خدودهما الوردية تحت الخمار. تشدّان القماش على جبهتيهما الرطبتين أو تحت ذقنيهما. تُلطّفان نظرتيهما.

نساء أخريات حولهنّ. عائشة تعرفهن. أولئك اللّواتي يحرصن على انقضاء الأيام والمصائر. العرّافات. ولا حاجة للغيبة. بل لغاية الإبلاغ فقط.

ربما كذلك لتضخيم ما يحدث بواسطة كلمات، بإمالات صوتية، بتهدّات منسلّة وجعلها بالونات أمل أو هُوى إنذار.

كلّ هذه النبضات الصمّاء، في الضجيج المحيط وفي عجز الدموع المعلّقة، وكذا عجز الصّيغ التي تتكرّر. كلمات مُستهلكة تبحث عن مخرج. «... همهمات نساء سببها غامض، من – يا ربّي الرحيم –، من الذي سيهديك؟...»

تغيب **عائشة** عن هذه الضوضاء، لكن نظرتها البانورامية تلتقط كلّ وجه وتدرك في كلّ جماعة الانفعال المزوّر.

*غير أنّي أنا، أنا التي أرافق الأموات مهما كانوا، سواء أكانوا ممدّدين حديثي الموت أو غاروا في الرمال والأوحال تحت الحجرة، أنا الكفن الحقيقي للجثث الأكثر نقاوة أو النتنة تحت المراهم والعطور، أنا، لنقل، الرّوح المستفهمة الهاربة، أو الباحثة، أو المنتظرة، أنا التي أزعم أنّني طِلْية الإسمنت الشالة، القناع الأخير الحقيقي للغاية، لأنّه ينبغي عليّ، دون لبس، تجديد حالة اللاّتواصل الأصلية، أنا المتواجدة في كلّ الأماكن حيث يتراص، بحكم الأخلاق المألوفة، عدّة شهود حول جسد بارد، لم يلبثوا أن نسوه، وأنكروه وهم في الوقت نفسه يعملون على تقدير نسيانهم المشترك. صوتهم غير المسموع أنا، أُعيد وصل المسافات بدقّة، وأقدّر العلاقات من جديد.*

لوحة مفاجئة وهمية بالنسبة لـ **عائشة** الثابتة بلا حراك. بعض الحضريات يهززن مروحاتهنّ التي تعود إلى فترة ما قبل الحرب. يُقمن. وينطرحن.

في وسط الغرفة بالضبط، توجد الجثّة. الكفن يكاد يُلامس ركبتي **عائشة** المتقاطعتين. يُبرز الكفن شكل الرّأس، ويمتدّ فوق الجسد يُظهره في شكل مخروطي على مستوى المعدة (كانت الجدّة الطويلة والنحيلة، تعاني، رغم ذلك، من بلع الهواء). وفي الطرف، هناك القدمان في شكل قرنين.

يمّا حدّة، تحولت إلى هذه النُتوءات.

- كم من مرّة، للأسف...

- المسكينة! كنت أراها واقفة أمامي، في المرّة الأخيرة... أنا...

- لا ترتجفي ! هجّي، هجّي اسم الله...

كم من مرّة، في كلّ سهرة بجانب ميت، وضعت **عائشة** غطاء آخر حول الخاصرتين والقدمين... ليس هنا! ليس في الوسط... **عائشة**، دون أن تنهض، ترجع إلى الوراء. «عليّ نسيان الزائرات، كتمان موجة الهمهمات، يجب أن أقف !»

أقف، آه نعم، رغم التردّد الظاهري. الكتفان عاريان والجسد مرتجّ. تخطّي هذه الأجساد المتربّعة. هذه الأجساد المُسْتكينة... وضْع القماش بالطريقة نفسها على الجدّة النائمة.

- في المرّة الأخيرة...

- أيقَضَني ابني في الفجر: "يمّا توفّت !" تقطّع صوته. المسكين، كأنّه فقد جدّته الحقيقية !...

- بارك الله فيه !

يمّا نائمة، أليس كذلك. **عائشة** تُصرّ. إذا بسطت ذراعها، ستتلمّس يدها الوجه الملفوف. هو الحوار نفسه إذن، الّذي يُنهي الأيام.

- قولي لي، تسأل حدّة. الصّغير يستريح؟

كانت تشكر مباركة وملامحها مجعدة من شدّة التعب.

- إنّه نائم، يمّا !

- هذا الطفل، سيكون فجرك ! لا تنسي ذلك، أنا أقول لك !

- ربّي يسمعك، يمّا حدّة !

الحوار اليومي الّذي يَنتهي مع الغسق.

نعم، التخلص من الثرثرات الخفيفة. نسيان الزائرات. بعض الحركات: رفع هذا الغطاء، ثمّ وضعه مثل الأمس. «الأمس يعود وأنا أسمعه. يمّا حدّة لا تزال قلقة على الصّغير، تتخيّله في المستقبل. لقد وعدتني بذلك كضمانة للمصير... ربّي يسْمَعْ مِنّك ! آه، أنتنّ كلّكن، لو كنتنّ تعلمن !»

عائشة جالسة. يمّا لن تتكلّم من جديد. الصغير... طفل عائشة، "عائشة المطلّقة"، هي تتخيّل ثرثارات المدينة ينْعَبْن: «يتيم، إن لم نقل وِلْد حْرام، غير معروف وغير مرغوب من والده !»

عائشة، أُمّا بالكاد، لم تجدّ من حلّ إلاّ هذا، ثقة حدّة الرّجولية. هي، الخالة المُبْعدة. كانت عائشة، ذات صباح شتوي، واقفة على العتبة، تحمل حقيبة وفي يدها ابنها البالغ من العمر خمسة أشهر:

- بقيت أنت وحدك شيئا من وجه ودم أمّي !...
- ادخلي، يا ابنتي، أنا الّتي دعوتك!
- خمس سنوات مضت على مجيء عائشة المطلّقة.

وسط الغرفة بالضبط، كانت الجنّة. بطن شبيهة بجرّة فاقَمها الغطاء. في آخر الغرفة الداخلية، غطاء ثان يحجب مرآة الخزانة المصنوعة من خشب الكرز. بعض الأفرشة المغلّفة بأغطية رمادية اللّون. في كلّ مكان، أجساد نساء مكدّسة، شبيهة بلطْخات خطاطيف مُندبقة. على شكل لوحات مُبرقشة، ظهر من جديد بساط أَوْرَاسِيّ. أمام العتبة، على البلاط الأحمر، تتجرجر مبعثرة كيفما اتّفق أزواج من الخِفاف السود؛ لأنّ العجائز اللواتي يدخلن ينزعن أحذيتهن. يكشفن عن وجوههن. ثمّ ينخرطن في الأنين بعد العُثور على مكان بين عَجُزين.

الأخيرة الّتي وصلت، شقّت الطريق بصعوبة. ارتجّت براقِع، تلى ذلك بعض التحيات بنبرة خافتة. تتقدّم. تنحني بالقرب من الكُتلة الأفقية. فجأة، انتبهت عائشة.

ثانية صمت. كانت كلّ الرؤوس مُطأطأة والنظرات مركّزة. الضوضاء تتجرف في تمهّل خامل، مثل قارب سريع الزوال. في الوسط، بيد مُختّمة، ترفع السيدة الغطاء.

ينكشف وجه حدّة: جفون غائرة، خط طويل الأنف الكبيرالطويل، لَوْنة الشمع التي تبيِّض كلّ شيء. لحظة. «يتوجّب الصّراخ، والفرار، فرار أذرع مفتوحة تتمزق، قلْع كلّ شيء – الخمار وجلد الجسد – في خضمّ هذا الرّعب، تشويش السكينة الظاهرية.»

**عائشة**، تنظر بلا حراك. لا أحد يعلم. وما ذا ينبغي عِلمه، الطفل...

- **حسن**... اسمه **حسن**، همست إحداهنّ الّتي كانت تساعد على إيصال الصغير إلى والدته.

- "**حسن**"، هل يمّا **حدّة** هي من سمّته؟

- في الواقع، اسمه **أمين**؛ العجوز هي التي كانت تُناديه **حسن** منذ دخوله منزلها.

- أكانت تظنّ حفيدها ميتا؟

- لا... مرّت خمس سنوات دون أخبار، لكنّها لم تفقد الأمل !

- انظري !... **عائشة**... ابنها عند قدميها، وهي لا تتحرّك !

الطفل – "جميل وقوي" كانت تَمْدَحُه مجهولة تبدو لطيفة بالقرب من **عائشة** التي لا تبتسم - ، صبي هادئ، هادئ للغاية. عينان منتبهتان، بهما نوع من الثقل المزعج، نوع من حقد شارد. الجبين المحدّب والعنيد الذي ورثه عن والده، ذاك الجَسور الذي اختفى من المدينة، والذي يُقال عنه الآن أنّه قد مات، ميتة بطل الجبال أو ميتة الخائن، من سيعلم ذلك...

سكت الطفل. مُطمئنًا. موقد استيقظ من نومه، مُخبّلا، دون أن يبكي. هو لا يبكي أبدا. أبدا ! اخترق صمت منزل **حدّة** كيانه، منزل واسع للغاية، بأثاثه السوري ومطبخه العصري وتجهيزات الطابق الأوّل، فضاآت يَسْكُنُها انتظار الوريث الغائب.

الطفل...

- **أمين** ! نادت **عائشة**.

رفع عينيه.

- ألست جائعا؟

لم يردّ. وراح يلاحظ الغطاء المحدّب.

- يماّ نايمة، يا عزيزي، يا كبْدي !

التفت **أمين** نحو والدته الصامتة. البارحة دخل رجل إلى هذه الأماكن نفسها. **حسن**. الاسم الّذي ظلّ يسكن المنزل كلّ هذا الوقت.

جاء دون زيّ البطل، مخيّبا أمل الطفل. هو شخص عادي، بالكاد أطول من بائع حليب الصباح، بالكاد أقلّ تصلّبا من المُؤاكر الّذي يأتي كلّ يوم جمعة... دخل الغرفة. هنا.

في ركن، على هذين الفراشين، كانت يمّا. عدّلوها ضدّ الرُّكنيّة. كانت أذناها مسطّحتين من على جهتي الوسادة الواسعة بريش مائل. وجه شاحب بالقرب من الحائط المكلّس. عينان ضخمتان لكن دون إبصار. أنف رائع مع شلل في الوجه.

أنزل الرجل كتفيه عند رفع دريئة الباب. بضع خطوات، ثمّ توقّف. حرّكت **عائشة** ذراعها حركة صماء باتّجاه الجدّة. همست، ماذا همست، الطفل لم يفهم. شدّته من الكتف وهي تضغط بأصابعها بتشنّج. خرجا معا.

الرّجل الّذي لا يرتدي الزّي العسكري ويمّا. تثبّتت الصورة. **أمين** يتفحّص الغطاء. هل فهم؟ ضمّته **عائشة** إلى حضنها وهي تتساءل.

- لم يبقَ لها إلا هو ! همهمت جارة بالقرب من العتبة، وقد فاجأت الحركة من مكانها.

- الابن الّذي عاد سالما من الجبال !... هو ابن خالتها ، بل بالأحرى هو أخ لها !

- هل تهمّ العائلةُ اليوم؟

- الكفاح، لأيّة غاية؟ هل لغاية الدّم الذي يخلّدنا؟... ألم تستمعي البارحة للخطاب في الساحة؟ «كلّنا إخوة !»

- صحيح، يا أختي، أقوالك صحيحة !... آمل أن يفهمها الرجال مثلك !

تنهّدت أخرى

- أنا، أقول، ، سعيد هو الّذي رأى فجر النصر منذ الأيام الثمانية هذه من الاستقلال !

- فتحت حدّة عينيها للمرّة الأخيرة على هذه الأيام؛ ربّي أراد ذلك!

- الجارة الّتي تُراقب من نافذتها...، استأنفت السابقة.

«فلتتكلّم، فلتُهمهم...»، قالت **عائشة** في نفسها، ويدها موضوعة على الكتف الهزيل للصّبي. «من يقول لي كيف سيكون الغد؟»

عندها بدأت اللازمة داخلها، هنا، أمام كلّ هذه الحضريات، تلك اللواتي، منذ كلّ هذه السنوات تحت الجبل المحترق، المنتصب أملا، كنّ يُشكّلن الجوقة المنفعلة أو المترنحة، تلك اللواتي، بخمرهن المنتفخة، كنّ يتكردحن في الأزقة بينما كان يتم البحث عن مرتكب اعتداء ما، تلك اللواتي كنّ يغلقن أبواب الأروقة المظلمة واللواتي كنّ يتعرّفن، وهنّ يلهثن، وآذانهنّ ملتصقة بالخشب، على خطى العسكر الموقّعة.

هنّ اللواتي لطالما كان قدرهن أن يكنّ آذان المدينة وهمهماتها، أولئك اللواتي تمثّل قَدرهنّ في التقرفص عند أقدام الزوج، العائد مساءا، لنزع حذائه، واللواتي، لم يبق لأغلبهن سوى نزع القلق؛ هنّ أخيرا اللواتي كان مستقبلهنّ أن يُصبحن بذرة لاواعية لمراهقين مصمّمين على نحو مفاجئ (- «ابني... كبدي التّعِب... لحمي المعذّب !»).

كنّ كلّهن، وهنّ جالسات اليوم مجموعات مجموعات، يتصوّرن بأنهنّ، بوضْعَة الجسم نفسها وبالإنخراط في المؤامرات نفسها، إنما يرافقن المتوفاة، كما ينبغي، يذكرنها بتحسر وحزن؛ وباختصار، دفنها. كما لو أنّنا ندفن الموتى، وكما لو أنّهم لا يواصلون العيش في مكان ما... لكن أين؟

بدأت اللازمة في نفس عائشة. جملة غير متوقعة، هزّت كلماتُها مشاعرَها هزّا. فأحسّت قلقها. «ما عندي لا قانون، لا سيّد...» هكذا كانت بداية الجملة الصغيرة.

كرّرت: «ما عندي لا قانون، لا سيّد». فصلت الكلمات عن بعضها. انتظرت. انتابها هَلَعٌ وَخوف.هل ستفهم؟

غمغمت بعدها بداية صلاة: «لا إله إلّا الله، ومحمّد...»

- لا إله إلّا الله ومحمّد رسول الله ! انتصبت عجوز عمياء وتدخّلت بصوت عميق.

مغنية المدينة، هي وحدّة في نفس السنّ. صوتها الخشن أحيانا، يحتفظ برنّة نحاسية، اعتادت عليها آذان الكبار والصغار. نغمة نجمت فجأة مثل دلْفيّة عربية تحمل خُمُرا متعدّدة تُضَخِّمُها. ما إن انطلق الإنشاد، حتّى أصبحت بمثابة أمّ الجميع الغامضة، الصوت الّذي رافق كلّ قَطْعٍ للحبل السرّي، الصوت الذي دوّى في اليوم السابع من كلّ ولادة، ونعيب في أربعينيات الوفيات، والّذي كان، في كلّ ليلة عرس، يُقدّم أغنية الشكوى، المفاجئة والغريبة، ملطّخة بدم البكارة، ويدخل الهلع المضطرب قبل الإنفراج الناجم عن الاستسلام الهادئ أخيرا...

صوت كلّ الأمهات البكماء عجزًا، اللّواتي يتأمّلن تعاسة الأبناء والأحفاد... ها هي عمياء المدينة، عاهرةً كانت في الماضي، وأصبحت من بعدُ كاهنتها الساخرة، المُرِنَّة الحنونة التي تُذكّر بما للأموات، التي...

- حدّة، جُرْحِي، صورة كلّ الأمهات !

- لا إله إلّا اللّه...، استأنفت عدّة عجائز معا، لتترك الوقت الكافي للعمياء حتى تتمكّن من الارتجال من جديد:

- حدّة، عيون مفتوحة على الابتسامة التالية للمجزرة!

تعالت الأنشودة الجماعية للمرّة الثانية، بمساعدة الجميع، رفعت العمياء بطريقة مسرحية ذراعيها الناحلتين نحو السماء.

- ... ومحمّد رسول اللّه ! أتّمت الجوقة الّتي برز من بينها صوت شابٌّ.

- حدّة، الّذي يعود شادنها إلى الأصل !

كنّ كلّهن ينشدن الآن من حول حدّة. سمعت هذه الأخيرة فجأة، وكانت شفتاها مشدودتين، الصوت الهزيل لابنها يلامس بعض المقتطفات: «... إلّا للّه !»

تعالى الصوت النحاسي، بعد زمنين من شدّ النفس، مردّدا نوتة البداية بصوت مرتفع أكثر فأكثر. أخذت **عائشة**، وهي لا تزال متوتّرة، وعيناها لا تُفارقان الوجوه المعتمة الأخرى، أخذت تنتظرالبقية. اللّحظة الّتي سينفجر فيها صوت العمياء، بعد بلوغه الذّروة، في صرخة طويلة مُؤلمة، وسيكون ذلك بمثابة لحظة انقطاع حادّ لكلّ حالات الحلول المتراكمة المصاحبة للغناء. لم تلبث بعض النساء ذوات الخبرة أن أبدين، خلال الارتجال، عدّة آراء حول العمياء، التي كانت "في أحسن احوالها" لبُكاء رفيقتها في السّن.

إلقاء سلس للمغنّية. هي الوحيدة الّتي لا تُنادي المتوفاة "يمّا". اشتدّ صمت **عائشة**، خلال الغناء الذي كان يجري في شكل أرابيسك بطيء، خيّم ثقيلا صمتُ **عائشة**.

- حدّة، من صلبك خرج المنتصر، كما في السابق سلفك على رأس الفرسان!

كانت الابتهالات الجماعية تضعُفُ. ليس بسبب إحساس الحاضرات بالتعب، لكن لأن العمياء كانت تُسرّع الإيقاع. كانت ثابتة في المكان.

ذراعاها نحو الوراء في وضعة تأمّل غنائي. الرّاسية تُغطّي نصف الشعر الأحمر، الوجه الأصحم والعينان المفقوءتان. الفكّ القويّ. فجأة هزّتها رِعدات عصبية.

كانت تقطع الجوقة المتعاقبة، دون انتظار المردّ، وكأنّ الإلهام أصبح رَكْبيَّة تمتطيها بعَنَاء.

«حدّة»، نوتة موسيقية زائدة الحدّة أصبحت خرخرة مخترقة...

«الشهيق، هل آن وقت الشهيق؟...» تساءلت **عائشة** وهي تئنّ.

وقد بلغ بها الانفعال الجمالي مبلغا، ذرفت **عائشة** الدموع أخيرا.

استأنفت المغنّية بصوت خفيض:

- حدّة، ، إفتحي لنا الطريق الملكي نحو الخلاص !... يا حدّة الصمّاء، كلّمينا !

وانفجرت الصّرخة. متشنّجة. طويلة لكنّها غير جهيرة. كأنّها قرقرة أغرقها تماما غناء الحضور الأقوى: أدعية تقليدية، اسم الرّسول، فوضى الصدور...

- ماذا قالت في الختام؟ سألت إحدى الأرملتان المحيطتان بالسيدة ذات الوجه القمري.

متصلّبة وبكماء، ارتجفت العمياء، التي كانت لا تزال تخطب، وكادت تترنح. ثمّ جلست عند قدمي المتوفاة، ويداها موضوعتان على كلّ مخروط من الغطاء، تمثال مأتمي، شعر برّاق مفكوك تماما.

بدموع تجري بصمت، التفتت **عائشة** نحو تلك التي طرحت السؤال. كان ذراعاها لا يزالان يحضنان ابنها الثابت في المكان. ابتسمت، رغم وجهها الذي غمرته الدموع، وجهها الذي فقد الأناقة أكثر من أي وقت مضى لكن بقيت ملامحه ملطّفة.

- قالت – انتصبت قليلا وابنها بين أحضانها – قالت، «آه يا يمّا، كلّميني !»

- ماذا يحدث لها؟ تعجّبت مجهولة كانت في ركن من الغرفة.

- **عائشة**... أخيرا المسكينة تبكي !

شفقة كاذبة.

- مبارك هو الحزن...

- كانت اليتيمة أكثر تعاسة من الأرملة! ألا يُقال: «أنت، يا يتيمة أمّي، تتوحين ولا تجفّ دموعك !»

من مكانها، وكان صدرها النحيف مرتكزا على بقية الجسد، **وأمين** يُثقل ذراعها، استأنفت **عائشة** اللحن المحزن بصوت خفيض. أنين صبياني، يائس.

كانت تهزّ رأسها:

- يمّا حدّة التي تركتنا، كلّمينا، كلّميني !

- لا إله إلّا الله ! استمرّت المعزّية تردّد، في آخر الغرفة التي بلغت بها الحمية مبلغا،.

كانت الدموع تسيل على وجه **عائشة** الهزيل. **عائشة**، اسم زهرة متفتحة لن تصبح إلاّ انكسارا وذبولا...

الجملة الصغيرة – الأم والابن في وِضعة مقدّسة – دارت على نفسها وهي ترتفع مرّة ثانية في خضمّ الألم المتساقط. اعتقدت **عائشة** أنّه صُداع أليم...

لكن ماذا عن هذه الكلمات، ما أبعدها عن كلمات العمياء، كلمات تكاد تكون بذيئة، لا تتماشى ومصطلحات الصلاة الّتي كانت تتكرّر تارة هنا وتارة هناك في الغرفة التي فيها الطنين من جديد – حداد صباحات شهر جويلية الصاخبة، حرارة تسبّب تعفّن الأموات.

كلمات مفاجئة سمعتها **عائشة** في نفسها: إذ لم تعد تنظر إلى الغير. لقد استسلمت، انصهرت وسط التباكي المعسول، هي واليتيم الذي تحمله في ذراعها.

كيف تتفادى الجملة القاسية: «ما عندي لا قانون ولا سيّد !»... حدّة، الخالة العجوز، هل كانت السيّد؟... هي بالكاد هيكل سفينة مستغيثة منذ زمن طويل.

«أنت وحدك، فيك شبه من أمّي، من دم...». تلك هي الكلمات الأولى التي تفوّهت بها المطلّقة، عندما تمّ استقبالها عند العتبة. وقد نطقتها بشكل آلي، أكثر من نطقها تواضعا.

«ما عندي لا قانون ولا سيّد !» أي قانون؟ غير قانون الشقاء العنيد رغم أيام الاستقلال الأولى هذه...

- **حسن**، عاد البارحة ! همهمت الثرثارة للمرّة الثالثة.

كانت جالسة تتفاخر مستندة إلى خاصرة المتوفاة، قُبالة **عائشة** مباشرة. ولإطلاق كلماتها الناعقة من فوق ذقنها المُشحّم، كانت تدير رأسها قليلا نحو اليسار، ثمّ نحو اليمين.

في الخارج، ملأت ضَجّةٌ الساحة الصغيرة.

- قارئو القرآن ! أعلن صوت طفل من الرّواق. في الدّاخل، ضَعُفت ضجّة الأصوات المبهمة.

- صلاة الجمعة على يمّا حدّة، الهائنة ! هتفت امرأة بشيء من الإبتهاج. ربّي يرحم يمّا حدّة !

تعالت صيحات أخرى هنا وهناك. نهضت أصفرهن، بينما كانت أخريات يُخفخفن خُمرهن. كانت مناديل مدعوكة تتساقط على البساط الأوراسي السميك.

كانت كل واحدة منشغلة بمعرفة متى سيبدأ قارئو القرآن، متى سيدخل الرّجال لحمل الجثّة، متى...

- هيّا، يجب إفراغ الغرفة !

- ما عدا العجائز. ما عليهنّ سوى تغطية رؤوسهنّ وأكتافهنّ !

خلال هذا الانتظار العصبي ورغم هذا التبدّد الجديد، لم تصدر أيّ حركة من الكتلة المتواجدة تحت الغطاء. لا ارتجاف ولا نفاذ صبر من الشّكل الأفقي الممدّد. لم يُبد الوجه المخنوق بالكفن أي رجفة من الرّجفات التي يمكن انتظار حصولها. حدّة، جامدة فعلا كصخرة.

لقد تمّ غسلها جيّدا. وكانت مكسوّة بالأبيض تحت الأبيض. قماش جديد وغير مخيّط وفقا للتقليد.

حدّة، ذات الأنف الهائل، التي تنظر إلى الدّاخل، كانت تنتظر.

جاء أربعة رجال، من بينهم حسن الّذي قضّى خمس سنوات من الكفاح، من الاهتياج الغامض لبلوغ هذه اللحظة التقيّة. الكشف عن الجثّة. تردّد في الأوّل حين انحنى انحناءة نصفية. ثمّ رفع رأس الجدّة بيديه. ونظر نظرة جامدة خالية من انفعال ظاهر.

- أمين !... نادت عائشة، آخر من تحرّك من مكانه.

توارت النساء الشابات في الغرف المجاورة، اشتدّ فضول نظراتهن المتلصّصة من وراء الوصاوِص المُطلّة على الساحة الصغيرة.

تلفّعت عائشة بلِحاف. تراجعت ببضع خطوات، لتجد نفسها مكبوسة وسط العجائز. بالقرب منها، كانت العمياء تطرح باحتشام خمارها الحريري الأخضر على رأسها الأشقر.

«أربعة رجال ! حسن سيحمل وحده رأس الجدّة من أجله، ومن أجلي... »

كانت المتوفاة، وحدها، وسط الغرفة التي أُخليت. عين عائشة الفاحصة. أخذ أمين ينوح نواحا متقطّعا.

دخل الرّجال، طلعاتهم طلعات الساعي إلى إحقاق الحقّ. كان أحد الأربعة، يلبس سروالا عريضا على الطريقة التركية؛ أكبرهم ذو وجه أسمر، والطربوش الجاذب للأنظار؛ وأخيرا حسن، ذو الكتفين الضيّقين، وبسِحنة خالية من أيّ تعبير.

كانت **عائشة** تُداعب بعصبية رأس **أمين** الّذي صمت وتشبّث بها. فجأة:

«ما عندي لا قانون ولا سيّد» همهمت شفتاها بصوت خافت. اعتقد **أمين** أنّها تُحدّثه، فأدار نحوها رأسه البيضويّ الهشّ.

«لكن لماذا؟... لماذا؟ أثور؟...»

اضطراب لغوي إن صحّ القول، لم يتّضح في رأسها المصدوع.

خرج الرّجال الأربعة. أُفْرِغَ وسط الغرفة بأكمله، وكأنّه استُنزف.

نهضت **عائشة**، وقد أصبحت فجأة سيّدة البيت لكنّها ساهية. ستذهب الزائرات، وستجلسن من جديد كما لو كنّ في عرض مسرحي.

«**عائشة**، ساهية؟ لا !... » تذكّرن فجأة: «مطلّقة !»

... جاءت عذراء ماكرة للتّجسس. احتفظت بلحافها حتّى وسط النساء الأخريات، قصد ستر هويتها. عين واحدة متفحّصة، ثقب مثلثي الشكل عدائي في الوجه الملثّم بأكمله. تلتفت من حين لآخر، حتّى لا تنسى أيّ تفصيل... المتلصّصة الشابّة تتصرّف ببطء ورصانة ونزعة احتقاريّة غالب الأحيان... ذلك هو عالم النساء المُحاصر، الذي يغذّي بداخله هوس التجسّس، ويتوهّم بالتّالي صيانة الأسرار الخفية.

- هناك دائما قريبة فقيرة !
- هناك دائما مطلّقةٌ في الحداد !

تفاهات، صيغ فارغة تُتداول بين الجارات. يقدّمن تعازيهن. ثمّ يخرجن.

«أثور إذن؟» عدّلت **عائشة** جسدها الغارق في القميص. عهدت بابنها إلى أقرب امرأة مُسنّة، وتلقّت كلمات التعاطف على النحو الملائم، لكنّها كانت تستند على إطار الباب... ثمّ اتّجهت بعدها نحو المطبخ.

- وجبة الطعام...

- هل سيتمّ تقديم وجبة طعام للضيوف؟

- للرجال، بالطبع لا ! انظري، لقد بقوا في الخارج...

- هذا ما قال **حسن**...، لقد سمعته ! تدخلت امرأة كانت على وشك الخروج.

- ماذا، ماذا قال؟ تساءلت عدّة نساء.

- «لا داعي لتقديم وجبة طعام لسكّان المدينة.» هذه هي كلماته. لكنّه يُصرّ على تقديم كلّ شيء للفقراء !

- رأيت قبل حين نعجتين مذبوحتين.

- كسكسي يمّا، كم كان مشهورا !... كانت تفتله بنفسها ! وكأنّ الملائكة كانت تحضّره بأصابعها هي... كسكسي الزفاف، أو كسكسي للأموات !

- هذا ما قاله إذن... رجال اليوم !

- لفائدة الفقراء، احتجّت امرأة أخرى، أليس هذا هو الأهمّ؟

تركت **عائشة** وراءها تشنّج الأقوال... بضع ساعات أخرى، ربّما حتّى الغسق، ستسلّ مجموعات من النساء: تلك اللواتي ليس لهنّ أطفال ولا أزواج ذوو سلطة متغطرسة، عجائز وأرامل شاحبة، وقد تكاثر عددهنّ الآن.

كانت تُوزّع عليهنّ كسرة مزيّنة بزرّيعة البسباس، مكوّمة على شكل مخاريط مهيبة في أطباق من السّوحر. حضّرتها **عائشة** بنفسها في اللّيلة السابقة بمساعدة شابّتين من البيت المجاور. ثلاث ساعات فقط بعد

أن لفظت بمّا أنفاسها الأخيرة. ساعات دموع مستمرّة لكنّها خافتة. بيت خيّم عليه الصمت؛ **عائشة** وحدها مع هاتين الشّابّتين. صاحت أصغرهن سنّا، في اللّحظة العصيبة، مثل جرو منفعل انفعالا غامضا، عندما يشتمّ رائحة أوّل موت يلتقي بها.

خرجت **عائشة** من غرفة الجدّة، وراحت تُنادي **حسن** من التحت. لكنّ حلقها بقي جافّا ويداها مرتجفتين.

- يا وليد خالتي !

تلك طبيعة التسمية العربية. بإمكانها التخفيف من يأس الصرخة.

كانت **عائشة** ستبدأ لو لا صرخة الشابّة – **حسنة**، ذات الأربع عشرة سنة، والجسد المزهر، والنهدين الرُمّانتين:

- من كان بإمكانه تكميمها، الذي، وقد توقّع هلعها الذي لاسبيل لإيقافه، كان سيؤنّبها: «ادعي، ادعي، ربّي ورسوله !»...

صرخت **حسنة**. مثل ندب مُمتدّ، مُجامِل. **عائشة**، التي كانت مذعورة، وسط الفناء، لم تكن بحاجة للمُناداة. من الطابق الأوّل، ظهر **حسن**، بنظرة وقار من على الدرابزين. حرّكت **عائشة** ذراعيها بتشنّج.

- يا ربي ! ... ناحت، ورقبتها مُنحنية، ثمّ دخلت إلى غرفة المتوفاة، باندفاعة هيجان مرتعش.

جلست عند الفراش، نظرة فارغة، دموع تصبّ انصبابا في وجه بقي شاحبا. وجه غمرته فجأة نوستالجيا عذبة تصحبها سلبية غريبة. هكذا رآها **حسن** عندما أزاح الستار، قبل حتّى أن يلقي نظره على **حدّة**.

اقترب. كانت نظرة الجدّة المتوفاة جاحظة. بيد واثقة، خفض الجفون المُنهكة، حجب هذه النظرة الفاغرة، وكأنّها بكماء. أناقة حركة وجيزة، لطف مؤجّل بعد تلامسهما .

*أنا الّتي، من اللّحظة الأولى، أكسو ببذلة مجعّدة جلدَ الجثث الجديدة الرُخامي، أنا الّتي أملأ بحلم يطفئ رويدا الأجساد الباردة، ذات الفوهات المفتوحة كلّها، أنا الّتي أضع حتما مسافة تكبر أكثر فأكثر بين أكثر الآلام الشاهدة خفقانا، والغياب الداكن الّذي يترنّح، أنا الّتي... أنا؟*

*فلنقل الصوت الأضبّ، المشوّه بالكاد، الصوت الضئيل الذي يحاول يائسا تجاوز الظلمات الجديدة... أنا؟*

*أنا، النظرة المضطربة الّتي تُدرك كلّ النداءات، أنا الضوء الذي يخبو بينما يتعلّق الصّوت المصدوع، في عجزه عن أن يُسمع لا من أذن مُتسائِلة ولا حتّى من بعض العيون الراصدة...*

*أنا، كفن العجوز حدّة المتواري والذي يُسرّبني حيث كلّ الانفعالات القديمة المنهارة، تحت كلّ النهش المتلاحق للأمل الخرِف، أنا، في مكان يمّا المرتاحة، سأدوّن، بصفتي شاهدة بلا ذاكرة، موقف حسن، الحفيد الضّال، الذي طال انتظاره منذ خمس سنوات.*

أمام ابن خالتها الأصغر منها ببضع سنوات، انتبهت **عائشة** أنّها تبكي. وبشكل ممنهج، أخرجت منديلا، جفّفت به خديها الهزيلين، تمخّطت بصمت ونهضت. خرجت تمشي عكسيا، وكأن العجوز كانت لا تزال تنظر إليها.

بعد ساعة من الزمن، دار حديث بين **عائشة** و**حسن**. كان ذلك أوّل تبادل للكلام بينهما منذ عدّة سنوات؛ كانت الجارات الشّابّات قريبات جدّا وراء ستار الباب المُجاورة. كان **حسن** يُصدر أوامر. كان يقرّر بصوت بطيء ما يجب فعله في الغد، ظهرت نبرة جديدة في كلامه، نبرة أكثر غِلظة من نبرة أهل المدينة، وكأنّه يستعيرها من أمواج البدو ذوي الهيئة الرثّة. نبرة تُذكّر بالمتابعة. وجدت فيه **عائشة** حنانا فظّا.

ومن جديد، بعد عشر سنوات بالضّبط، كان الاضطراب البائس السابق. ذلك الّذي أذبلها شيئا فشيئا. جعلها ساخطة، ثمّ حاقدة، ثائرة. ثم انطفأ ذلك الاضطراب وتركها بلا إحساس، ممّا دفعها إلى الزواج. كان ذلك آخر وأهزل طلب، طلب خاطِب كانت سترفضه، بكبرياء، لو كان تقدّم إليها في السابق.

«ثمانية وعشرون سنة ولازالت فتاة!» قبلت وهي تعْلَم، حتّى قبل حفلة الزّواج، أنّها ستُصبح المُطلّقة. كان ذلك مقدّرا، هناك دائما واحدة في العائلة. وبالأحرى في أوقر قبيلة من الحاضرة البحرية – قراصنة كانوا في السابق، حرفيين بسطاء، بقّالين أو بطّالين الآن.

زواج المرارة. جسد قد انفصل عن تلك الّتي، وهي عذراء، كانت مغرمة – كان ابن خالتها المراهق جميلا مثل أمير، عندما لجأ إليهم، عندما كان بالكاد يبتسم من عينيه الضيّقتين، سرّي كان، وربّما رقيقا... أمّا الزوج، فكان عنيفا. كان يقتحم، بشدّة متزايدة، الجسد المستسلم.

- ثمانية وعشرون سنة ولا زلت فتاة ! صاح الزوج متعجّبا، بعيون الكراهية، عيون العجز في الواقع.

في اليوم الثامن فقط من الزواج، ضحك هازئا ثم بصق عليها. كانت **عائشة** متمدّدة فنهضت، مسحت وجهها وارتدت ثيابها مجدّدا بحركات دقيقة. وتخيّلت، كما في حلم الفجر، أنّها ستستيقظ قريبا...

حرّمت بعناد منذ ذلك اليوم جسدها عنه. ومنذ ذلك الحين، أصبح لا يتردّد في القيام بما يريده؛ كان يُدخل إلى بيته زجاجات البيرة ذات الرائحة الملعونة. لكنّ حظر السُكْر الّذي أطلقه الأنصار جعله بعد ذلك، هو الوقح المجعّد الشعر، مجنونا بفعل العجز مثلما كان أمام جسد **عائشة** المغلق.

طلّقها بعد شهرين. ظلّت عند حماتها، ستّينية مثيرة للشّفقة كانت تشتكي من همومها، وهي التي ساعدتها على الولادة.

أخيرا جاء اتصال من حدّة؛ كانت قد بعثت مرسولا: «إنّ أسرة مفكّكة ليست أخطر من الوحدة بعيدا عن الأسرة.»

«ماذا؟... كلّ هذا...»، تذكّرت **عائشة** أمام **حسن** الّذي كان يُكلّمها، بصوت بطيء ونبرة جديدة،. كلّ هذه القصّة المشؤومة من قرارات بسيطة، وحركات يصعب تمييزها، ورفض عنيد يتصالح ويتدفّق، جدول هزيل تحت وعْنَة. هذه القصّة لها أصل.

«أنت !» ظنّت الكلمة مفتوحة، كهِبة فعلية. «أنت !» الكلمة من جديد كصرخة تشكو الوحدة، في ذاكرة بيضاء... «أنت !».

...في المرّة الأولى، كانت **عائشة**، تبلغ بالكاد عشرين سنة. إن لم تكن جميلة، فهي على الأقلّ هادئة وتتميّز ببعض من الأناقة. **عائشة** واقفة، مرتجفة ومع ذلك مُتصلّبة، أمام **حسن**، ست عشرة سنة فقط لكنّه رجل. كان قد أُصيب بجروح في ذراعه خلال مظاهرة. لجأ عندهم (كانت **عائشة** تعيش مع أمّ متواضعة، غبنها الفقر...). كان يختبأ من الشرطة، وعاش هناك طوال ثلاثة أشهر كاملة.

سبّب جمال المراهق لعائشة اضطرابا، أملا لايستقرّ على حال لكنّه ثابت – الشاب ممدّد لساعات، في الغرفة القروية، عيناه مفتوحتان في الغَبش. كانت عائشة تكرّر وهي تُلوي أصابعها: «أنت !»

بعد عشر سنوات، تعود الكلمة، يحيى الأمل، لكن...

خلال هذه الليلة، كانت **عائشة**، وهي عند قدمي المتوفاة، بعينين تنظر في الفراغ، ودموع تسيل، امرأة غارقة في الحنين...

- مثلما تُريد، وليد خالتي !

صوتها المُحترم (اللياقة، وربّما المصيبة كذلك). تُكلّمه، هو الّذي أصبح اليوم يُستقبل في المدينة باعتباره قائد الأبطال الجُدد.

- أظنّ أنّ كبشين يكفيان... لم يعد المتسوّلون يأتون حتى الباب. بيوت المتواضعين معروفة ! في المساء، سيكون الأمر أفضل...

- غدا مساءً إذن... سيُحمل الجسد على الساعة الثانية عشرة، قبل صلاة الجمعة !

- كما تُريد ! كرّرت، وعاشت من جديد الماضي المستحيل...

خلال هذا الفصل، عندما لجأ المُراهق إلى منزلهم، كانت أشجار الكرز وفيرة جدّا، النعناع أكثر نعومة من أي وقت مضى، والأمسيات، آه! الأمسيات... كان حسن يخرُج تلفّه عباءة سوداء، تستر ملمحه وتخفي وجهه؛ كانت عائشة تنتظر. مع منتصف اللّيل، يدخل، في هيئة مُتآمر. خلف الحاجز الحائطي، كانت عائشة تسمع صرير السرير القديم، ونقر الجرّة الّتي كان يحملها لإرواء عطشه اللّيلي، ثم يضعها على حافّة الكوّة، بين حاوية الحبق ومربّع إبرة الراعي الأرجوانية...

«أنت!» كانت هذه الكلمة تتضخّم بصوت الشباب هذا. كان النوم يحفظ في أعماقه نداء العذراء العنيد...

«أنت!» هي تُكرّر الآن، على بعد خطوتين من الجدّة المُتوفاة. هي، المطلّقة الآن، ابنة الخالة الفقيرة، التي أصبحت بلا طعام... آه، ذاك ما يُثير البكاء لعدّة أيام، وليس خلال جنازة فقط.

- كم هو حزين صوته! عندما خرج حسن، لاحظت حالمةً إحدى الشابّات الّتي كانت تسترق السمع من وراء الستار.

- أتظنّين؟ ردّت عائشة، حَرُونة فجأة.

تجاوزت السخرية السوداء:

- ها هو بطل الجبال وكلّ البنات الحديثات هنّ الآن في انتظار!

حَضَّرْن بعد ذلك الكسرة. وصلت غسّالة الأموات ومساعدتها. جلس قرّاء القرآن ساعة بعد ذلك في الساحة للسهر على المتوفاة. لم تنم عائشة. في الفجر، تمّ تهيئة المكان لحضور الزائرات في موجات متتالية.

عند دفن الجدة، كانت الأحاديث تجري على قدم وساق، ثم شرعت الحضْريّات في المغادرة الواحدة تلو الأخرى. أما **عائشة**، التي كانت تساعدها الطباخة المختصة في وجبات "المآتم"، فلم تغادر غرفة تقديم الخدمة قطّ.

وهناك، في ركن مخصص لخزن المؤونة، كانت شاتان لونهما المائل إلى الورديّ مسلوختين ومعلقتين من العرقوب.

رغم ألم صدغيها وفراغ ذهنها، شمّرت **عائشة** كمّيها عن ساعدين قويّين بشكل لافت وقامت بمساعدة الطباخة في أداء مهمة تقطيع اللحم بعناية. انبعثت، شيئا فشيئا، من القدور والمراجل رائحة وخّازة تنفذ إلى الأحشاء، رائحة التوابل المحمّصة على النار– فلفل حلو مرحي يسبح في شحم الخروف، كانت حدة قد جففته بنفسها الخريف الماضي.

- امّا !

**ظهرأمين**، وقد استيقظ غرِقا في عرقه من نوم ثقيل وأحلام مزعجة. اتجه مُندّى الجبين فاتحا ذراعيه نحو أمه، أمه التي كانت، والساطور في يدها، منهمكة بمنهجية في تقطيع الشاة الثانية المذبوحة. رفعت الأم رأسها وهي محمرّة الوجه بفعل الجهد والحرارة. وبينما كان يتصاعد بخار عطر من القدور، بدت **عائشة** فجأة أمّا شابة ومربِّية حريصة وهو ما جمّلها للحظة. همست:

- **أمين**!... هذا أنت!

في المساء، كانت أطباق الكسكس واللحم المتبّل تُنقل في قفف من منزل العجوز حدّة، التي تم دفنها، يحملها ثُلّة من الصبيان والصبايا اللواتي قاربن سن البلوغ وقد غطين رؤوسهن.

أخذت هذه المجموعات تتوزع على بيوت الحي الأكثر فقرا بالقرب من المسرح الروماني المتموقع مباشرة قبيل التلال الأولى.

# II

قريبا منتصف النهار. تحت شمس جويلية، كان موكب الرجال البطئ يتوافد عبر الجادة التي تقطع المدينة حتى مشارف الميناء. وما يزال الشارع يتماوج بالحركة خلال الأيام السابقة على الحفلة. في منعطف يفضي إلى ساحة، كان المسجد ينتظر متوهّجا تحت فيض من الرايات.

عند المدخل، كان هناك رجال في سن النضج، هادئين، نظرتهم أكثر نفاذا، ذلك هو فضول الآخرين الأكثر بروزا منذ أسبوع الاستقلال هذا. إنّهم الحريصون على صلاة الجمعة، لكنهم أتوا هذه المرة من أجل حدة كذلك.

يلقبونها بـ "العجوز". هي من أجلّ الأتقياء الذين لطالما داوموا على حضور هذه المناسبة الدينية، وكانت معروفة لديهم بـ"الفحولة" وصدارة وجهة نظرها لدى الرأي العام النسوي وحتى صمتها الكئيب أوقات الحرب تلك.

ما إن عاد حسن («أية ولاية كان يمثلها في الاجتماع السياسي هذا المساء؟... أم أنه لم يرد أن يكون إلاّ مجرد مناضل مقاتل في الجبل؟»...)، حتى غادرت العجوز. وكانت أول من يغادر من بين المسنين بعيدا عن الحماس الذي عجّت به المدينة إلى حدّ النشوة.

مربّع المؤمنين. كان من بينهم بقاّل وسط المدينة وساعي البريد المتقاعد وبعض المزارعين الذين غادروا إلى المدينة وعمال القضاء والإدارة "الأهلية". كانوا حوالي عشرين رجلا ذوي شوارب رمادية ورؤوس صلعاء يغطيها طربوش أو قلنسوة رمادية- مُزْرقّة. كانوا ينتظرون ويتجاذبون أطراف الحديث.

من بعيد، ظهر الموكب، يَرَقَةً منحدرة. حاملو النعش الأربعة في المقدمة؛ أما النعش الذي كان يحمل الميتة فبَدَا وكأنه يطفو.

تساءل سعيد المزارع المستأجِر:

- كم مرّة نزلت هي نفسها هذا الشارع؟

كان **سعيد** يحمل النعش وراء الحفيد مباشرة، وكان، على ما يبدو، الجبليّ الوحيد حقا من بين أولئك الذين أتوا يشيعون الجنازة. كان نحيف الوجه، ذا شارب عريض ومتدلّ، وكان يرتدي نفس بدلة الحضَر ولكن شاشه كان مغايرا – أكمة مستديرة يلفّها شاش أبيض ينسدل رِفْلا خفيفا فوق الرقبة.

ذلك هو **سعيد** الذي نُسي وأُهمِل مع أنه كان الرجل الوحيد الذي تحدث مع حدة خلال تلك السنوات العِجاف...

كان يأتي من "الدشرة" مساء كل يوم جمعة، يركن شاحنته الصغيرة حيث كان ينزع، في الماضي، أسراج أحصنته ويترك عربته. ثم يقصد "الحمام" لينام في مكانه المعتاد منذ عشرين سنة. مع حلول الساعة الخامسة صباحا كان يحضر في افتتاح سوق المواشي. ومع انتهاء المعاملات وحزم شتى البضائع، يذهب لتناول الغداء الذي كانت تقدمه له العجوز حدة في غرفة من غرف البهو.

كانت تظهر عند تناول القهوة وتشكره على الأكياس والمواد التي كان قد جلبها ليلة الأمس. بعد ذلك، كانت تستمع إليه، وهو يتحدث عن الحصاد، وعن أخبار قريته الصغيرة بالجبل – زيجات ومآتم ونزاعات مختلفة...– ثمّ... ماذا بقي من أخبار تُروى، خلال هذه السنوات الأخيرة، غير المخاوف التي ترتعد لها الفرائص، وهاجس التقتيل، وأحيانا صخب المعارك القريبة؟ طيلة شهور كاملة لم يستطع المزارع المجيء، كان ذلك في فصل الربيع من السنة الماضية حين احترق القطيع بأكمله (خمس وعشرون خروفا وبقرتان هزيلتان وعجل صغير) في المرأب الأساسي. كان الجيش الفرنسي قد طوّق البلدة. عند رجوع **سعيد** إلى المدينة، كان يستطيع بالكاد اقتناء شيء من السكر والصابون ولفة واحدة أو لفتين من القماش من أجل النساء. خلال السنة الماضية، لم يستطع، إلاّ بالكاد، رؤية العجوز حدة أربع أو خمس مرات.

ولكن كانت تلك المرات كافية ليشعر بقرب أجلها، وكانت هي نفسها تحس بذلك:

- قل للصغير ...

- لا تنس أن تبيّن للصغير يوم يحين الأجل إن شاء الله...

- أما بخصوص سلالة أبناء العم من الحقل المجاور، فذكّر الصغير بأن الدعوى ما تزال مستأنفة....

كانت تقصد "بعد وفاتي" بإصرار لم تكن تصمد أمامه اعتراضات سعيد التقيّة («يما حدّة ستكونين، أنت، موجودة هنا!...»). كانت تواصل توصياتها، بما فيها الدعاوي المتعددة التي كانت تحضّرها لتعيين حدود الحقول والأملاك غير المقسمة مع سلالة أبناء العم وأبناء الأخ الذين يشكلون معظم سكان البلدة التي كانت سالفا تحت سلطة حدة دون منازع.

أصبح سعيد موضع أسرارها بشأن هوسها الإجرائي وعاداتها في إقامة الدعاوى. ولم يتجرأ، خلال السنوات الأخيرة، أن يخبرها بأن هذه الدعاوى كانت ستكلفها أكثر من قيمة قطع الأرض المتنازع عليها– هنا بضع عشرات من الآرات، وهناك أشجار من الزيتون ومنحدرات حجرية...، وسياج من الصبّار...، وأرض أبعد لا ينمو فيها سوى العدس والحمص.

واصل سعيد، باذلا مجهودات محمودة، لم تتفطن لها، في تموينها بالقمح والشعير لتحضير الكسكسي في فصل الشتاء، وبالخرفان التي تذبحها لصالح الفقراء في الأعياد الدينية، وأخيرا بالصِّيعان المألوفة في فصل الخريف من الحبوب الجافة، والفلفل المجفّف، وأكاليل من الثوم والبصل صالحة لتعلق في المخازن. كل هذا ليس فقط من أجل إعالة امرأتين، وإنما كذلك للاحتفالات أوالمآتم، وهي المناسبات للقيام بالأعمال الخيرية وتقديم الهبات لضمان السمعة.

قالت حدة:

- أُخرِجُها للجيران!

قالت الخادمة الشابة:

- خذي! "يمّا" ترسل إليك بواكير حصادها!

كانت النساء يَشْكُرنها من على أسطح البيوت المجاورة، ذاك أنّ غنى يمّا حدة المفترض لا يرقى إليه الشك.

كان سعيد يعتبر يمّا، في الوقت ذاته، أما –جليلة–، وربّة عمل – يصعب إرضاؤها أحيانا – وكـ... ؟ كـ"رمز لشرف المدينة"، كما كان يظن، وذلك لمعرفتها بالمسائل الدينية، وحكمتها في التعامل بالتقاليد العريقة واحتقارها للمكاسب الدنيوية. كان يشعر بمدى تمسك العجوز بمظهر الرخاء هذا رغم المصائب وحالات الجزع العمومية. وكأنّ هذا الغرور كان يساعدها في انتظارها للحفيد.

- قل للصغير...

- نعم، يمّا، أنا أُصغي!

- نعم، يمّا، أعدك!

كان يَعِدُ. وكانت هي، تحت خمارها، والمسبحة بين أصابعها، تهدئ بالكاد من روعها – ومع ذلك فإنّ وجهها كان أكثر ذبولا وأطول، وأنفها يبدو بارزا. كانت ثقتها بعودة الحفيد كاملة كما لو أنّ كل شيء يمكن أن يحترق في الجبال ما عدا الوريث الموعود. وكانت قد بدأت، بالكاد، تخشى أن تحلّ منيتها قبل لقائها مع حسن.

ظهر المسجد. فدخلت كتلة المؤمنين التي كانت متوقّفة عند الساحة. خلع البعض أحذيتهم عند الفناء وشرعوا في الوضوء.

في قاعة الصلاة، تحت الأعمدة ذات الأسس المغلفة بالديس الأشهب، كان ورِعون قد احتلّوا بعدُ الخلفية وانهمكوا في الصلاة... أما سعيد

فقد انحنى ببطء تحت ظل الأعمدة، بنفس حركات الكتف والصدر التي قام بها حسن أمامه، من أجل وضع النعش على الأرض. تلجلجت من حوله همهمات الحضور، عَذْبَةً مُميّزة.

أخذ مكانه في الصف الأول بجانب المصلين الجاثين. واهتزّ لذّة، اندهش لها هو نفسه، عند سماعه الصوت الصافي، الصوت المَشُوب بنوع من الحزن، صوت الإمام الذي كان يَؤُمّ المصلّين.

مرّت أكثر من سنة، فكّر سعيد وهو يتأتئ آية من القرآن- أي نعم، أكثر من سنة لم أصلّ هنا... آخر مرة كانت أيضا صلاة جنازة: جنازة شاب قُتِل خطأً، كان ابن عم زوجتي الثانية.

لم تكن تقوى سعيد العادية بحاجة أبدا للتحفيز ولا حتى للممارسات اليومية. وقد يحصل أحيانا، عندما تسمح الظروف، أن يصلي يوميّا بحماس مفاجئ- غالبا في شهر الصيام: حيث تقلّ نشاطاته، فيشعر بخفة في نفسه ويصبح يتردّد على "شيخ" القرية، عالم وافد من الشرق الجزائري، استقرّ بالدشرة لتعليم الصبيان مبادئ علوم القرآن... كان "الطالب" يجمع العقّال من القرويين الناضجين المعروفين بحسن أخلاقهم، يجمعهم خلال السهرات الرمضانية، ويغامر بالخوض في تفسير النصوص الدينية.

قطع سعيد علاقته نهائيّا مع ممارسي لعبة الورق والدومينو. هذا السلوك العاقل في القرية أكسبه دون شك تقدير يمّا له. مع أنه واجه فعلا، في إحدى المرات، حاكم الإدارة الفرنسية. (وكان هذا الأخير قد زعم فرض قانونه باستعمال العنف دون حتى استخدام عملائه التقليديين.)

كان على سعيد أن يبتعد حينها. في المدينة، حمته يمّا حدة. في السنة التالية، عُوِّض الحاكم الفرنسي، وبالتالي عاد سعيد إلى الجبل في سكينة متعالية، وكان اصطحب من منفاه، فعلا، زوجة ثانية، اضطرت الزوجة الأولى أن تتقبلها دون أن تظهر شيئا من مرارتها...

ظل سعيد، منذ ذلك الحين، مرتبطا بمصالح العجوز حدة، الأرملة وقتها والتي فقدت، من قبل، ابنها الوحيد الذي اغتيل رفقة ثلاثة من رفقائه المتظاهرين إبان أحداث 8 ماي 1945 التي أدمت البلاد.

انتهت صلاة الجماعة تحت الأعمدة، أثارت حركةٌ الحضورَ. وعند تلاوة القرآن من قبل "الحزّاب"، كان سعيد يستحضر، بشكل متقطع، بعض المقتطفات من الترتيل الطويل وعيناه مركّزتان على النعش.

ثم عاد ليغوص في الماضي وكان يقول ،وهو يستحضر السيدة بالتدقيق مرّة أخرى:

« يمّا حدة من يفكر فيك ؟»

استحضر لفظة "سيدة". وبالفعل، كان يحدث أحيانا أن يناديها أيام السبت، عند موعد القهوة، بـ"لالاّ" - أو "سيدتي"! وعندما يغادرها، كان ينحني بعض الشيء، فيأخذ بين يديه اليدين اللتين عرتهما الشيخوخة ويقبلهما بوَرِع.

وكانت حدة، المعتدلة في جلستها، والمرتدية لباسا أبيض، تباركه بالعبارات نفسها وبصوت شارد وهادئ. يصعد سعيد ليقود شاحنته الصغيرة المحمّلة، وهو يشعر أنّ بركة الجدّة تحميه طول الطريق الجديد الذي أعدّه الجيش الفرنسي، حتى وإن استلزم ذلك الوقوف عند الحاجز العسكري وقيام أحد الضباط بمراقبة البراميل والجِرار.

آه الوقت الماضي! يا له من وقت ضائع...

هكذا كانت رحلات العودة... إلى الدشرة حيث كانت زوجتاه بانتظاره، كل منهما في جناح من المنزل الواسع: الأكبر سنّا، ابنة عمه التي تزوجها ولم يبلغ العشرين من عمره، ولم تتعد هي الخامسة عشرة، وهي الآن في الأربعين من عمرها لكنها ما تزال بهيّة. كانت تُربي الأطفال الخمسة الذين أنجبتهم منه (صبي واحد للأسف، هو آخرهم).

أما الزوجة الثانية، سمراء تزوجها في المدينة، فكانت تقيم في غرفة بُنيت لها وراء البستان، وبها ساحة مغمورة بكروم وشجرة ياسمين ضامرة. كان يحبها منذ سبع سنوات كما أحبها في اليوم الأول، تلك التي حاولوا تشويه سمعتها، "الراقصة"، كما زعموا. وفي الحقيقة، كانت يتيمة وتمّ تشغيلها خادمة في مقهى "الإيطاليين" بالمدينة حتى سن البلوغ. تعرّف عليها سعيد صدفة، وقد أخذ بلبّه جمال قوامها الفاتن: كانت حينها شابة مراهقة، فقدّرت، بهدوء، قيمة المَنْزِلة التي كان سيمنحها لها هذا المزارع، على الرغم من مظهره القروي.

كان سعيد يتذكر يوم اتخاذ القرار: لقد أتى، حائر القلب، يستشير يمّا. فزواجه الثاني رهن بما تقوله هذه الأخيرة.

وقد أوضح حين تحدث عن السمراء:

- إنّها شابة نزيهة ومن عائلة فقيرة !

كانت يمّا حدة تبدو على دراية بالأمر دون أن يعلم كيف ذلك. في الأول، لم تقل شيئا؛ تركته يشرب قهوته، أرخت مسبحتها وهي تتأمّل، ثم سألت بإيجاز عما ستكون ردة فعل الزوجة الأولى. أجاب سعيد بعد تردد:

- حدثتها في الأمر!

ثمّ استأنفت بصوت خافت:

- «ربي عمّر لي داري وأعطاني خمسة أطفال لرعايتهم!». هكذا أجابت.

ردت حدة مذكرّة إياه بقاعدة العدل في القرآن.

- ربّي يخلّيك ليها!

خرج سعيد مطمئنّا: صحيح أن العجوز لم تبد ملاحظة بشأن الشابة الدخيلة، إلا أنها لم تُدنها.

في السبت الموالي، عاد المزارع إلى القرية مصطحبا معه السمراء مُتلفّعة بلحاف مشدود تلبسه العروس. ومن يومها وُهِب سعيد أطفالا آخرين، إضافة إلى الأطفال الخمسة الأوائل.

تنهد سعيد وهو يقف بضع ثوان بعد وقوف رفاقه وقال:

- مهما حصل داخل بيتي، فإنّ الحياة مستمرة!

خلال التأخّر الذي أبداه، استبقه مجهول كان على مقربة منه وأخذ مكانه ليرفع نعش الميتة بمعية الحَمَلة الآخرين.

عند الخروج، التحق سعيد بالصف الأول للموكب الذي تشكل ثانية في ساحة المسجد.

تفرق حشد من المرافقين في هذا الوقت- بعد أن أشارت عقارب الساعة إلى الساعة الواحدة زوالا. شمس حارقة. آن الأوان للإلتحاق، في أسرع وقت، بالمائدة العائلية الجاهزة لتناول الطعام، ثم بالفراش للتنعم بالقيلولة الندريّة.

وجد سعيد نفسه في مقدمة موكب تناقص عدده قليلا وتحرك باتجاه زقاق تعمه الحركة، وصولا إلى المقبرة.

أخرج سعيد منديلا كبير الحجم، ومسح على جبينه ثم على حافة عمامته المزعجة. مرّر يده تحت القماش الذي كان يحجب رقبته. أخذ يمشي على غرار الآخرين؛ وبجانبه شيخ يُهَمْهِم، بصوت مرتجف، مناجاة غير مفهومة.

ولأنه لم يعد يساهم الآن في رفد الحمل الجنائزي، صار يشاهد التقدم البطيء للجثة المكفنة حتى مستوى العينين. كان النعش منحنيا نوعا ما بسبب الزقاق الذي يتصاعد باتجاه بعض سفوح الروابي، فأصبح يشعر حينها بحضور العجوز حضورا أكبر.

لطالما فرضت عليه وجودها. كانت شبيهة سيدة سوداويّة ؛ نظرتها مُرهِبة: لم تكن تتبسم أبدا. كانت تصوب نظرها إلى الناس فجأة. نظرة ثاقبة، ما تلبث أن تفقد اهتمامها.

كان صوتها، وهي تتحدّث إلى شخص مخاطبة إياه، صوت مجهول... غالبا ما كانت ترتدي الأبيض... كان **سعيد**، وهو طفل، يذهب لاستقبالها رفقة كلّ أطفال القرية... كانت يمّا حدة تصل حينها على متن حصان وهي تفرض الاحترام على هؤلاء الجبليّين الذين كانوا يعرفون أنها من بني جلدتهم. وفي الأيام التالية، كانت تستقبل أقرباءها: أبناء الأعمام وأصهارهم، بما في ذلك أولئك الذين كانوا في خصام معها لدى العدالة.

كانت تبدو له كواحد من صقور الجبال بفعل أنفها ذي العظم الناتئ وعينيها المكحلتين والمتباعدتين عن بعضهما قليلا. عينا طائر حقا. عندما كانت الفارسة الجليلة تصل من المدينة، في فصل الربيع، وتحضر الحفلات الدينية المهمة، كان كل واحد ينحني لها ويقبّل يديها. أو لم تكن تمثّل، من جهة زوجيها المتعاقبين، كل السلطة، المفلسة في حقيقة الأمر (مصادرات ثمّ تجزءات متعدّدة)، سلطة إقطاعية فيما مضى، لازالت محافظة على كبريائها، كبرياء تحيط بها كل الرعيّة في وجه الإدارة الأجنبية.

«زوجان»، يتذكّر **سعيد**... ردّد على مسامعه ما كان يعلمه دائما وهو الذي كان صغيرا جدا بحيث يتعذّر عليه أن يتذكّر بنفسه الزوجين.

كانا ابنا عم شقيقين: ترملت من زوجها الأول بسرعة لأنه اغتيل يوم أن استضاف مجهولا عابر سبيل. قدم له الزوج الغذاء بنفسه في وسط الدار تحت أشجار التين وبعيدا عن غرف النساء، حسب تقاليد الاستضافة في الدشرة... بعد أن شبع الضيف، أطلق عليه النار في ظهره، ثم تمكّن من الهرب عبر البساتين. هو قاتل لم يُعرف اسمه أبدا، أمّا السبب فمعروف: منع الإدلاء بشهادة ذات وزن تخصّ مسألة قضائية بالمدينة.

في السنة الموالية، تزوج ابن عم الزوج الأول الأرملة الشابة التي كانت قد أنجبت طفلا... لكن، بعد مرور بضع سنوات، اندهشت حدة فجأة، بل صُدمت: كان زوجها الثاني، وهو رجل وسيم حقا، يعشق الراقصات في المداشر المجاورة ويقضي أغلب الليالي خارج بيته. ولما كانت زوجة مُهملة، قررت المغادرة وذهبت لتستقر بالمدينة. نعم، كانت امرأة وحيدة وتبلغ من العمر أقل من أربعين سنة! استفاد، في الحقيقة، من نصيبها في القسمة، بل حصلت على حق الانفصال الجسدي. أما الزوج، وبعد مساع وتوسلات أطاحت من قدره في القرية، فقد عاش حياة ماجنة، وانتهى به الأمر أن لقِي حتفه بسبب مرض السلّ الذي يصيب الشباب، المرض الذي تفاقم بفعل السهرعلى وقع الموسيقى والجديب.

ألقي سعيد نظرة من حوله؛ كان الجمع كله مدنيين يبلغ معظمهم الخمسين سنة، إنه جيل المهانين مثله هو ... «قطيع يُستغل، يُباع ويُجزّ من قِبل فِرنسا (كان يقول "فْرانسا"، كما لو أنّ الامر يتعلّق باسم امرأة). أما اليوم فالجبال تَغلي، والريح تغمر الشوارع والجدران بالرايات، إنّه مرتع الانتصار، والكل: هم، أنا، نحن، كنا نخفي بصعوبة شُعُو...»

بحث عن كلماته واكتشف حرجه، فعاد إلى النعش الذي يحجب الأفق على مستوى عينيه.

دخل سعيد مع الموكب إلى المقبرة الشبيهة بحقل ربيعي، وهمس:

- لم نعتد على هذا!

- "استقلال"، استقلال، هل هو الوحيد الذي تُثْمِله الكلمة؟

صارت "يمّا" أرملة للمرة الثانية، فعادت إلى الدشرة، واستعادت ملكيتها: مسكن بالٍ قرب التلال وبجوار بساتين على امتداد النهر. تمكنت، بعد بضعة أشهر، من اجتناب تشتت الإرث...

كانت ترتدي لُحُف الأرامل، بدلة حريرية طاهرة، وجهها كما وجه الصقر بتلك النظرة السوداء المُلِحّة. جلبت يمّا حدة منذئذ انتباه القرية بفعل قسوتها، وبفعل حزنها وكآبتها.

إنّ العقيدة نفسها، كما كنا نمارسها وقتها، كانت تخضع لتأثير حدة. فقد ألفت امتياز وبيع شتّى النعم التي استفادت منها عائلتها حتى ذلك الحين. وكان يُذبح، في المقابل، كل سنة حوالي عشرين كبشا من بين الأسمن في القطيع، بأمر منها وبحضورها، بمناسبة ذكرى عيد الإضحى. كانت الهبات، في شكل قطع اللحم، ترسل نحو الأكواخ الأكثر تواضعا... وفي الأيام الموالية، كانت كل جِزّات الكباش تُغسل في المنبع قرب القصب. تذكر سعيد متعة صغره آنذاك – خوض الماء عاريا حتى الحزام في الأنهار المبيضّة بفعل الرغوة المُصَوْبنة... هنا أيضا، تظهر يمّا حدة، وكأنّ المهام الجد عادية تصبح مهام نبيلة. كانت تمعن النظر في البدويات اللواتي كن يغنين بين التلال، رؤوسهن مغطّات وسواعدهن مكشوفة ...ذاك زمن مرح مباغت وبهجة مترددة كانت تتأملها حدة، السيدة الكئيبة.

ثم كانت ترجع إلى المدينة. يبقى الصمت يغمر بيتها بالقرية والباب مقفل. وحده البستان والمخازن والأغنام تبقى تحت حراسة خادم... كان سعيد الشاب يحوم. ففي الطرف الثاني من الرابية، غير بعيد، كانت السهرات الماجنة يمكن أن تُستأنف. تظهر بعض الراقصات اللواتي أتين من الجنوب، وبعد المغرب، يبدأ الضرب بالدف من جديد في نفس المكان الذي قدمت إليه الغسالات فجرا. كان القمر يضيء حيث يتجمّع الرجال، حوالي ثلاثين رجلا على اختلاف أعمارهم؛ التحق بهم سعيد مرة أو اثنتين.

جْديب وموسيقى وموسمات: وبالنسبة إلى سعيد المزارع، يتلخّص جنون الشباب في بعض هذه السهرات، حيث يجتمع، كالسارق، بالمجموعة الخليعة. كان بعضهم يعتبرون من بين الأتقياء المعترف بهم في القرية، مع أن زوجاتهم كنّ على دراية بتواجدهم في هذه اللقاءات. كانت تسلب عقولهم خمس أو ست راقصات شابات، ذاويات أحيانا لكنهنّ شبقات. وكان الذكور يدخلون في منافسة جنونية حتى ينالوا حُظْوتهن...

عاد سعيد إلى يمّا حدة الجامدة وغير المنفتحة على غبطة الآخرين. لقد قيل، فيما مضى، أن زوجها الثاني كان يلف أوراقا مالية ليشكل سيجارا (مع أنها لم تذكر ذلك أبدا)؛ ويدخن هكذا ثروته كالملوك حتى يفوز بأجمل مومس عابرة، ويقضي ليلته في أحد البساتين، ثم يظهر في اليوم التالي في بيته المهجور، ويظلّ هكذا لعدة ليال متتالية قبل أن يلتحق بالمدينة ويتوسّل إلى تلك الحَضْريّة، الخليلة الوحيدة والحقيقية التي كانت ترفضه. كان قد توفي بفعل تبديد الأموال كما بمرض السلّ. ومنذ ذلك الحين، صار الجميع يدعو الأرملة بـ «يمّا»، هذا الترمل أو الوحدة جعلتها صلبة دفعة واحدة. بعد ذلك بقليل، التحق سعيد بخدمتها. شعر إثر ذلك بالتبجيل ورغب، وهو شرف ما بعدها شرف، في الزواج بابنة يمّا. لم يتجرأ أبدا أن يعلن عن ذلك: زُوِّجت من رجل في المدينة، توفيت عند الوضع، أمّا الطفل، حسن، فقد ربته جدته. وحتى في هذه الحالة، لم يشهد سعيد أي خَوَرٍ لدى حدة، ولا حتى بفعل الشيخوخة. كان يراها تمثالا ثابتا لا يتزعزع.

- جميعنا بسطاء، راضخون، و...

لكنّه كان يستبعد حدة. واليوم، وكأنّ تاريخ المدينة الأصيل هو الذي يُحمَل فوق النعش وعبر الشوارع ... ولأول مرّة، لم يفكر سعيد في مكان غريب وهو ينطق كلمة "المدينة". كان بالأمس قد عبّر، همسا، عن رغبته أمام حسن في حمل الجثة إلى الجبل، "إلى قريتنا". حدّق حسن في وجه المزارع وقد فوجئ بهذا الطلب وبالوفاء الذي يعبّر عنه.

أجاب:

- نواريها التراب هنا أم هناك... أيًّا كان المكان، فهي أرضنا، ...

ماذا كان يفهم الشاب؟ هذا الماضي عديم الأهمّية الذي أصبح يتبدّد كالضباب. إدراك أنّ وفاة امرأة عجوز في السبعين من عمرها، ثمانية أيام بعد الاستقلال، هو أمر غير قابل للتصرف في هذه القرية؛ هذه القرية المدمرة جزئيا ...

ثم عاود حسن السؤال:

- هل رغبت في ذلك؟ هل علمت شيئا عنها؟

عاد صوت الجدّة، كان المزارع يسمعه بوضوح: «قل له... قل له...»

فكر سعيد ...«الأموات يتكلمون، أؤكد ذلك...، ولكن إذا لم تقل لك ذلك... هل عرفتها! هل تعلم أنّ قلبها المتوحش داخل جسدها المعقود يظل هناك... أنت، يا بطل الجبال!»

فكر سعيد في الكلمات الأخيرة بنوع من السخرية وسرعان ما لام نفسه على ذلك. وأجاب على سؤال حسن وهو يتلعثم... إلاّ أن المحادثة بين الرجلين ظلت معلّقة... ردّد سعيد متّهما: «الأموات يتكلّمون»؛ كانت السنوات التي مرت على مخيلته تمر من وراء ظهره. الجنّة وحدها، هي الآن توضع على الأرض من جديد.

تقدم رجل من الموكب لدفع باب المقبرة. فرفع الحَمَلة النعش، ثم توزّع اللاحقون بهم بشكل عشوائي إلى غاية الحفرة هناك، أَكَمة من التراب النَّديّ من على الجانبين.

توقف سعيد، ثم اتكأ على شجرة التين الهزيلة. عرف عندها في آخر المطاف أن الماضي قد ولّى، ليس حرب الأمس واهتزازاتها فحسب، وإنما طعم الحياة الحاد، طريقة في الإنعطاف خارجا، الجلوس أمام سيدة مُرْهِبة، واستنشاق الهواء في كوخ. كان كل شيء قد بدأ، من يُدْفَن، امرأة عجوز؟ الحزن هو الذي يُدفن ونبلها كذلك وصرامتها الشّديدة.

كان المزارع أول من خرج من المقبرة، لاحظ ذلك بعض برجوازيّي المدينة الصغار. كما لاحظوا، في الأيام التالية، أن حسن، الوريث، لم يكن يعتبر نفسه وارث أي شيء ولا أي مِلْك ولا أي قطعة أرض، بل وارث كلام الأموات؛ رفقاءه الذين اضطر لدفنهم دون شك بأعداد كبيرة خلال ماضيه القريب المضطرب.

# III

كانت المقبرة في سبات. وكان كل مرافقي الموكب يغادرون، بعضهم فرادى، والبعض الآخر في جماعات صغيرة. أما حسن، فكان واقفا ينتظر "حفار القبور" حتى ينتهي من عمله.

عمل نبيل، هكذا فكّر. كان باستطاعته أن يقترح على حفّار القبور: «أعطني المسحاة "خويا"، أنا أيضا أعرف كيف أقوم بذلك... أنا أعرف!»

تكرار للحركات نفسها كما جرت العادة: لمن كان أو كانت أمام الفرن، يهمّ بإدخال قطع الخبز بحركة كبيرة بواسطة الكوع، للعجوز التي لا تبصر جزئيا والتي ترفع ذراعها لتقطع الحبل السّرّي من على بطن المرأة التي تلد، للرجل الذي يطوي كتفيه وهو يسقط أرضا عندما يتلقى الرصاصة القاتلة، وفي الأخير، للذي سيُهيل التراب بالمِجْرفة على وجهٍ آيلٍ للتعفن، على شكل الجثة الهشة ...

في هذا الوقت بالذات، وفي وقت ما زال فيه القبر مفتوحا، اتسعت الثورة فجأة وغارت... لكن الإنسان الذي يجد نفسه متمددا في القبر أيا كان، عندما يشرع أخوه الحيّ في القيام بتلك الحركة القاسية – قاسية لكنها لطيفة («...أيها التراب غطّي، أيها التراب حلّل، أيها التراب أخرج يرقات الأموات، أيها التراب... أمّي!») – ، حينها تتلبّس به السكينة، تُبْليه أو تُقسّيه حسب الحالة.

ترك حسن حفار القبور يغادر. بعد أن وضع بعض النقود في يد هذا الرجل الذي يشقى في العمل، فيدعو له دعوات صالحات. هو الآن وحده أخيرا أمام الجدة؛ وحده بعد خمس سنوات من الصمت.

أخذ حسن يردد بغيظ: «لقد توفيت». هل يحنّ إليها؟ ولِمَاذا؟... كان من حسن الحظ أن وجدها حيّة الليلة السابقة، لكنه كان يعرف أن رغبتها في الانتظار كانت الأقوى... خمس سنوات على أية حال!

خلال الأيام الأخيرة هذه قدّر حسن الوقت. لخّصه آخرون في "سبع سنوات"، كما يُقال في القصص القديمة والمطابقة للمألوف: "حرب السنوات السبع"، "حرب المائة سنة"؛ "حرب التحرير" الصيغة النهائية هنا: تحرير الديكور والآخرين، لكن ...

حسن وحده الآن، تفطن إلى أي حدّ أثقلت هذه المراسيم كاهله منذ الصبيحة؛ قدر هائل من الناس، من الذهاب والإياب، من الكلام، من التسكع... لماذا؟ ... لأن الجدة أخلدت إلى النوم؟

«كانت الوفاة، سالفا، تفرض كل هذا القدر من المظهرية!، كان ذلك سالفا، يقول في نفسه بهزّة انفعالية.»

كنا نستقبلها بحذر شديد، نجيبها عندما كان وجهها الكئيب يُظلِم بيتا فجأة أو يحدث خرقا في الشبكة العائلية، نجيبها بكلمات من القائمة المعهودة، وبدعوات جماعية، وبتهدات نسوة.

ردد منتفضا: «فيما مضى! ...»، ثم أدار ظهره للقبر الذي اكتسى رطوبة رمادية.

كان الشاب البالغ من العمر ثلاثين سنة – ذو المظهر المكتئب، والوجه المألوف، والشعر المجعد بعض الشيء وقد أصبح بعدُ رماديا- أبيض، والملمح القصير – البدين نوعا ما – قد خطى بضع خطوات في حديقة الموتى هاته: أزهار نادرة، عشب أحرقته موجة الحر، بعض أشجار الزيتون الملتوية التي مازالت منتصبة في زاوية من الحديقة؛ وهناك بالأخص، وبالقرب من جدار متهالك، يتمتّع الواحد بمشهد استثنائي بجماله، مشهد الحي والميناء. وفي الخلفية، البحر المتوسط.

تعرّف حسن على المكان، بين الجدار والقبة التي كانت تبدو له سالفا مَعْلما تذكاريا ضخما لم يتبق منه اليوم إلا الحطام: ذلك الركن الذي كان يلجأ إليه طفلا، حينما كان يرافق يمّا حدة كل يوم جمعة. كانت تجيء لتحني أمام قبر ابنتها – كان الصبي يبتعد عن المقابر، إذ

لم يكن يحبّ أبدا سماع تلاوة الصلوات المُمِلّة والمحادثات التي كانت تغرق فيها عندئذ كل امرأة مذهولة أمام الموت.

كانت إحدى الجارات التي ترافق العجوز تلقي اللوم عليه قائلة:

- هلمّ تَدْعُ لأمك أمام قبرها!

ابتعد الصبي، وجد المكان مألوفا، بالقرب من الجدار المقابل لمبنى القبة – الضريح الذي كانوا يزعمون أنه ضريح أحد أولياء الله في القرن الماضي.

اتكأ حسن، كما كان يفعل في الماضي، على الجدار متأملا المدينة الصغيرة: منظر مصغّر حافظ على جماله القديم البسيط إلى حد بعيد، الموجود في قلب سيرك روماني على شكل عين ضخمة مفقوءة، مصنوع من الحجر الأصهب. هي على ما يبدو أطلال سبّبتها كارثة حدثت مؤخرا. أما البلدة البيضاء فلم تتغير، ولكن يبدو أنّها أضحت مغمورة بجوّ جديد. وأمّا الميناء فصار يبدو الآن وقد تقلّص إلى أحجام بسيطة جدّا، وبه حوالي عشر قوارب وزوارق صيد متوقفة، منارة عتيقة في الطرف الآخر، وذاك الخمود شبه الأبدي.

اتجه كل السكان، خلال السنوات الماضية، في الاتجاه المعاكس، نحو هذه الجبال الجدباء التي كان يفد منها في السابق قرويون حفاة، وهم يحملون سِلالا من تين العلق أو من فول مجفف، تنبعث منها رائحة جديدة قد تطرد ماضي المدينة الزَّنِخ التي طالها التقهقر من فترة بعيدة.

« من الجبل نزل موت ساخر، خفيف مثل هذه الأماكن، موت بأجنحة الانتصار!...»

خرج حسن من المقبرة، وهمّ بغلق الباب وكأنه يخرج من منزل كان فيه ضيفا. ودون أن ينظر خلفه، نزل عبر المنحدر الحجري الذي كان يقوده إلى الأحياء الجوارية الأكثر حرمانا في المدينة. وحينها فقط تساءل بشأن الجدة:

- «ماذا أراد، هذا المزارع، أن يقول لي البارحة... ذاك الذي عجزت عن جعله يتحدث؟ ... كان أكثر تأثرا مني، صحيح !... كان يحبّ بمّا حدة.»

كان حسن يلاحظ بلا انفعال، ويشعر بجفاف الذهن. كان يمكن أن يعرّف نفسه باعتباره "آلة تسجيل". وكان قد شهد، دون انفعال تقريبا، موجة الفرح التي اجتاحت العاصمة خلال الأيام السابقة.

قطع المدينة، وحرك رأسه بسرعة مرتين أو ثلاثا ردّا على تحايا وجهها له بعض أصحاب الحوانيت. "الرجوع إلى البيت"... ألزم نفسه بهذه القاعدة وكأن القانون كان يثقل كاهله. استبدّ به الملل أمام القرارات التي كان عليه أن يتخذها: عائشة وابنها، ماالعمل بشأنهما، كان متيقنا أنها لا تقدر على البقاء وحدها في البيت... وهو الآخر هل كان يعرف أين يذهب؟ لم يعد، منذ زمن، يأنس لأيّ مكان، غير أنه قنع مجبرا بالتأقلم مع أي مكان شريطة أن يقدر على رؤية الجبل كلما رفع عينيه نحو الأفق، أن يرى قممه العَتِمة، وخط ذروته، وكأن في ذلك نقاهته.

دفع الباب ودخل بعد أن أطلق سعالا خفيفا، ثم صعد مباشرة إلى الطابق الأول دون أن يدعو أي أحد. عند وصوله، سمع حفيف فساتين وهمسات: الجارات اللواتي لا زلن يقبعن هناك كنّ يختفين. طأطأ رأسه وصعد السلم الذي يؤدي إلى الغرف التي كانت تحجزها له العجوز حدة.

منذ أمس، وجد في إحدى الغرف، مكتبه الذي يعود تاريخه إلى مرحلة الثانوية، به أدراج مكتظة برسائل قديمة. لم يبحث عن أي شيء؛ كان بالكاد قد تأثر بسطر أو سطرين خطّهما فيما مضى – هي رؤوس أقلام دوّنها في مفكّرة مضى عليها خمس عشرة سنة- . لم يكن يميل إلى التنقيب عن نفسه! لقد ترك ذلك إلى حين، إلى ساعة التوضيحات والحسابات...

دخل إلى الغرفة نفسها، لامس بيده كتابا أو كتابين كان قد سحبهما أمس من الرفوف، في الوقت الذي كانت فيه العجوز تلفظ أنفاسها الأخيرة، في الطابق الأرضي. تمدد على أريكة وكانت الغرفة تبدو باردة نوعا ما: ذلك لأن الستائر كانت مسحوبة منذ الصبيحة، وفي آخر الغرفة توجد خزانة ضخمة تَنْبعِثُ منها رائحة النَفْتالِينْ. في الحائط المقابل له، هناك لوحة ساذجة كالتي توجد في كل البيوت المتواضعة، تمثل "إبراهيم" وابنه "اسماعيل" ووجه "جبريل الملك" ؛ لوحة كان هو الذي ثبّتها بنفسه سابقا في هذا المكان: كان ذلك، بلا شك، خلال الفترة التي يقبل فيها على الفولكلور من أجل إخفاء قلقه. تأمل الصورة بقلب جاف، بل أكثر قساوة.

ثم أدار جسده المنهك على الجانب وحاول جاهدا أن ينام.

*أنا، الصوت المجهول الذي يرافق الموتى، الضباب غير المرئي الذي يرافق كل حالات الفراق، الركام الوهمي الذي يستعير الإختلاجة من الاحتضار، وإرواء الغليل من النّفس الأخير، وإذن من نظرة حدة الأخيرة – قناع من الشمع – عين فاغرة عند دخول حسن –، أخلص أحيانا، وقد فقدت الأمل، إلى: أننا، في كثير من الحالات، لا ندفن في الجنائز من نظن أننا دفنّا.*

*أكيد أن الميت يرقد في الانتظار، يحمل رغبة حادة (البعض يعذبه في زمن الإجراءات والمراسم)، الرغبة في التراب، الرغبة في رملها الذي ستتغمر فيه كل المسامات شيئا فشيئا، الرغبة في الماء الكامن فيه الذي، ما إن يرمي حفار القبور آخر مجرفة، حتى يبلّل ظهر وجمجمة البشر الذين رجعوا في آخر المطاف إلى طبيعتهم النباتية. ما إن يعمّ صمت المقابر المغلقة – عزلة سعيدة –، حتى يتنفس الميت لآخر مرّة تنفس الصعداء الذي لا تنتبه له حتى يَرَقات الأرض- المرأة. عندها يبدأ سقوطه نحو الهاوية – نحو انحراف مثير وغرق تدريجي...*

لكن، هل من حاجة للبوح بذلك، فأنا لا أتحدث سوى عن موتى هذه أرض الشمس هذه، عن أولئك الذين، لحسن الحظ، لا نحبسهم داخل علب مرصصة. لا ننتظر أبدا حتى يتعفن الحطب، حتى يُميّع الرصاص ليحفظ للموتى أخيرا خلاصهم الحقيقي، ذلك الذي يسترجعون به شكلهم الأصلي، دون ملامح ولا شخصية، وحيث ينْسبك النباتي والذاكرة الإنسانية بطريقة عجيبة...

إذن، أنا هو الصوت الجماعي الذي يروح ويجيء، من هذا الحضور النفقي إلى ذاك، من ساكني الأعماق، في تجويف أذن الكوكب الضخمة، الصوت الذي يروح ويجيء، يلامس هذا ويطوّق الآخر. من سيتساءل لم يتكلّم الأموات؟ أطفو إلى السطح، أطوف، الاحق حيا، أسحر بريئا، وأجعل شيخا يعج بالطفولة، وأخترق بالأخص كهلا ذا صحة جيدة، غافلا، مرتدّا تماما أو يرغب أن يكون كذلك...

دفن العجوز حدة...: حدث تافه، إرتداد أمواج في عالم قد غرق نصفه بعد الحرب وربما أكثر مع موجات بداية السلم. العجوز حدة: لما وُلدت، في القرن الآخر، في هذه القرية حيث ما يزال سعيد المزارع يقطن، عمّر جيل الهزيمة هذه الزاوية من الأرض... الجزائر... مكان في الأرض حيث اتسع الحد الغامض للوقت كل لحظة (خمس سنوات، أو عشر أو خمسون...)، وشحذ القلوب والأجسام ... متواضعون هم الناس، عميق هو البؤس؟...

كبرت حدة الشابة في خضم هذا الحنين، كان جزؤها النسوي عاديا، يتخلّله تبجّح غير منتظر، ولكن مسار الحياة، بأكملها، فيه تعرض للتغيير... حياة ريفية يشوبها هذا الرفض المفاجئ – رفض محتشم على كل حال – ولكن حينها رسمت ملامح الوجه: ملامح سيدة غامضة من أصول نبيلة مستعادة، قناع الكبرياء الذي ما عاد يظهر كذلك، لكنها ملامح انتظار حقيقي، وأمل صعب المنال...

*أنا مرافقة الموتى أختصر، قدر المستطاع، لأجل العجوز حدة، معالم حياتها.*

*من المؤكد أنها جنازة بلا جلبة، ولكن كآبة ابنة العم المسكينة وحلم مزارع في أحد المواكب يستمران، في وقت تتركّز أنظار الشهود على الحفيد فقط. بينما يتربع على قلبه امتداد قاحل، أسوأ من النسيان.*

*ولكن الأموات يتكلمون. يهمس صوت العجوز بالقرب من عائشة، يلامس بوفاء ذاكرة المزارع. هل سيُدْرك الرجل الذي توجّهت نحوه آخر آمال حدة؟ لا شيء.*

*أمّا حسن، "بطل الجبال"، هكذا كان يسميه رجل يشعر بالمرارة يدعى سعيد، فقد استلقى على الأريكة في الغرفة، وهو يُدير جسده المنهك على الجنب. كان يرغب أن ينام.*

*أنا الصوت الذي يترنّح، الذي يسري من شخص لآخر، الذي تسيل، على حين غرة، في قلبه المهزوم ذكريات وهمسات عتيقة وموسيقى، أنا الذي، إذا مرّت الساعات وأحيانا الأيام بعد الدفن، أتردد في الرحيل وأبقى أتسكّع مثل سِكّير يبحث عن طريقه، وأقيس، في حضرة نائم أمامي على الأريكة، المسافة التي يتعذّر تخطّيها بينه وبين حدة النائمة كسيدة معتدلة بينما يبدو رأسها كرأس وحش نُهِش جلده... لا شكّ أن الأموات يتكلمون، ولكن من يمكنه أن يدرك هذا اللّبس؟*

في الأيام الموالية، ألقى العديد من المسؤولين خطابات مدوّية في الحي الذي كانت تتربع على عرشه يمّا حدة، وذلك حول وضع النظام الجديد، حول تشييد المجتمع المنهك والذي صار حرا. وكان بينهم حسن الذي تحدّث: كان ألفان أو ثلاثة آلاف شخص ينصتون في الساحة، ومن بين الحضور شغل المكان الخلفي عدد كبير من النساء وشكلن موجة متحركة من اللُّحف البيضاء.

تحدث مطوّلا عن الموتى، كل الموتى المدفونين في العُلّيق، ضحايا المعارك، ضحايا المجازر، «كل الموتى الذين سيظلون أحياء» كما كان يقول. وقد حقّق نجاحا دام مطوّلا إلى درجة أنّ زغاريد النسوة تعالت في شكل التواءات فاترة من الساحة الكائنة فوق الميناء حيث عُقد االتجمّع وإلى غاية المقبرة التي التحقت بها عائشة لتختلي بنفسها. كان ذلك اليوم السابع بعد وفاة "يمّا". وكان بجوارها ابنها –البالغ من العمر خمس سنوات الآن- يتأمل من أعلى الجدار منظر المدينة وقد أكسبتها بقع التجمّع المتحركة والملونة ألوان قوس قزح.

*1970 و1978.*

# يـوم رمضـــاني

يطول الوقت أيام الصيام، يعم الصمت البيوت ويصبح الظلّ شفافا ويهن الجسد.

بدأت **لاّ فطومة** الحديث قائلة:

- الوقت يجري، الفصول تجري!

**همهمت نجية:**

- رمضان يجري، يجري!

- سترون حينما يجيء رمضان شتاء! لطيفا ناعما كالصوف- قالت **لاّ فطومة**، وبرزانة وهيبة عادت لأشغال البيت.

- أذكر ذلك، تمتمت **حورية** أكبر البنات، أذكر عندما صمت رمضان لأول مرة وأنا بنت العاشرة، كان ذلك شتاء!.

- لا، في فصل الخريف، صحّحت الثانية: كان البرتقال لا يزال أخضرا إذّاك، أنا متأكدة! كنت بنت الثامنة وقتها وكنت أصوم يوما بيوم.

كانت **نفيسة** تتأمل أخواتها دون أن تتبس ببنت شفة. كان الأب قد خرج، و**لاّ فطومة** تؤدي الآن صلاتها في ركن من "بيت القعاد" الواسعة، في حين كانت **نفيسة** تكوّم جلود الخراف التي استعملت للقيلولة. كانت الأخريات تتشطن، ولكن في فوضى، بسبب تغيّر عادات تدبير شؤون البيت أوائل شهر رمضان.

«يطول الوقت، يعم الصمت البيوت ويصبح الظلّ شفافا ويهن الجسد»: من جديد، راح ذهن **نفيسة** يحلّل، ثمّ يتوه بلا مبالاة في الذكريات- في الماضي، خلال الفصل نفسه، لمّا كانت هي ونجية متشوقتين للصوم

(متى ستحصلان أخيرا على الإذن بذلك؟ كان أفراد العائلة يرفضون إيقاظهما في عزّ الليل لتناول وجبة السحور) في الماضي، كأنما كان ذلك البارحة...

بالأمس كانت **نفيسة** في السجن...لقد قضت شهر رمضان وسط محبوسات حقيقيات، في سجن بفرنسا حيث حجزت ست نساء قيل أنهن"متمرّدات" وسيحاكمن.

لقد بدأن الصوم بنشوة المتنسّك: اختفت الأغلال وامّحى المنفى، وتحرر الجسد الذي كان يلُفّ في الزنزانة، ولم يعد فجأة يرتطم بالجدران؛ انضمت لشعيرة الصوم فرنسيتان، تمّ توقيفهما لانتمائهما للشبكة نفسها، ورغم أن الحساء الذي قدّم لهنّ وقت المغرب لا طعم له، مثل الراحة التي كانت تتمدد بعد الساعات الرمادية، مثل ترانيم السهرات، رغم الحراسة، يبدو الجسد وكأنه يعبر البحر ليلتحق بجبال "البْلاد"!

- إنه أوّل رمضان بعيدا عن الآلام ! تمتمت **لاّ فطومة** وهي تدخل مطبخها.

- ورغم ذلك لا يزال يلفّه الألم ! تأوّهت **حورية** بصوت خافت.

لم يسمعها أحد سوى **نفيسة** التي كانت تتظاهر بالقراءة. ثم رفعت عينيها صوب التي تكبُرهن سنّا: أرملة رغم أنها لم تتجاوز الثامنة والعشرين.

- يا ليته خلّف لي طفلا، ابنا يُحيي صورته! ... ظلت **حورية** تشتكي طيلة شهور.

كانت الأم تعقّب عليها: «أنت تجهلين مصاعب تربية طفل في غياب الرجل، إنك لا تزالين في ريعان شبابك، سيرزقك الله زوجا آخر، وسيعمّر بيتك بوفرة من الملائكة الصغار».

فردّت النسوة بصوت واحد: «إن شاء الله !»... وبدأت رائحة الفلفل الأحمر المحمّص تتصاعد من المطبخ.

- الرابعة بعد! لم تبق سوى ساعتين قبل آذان المغرب.

- لم أشعر لا بالجوع ولا بالعطش! تعجّبت نجية وهي تلتف حول نفسها بنشاط، ظنّت فجأة أنّها في حفلة فأشعلت الراديو ورسمت خطوة راقصة.

- آه ! الصوم وسط الفرح والضحكات... يا لها من مكافأة مزدوجة! قالت بسرور زائف.

خرجت حورية في خضمّ موجة من الحنين. أمعنت نفيسة النظر مطوّلا في أختها الصغرى: تبلغ من العمر تسع عشرة سنة، ذات عيون تشتعل كبرياء ونحافتها تكاد تثير القلق.

- عليك أن تكوني أقلّ صخبا! نصحتها أختها وعلى وجهها نصف ابتسامة متسامحة..تذكرت حورية.

- أنا أيضا أتذكر! لقد عرفت مرارة السجن تماما مثلك، ولكن هنا في هذا المنزل الذي تجدينه أنت رائعا.

كان صوت نجية خشنا، انتفضت، ضحكت بالكاد بطريقة حادّة، ثمّ توقفت عن الحركة في مواجهة لنفيسة ومستعدّة لشجار جديد.

- دعينا من ذلك! تذمّرت نفيسة وهي تعود للقراءة.

- سَيُبطِل الغضب صومك! تدخّل من عتبة باب المطبخ صوت لاّ فطّومة المرِح.

كانت ذراعاها عاريتين، تخلصت ببساطة من صدار الأورجانزا الذي كانت ترتديه، وبقيت ترتدي قميصا مزدانا على الطريقة القديمة. لقد انتهت لتوّها من دَلْك عجينة الفطائر، وقد تورّد وجهها بفعل هذا المجهود، وخرجت لتغسل يديها في حوض الفناء. أصبح المنزل مملكة نسائية، فالأب لا يعود إلاّ عند غروب الشمس، دقائق قبل أن تصل ترانيم المؤذّن عبر غضون الكَرْمِ والياسمين المُتراخِي ... فمسجد القرية قريب.

هزّت نجيّة كتفيها بحزن واهن عند سماعها كلمات أمّها. فهمت لاّ فطومة دون أن تسمع الحوار: خلال سنتي الحرب الأخيرتين، أوقف الأب نجيّة عن الدراسة. كانت هي تحاول منذ الاستقلال العودة إلى مقاعد الدراسة، تريد أن تذهب إلى المدينة وأن تعمل، أن تكون مُدرِّسَة أو طالبة لا يهمّ، المهمّ أن تعمل: مأساة عائلية في الأفق.

- إنّ رمضان هدنة من كلّ الضغائن ! القلوب السوداء لن تنال الغفران. همهمت لاّ فطومة وهي عائدة.

عبرت الغرفة، وأعادت لبس صدارها بحركات بطيئة مثل ملكة، ثم عادت لقدورها. عند الإفطار، كانت نفيسة ونجيّة تنتظران أمام «المايدة» المليئة بما لذّ وطاب من الأطباق، أن ينتهي الآخرون – بما في ذلك الوالد – من صلاة المغرب. تمضي وجبة الفطور في صمت شبه مطبق، بسبب الأب، الذي يسارع بمجرّد احتسائه القهوة إلى المشاركة في سهرة دينية، بعد ذلك تأتي الجارات للزيارة، تثرثرن في الفناء وهنّ تثنين بأنفسهنّ الحيّاك والعُجُر، وتجلسن متنهدات على الأرائك.

- خلال سنوات الحرب السبع هذه، كان الكلّ يلازم منزله. بدأت إحداهنّ الحديث.

- كيف نستطيب القهوة وقد كانت ابنتا بين أيدي العدوّ؟! تعجّبت إحداهنّ وكانت تقصد نفيسة بكلامها، وهي تعانقها وتباركها.

حيّت نجية الحضور، وتبادلت معهنّ عبارات المجاملة ثم اختفت.

- «كلاّ!» قالت بتقزّز لنفيسة التي جاءت تبحث عنها... «الثرثرة! أكل الحلويات! البشم من الطعام في انتظار الغد! ألهذا سال الدم وأقيمت المآتم؟! كلاّ أنا أرفض هذا!» وغطّت العبرات صوتها ... ظننت أنّ كل هذا سيتغيّر، كنت أظنّ أننا بصدد عهد جديد، أننا ... انفجرت نجية باكية، وأخفت وجهها في الوسادة، على سرير الطفولة نفسه.

خرجت نفيسة دون أن تردّ.

- «يا ليتنا على الأقلّ قادرون على إخمادالذاكرة !» قالت في وسط الحديث عجوز فقدت ولديها الاثنين في الحرب... «سنستعيد عندها رمضان كما كنّا نعيشه في الماضي، نستعيد صفاء الأيام الخوالي!»

وخيّم صمت غامض يغشوه الندم.

- «الشهداء في جنّات النّعيم!» قالت لاّ **فطومة** بجديّة لدى عودتها وهي تحمل إبريق الشاي.

عَبِقَت رائحة النعناع حتى بلغت الفناء الذي أثقله الليل، وخرجت **حورية** لتمسح دموعها.

# نوستالجيا الحشود

- حدّثينا ياجدّتي العزيزة عن زوجك... فلم يعرفه أحد غيرك ... ولا حتى والدي! توسّلت **نفيسة** في السرير وهي ملتصقة بالجدّة.

كانت والدة الجدة لا زالت بكامل وعيها، كان حينذاك شهر رمضان؛ في المدينة المجاورة كان الكلّ يزور عائلة صديقة خلال السهرات التي تكون فرصة للاسترخاء، والأطفال يركضون في الأزقّة المظلّلة، أيديهم محملّة بالحلويات لأخذها إلى الفرن.

دخل الوالد البيت وهو يحمل جوزا ولوزا وتمرا وزبيبا، ووزّعها في شكل أكوام صغيرة أمام بناته الأربع، أخرجنا الجدّة من خلوتها الدينية لتقوم البنات بتقشير لبّ النخيل أمامها.

- حدّثينا عن زوجك يا جدتي الحبيبة. توسلت **نجيّة** بدورها.

- لقد تزوجت وأنا بنت الثانية عشرة من العمر... كنت البنت الوحيدة، لذا كنت مدلّلة والدي، ثم وجدت نفسي في بيتي الجديد، لا أعرف شيئا، لا عن عجن الخبز ولا عن فتل الكسكسي، ولا عن حياكة الصوف. لكن ما قيمة المرأة إن لم تكن تعرف حياكة الصوف؟! ... في يوم من الأيام أحضر حَمُويَ لزوجته العجوز طنّا من الصوف، قسّمته على كنّاتها الأربع – وأنا معهنّ –، كان على كلّ واحدة أن تقوم بكل شيء وحدها: أن تغسل الصوف وتُنفّضَه وتنظّفه وتغزله وتنسجه في الأخيرإما ثوبا فضفاضا للزوج وإما ...

- وهل تعلّمت كلّ ذلك؟! تساءلت **حورية** متعجبة.

- وأنت في الثانية عشرة؟!

- من أكثر ما صَعُب عليّ يا بنيّاتي هو الاستيقاظ باكرا! لقد كنت كثيرة النوم عندما كنت في مثل سِنّكنّ! وفي يوم من الأيام، لا أدري لِمَ لَمْ أُفق حتى الثامنة صباحا... الثامنة! هل تصدقون؟!

هزّت العجوز رأسها، وابتسمت بمكر وهي تتلمّس بسبّابتها طقم أسنانها.

- صُدمت حماتي من كسلي، وقالت لزوجي: «استدع والدها! نحن لم نزوّجك لأميرة!» كانت بالطبع على حق. استيقظت، تثاءبت وتمطّيت، وإذا بي أسمع سعال والدي خلف باب غرفتي. نهضت بهلع فأدخلته وأنا أرتعش خوفا. سألني والدي بهدوء:

- ما الخطب؟! لم طلبني زوجك؟!

- لا شيء، لا شيء ... أجبت مرتبكة. لم أُفِق باكرا هذا الصباح!

رمقني بنظرة قاسية وقال مهدّدا:

- إن وجدتك مرة أخرى بعد في سريرك في مثل هذه الساعة، فستبكين بدل الدموع دما! ثم انصرف.

كانت كلّ البنات مجتمعات حول الجدّة في السريرالغائر.

- هيا ... واصلي!

- بعد سنوات علمت بما جرى بعد ذلك... بعد خروجه من حجرتي، التقى في الشارع بحَمُويَ الذي كان صديقه المقرّب، قيل أنّه اشتعل غضبا ذلك اليوم: «كيف تطلبون حضوري لمجرد أنها أفاقت على الثامنة صباحا... وفي يوم رمضاني! إنها لا تزال طفلة، وأنت أدرى بالأمر، سبق وقلت لك ذلك!»

قيل أنّ صديقه اعتذر منه... أما أنا فلم أعلم شيئا عن الأمر، ومنذ ذلك اليوم، ومن شدة خوفي أن أسمع أبي يسعل خلف باب غرفتي لدى استيقاظي، صرت أفيق مع بزوغ الفجر على الرابعة صباحا، عندما يفيق

زوجي للذهاب إلى حقول الأجداد. كنت قد عجنت الخبز وطهوته في الفرن، وكنت أحيانا قد وضعت القدر على الكانون عند استيقاظ حماتي وأخوات زوجي ..وكان لي بعد ذلك متّسع من الوقت خلال الصبيحة للجلوس أمام آلة النسيج، لإنهاء الغطاء أو رداء الصوف الذي كنت أحضّره.

- هل هي نفس آلة النسيج القابعة هنا؟. سألت إحدى البنات.

- «هي نفسها»، أجابت الجدة. «بكلّ تواضع، بعد بضع سنوات أمضيتها في بيت زوجي، لم يعد يضاهيني أحد في الغزل والنسيج»... كانت حماتي تقول عني: «أنظروا إلى فاطمة، كيف تغزل الصوف رقيقا كلسان الثعبان!».

جلست الفتيات داخل السرير القفصي، وأُشعِل "الكانكي"، وسألت نفيسة مرة أخرى:

- وماذا عن زوجك يا جدتي العزيزة؟! لمْ تحدثينا عنه!

- زوجي للأسف، ربي يرحمه ويغفرله، بعد وفاة والده الذي كان رجلا عادلا، صار زوجي عنيفا... كان يضربني أحيانا... أبرحني ضربا ذات مرة دون سبب تقريبا: كنت قد نسيت ترتيب صحن فطائر بعد فطور الصباح. دخل زوجي إلى البيت مع نهاية الصبيحة، ولاحظ ذلك، فأخذ "حجرة التيمّم" في يده ورماني بها إلى الوجه! شقّت الحجرة جبهتي مباشرة فوق العين (النبي سترني!) وواصل زوجي صلاته غير آبه.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- بعدها ارتعبت شقيقات زوجي لأنّ أبي كان سيزورني في اليوم نفسه. ماذا سأقول له؟ لو علم بأنّ زوجي يضربني كان سيخرجني من ذلك البيت في الحين. توسلت إليّ شقيقات زوجي: «اختلقي أيّ كذبة! لا نريدك أن تغادري!» وانضمّت إليهنّ العجوز التي نصحتني: «قولي إنّها البقرة» – «البقرة التي أهديتني إياها»، هذا ما قلته حين قلق أبي عندما

رأى الجرح. لقد صكّتني بحافرها عندما حاولت حلبها!»- «الله ينعل هاذ البقرة اللي قريب عْمَاتلي بنتي!» صاح والدي، وهو يقسم بالقرآن، بأن يقودها في اليوم نفسه إلى المذبح... وهكذا وجدت نفسي أبكي الليل بطوله لشدة حبي لهذه البقرة... ولكني كنت أبكي بهدوء حتى لا أزعج زوجي النائم.

هل عادت الجدة للتردّد على مسجد القرية بسبب كلّ هذه الذكريات؟

- لا يجب أن تذهبي إلى الجامع! قال لها ابنها قبل أن يعتلي عربته رفقة نفيسة ونجية ليصحبهما إلى المدينة. قليل عدد النسوة اللائي يترددن على المسجد، الآن وقد غزا الفرنسيون البلاد.

- فرنسا؟ تذمّرت الجدة.ماذا يهمّني؟!

في تلك الفترة، بكت يوما بكامله حزنا على وفاة إمام القرية – ربّما حزنا يضاهي حزنها على البقرة فيما مضى.

- أنا أصلّي خلفه منذ عشرين سنة! ... كان يُحسِن إقامة التراويح، يبدأ بتلاوة السور الطوال ويواصل قراءة سور أقصر في عشرين ركعة.

تصادف اليوم السابع من وفاة الإمام مع بداية شهر رمضان، ورغم أنّ غياب الشيخ خيّم على المكان، إلاّ أن الناس رحّبوا بهذا الشهر: أشعل الأطفال الشموع وساروا في الأزقة وهم ينشدون، أما الرجال فقد كانوا يصلّون طيلة الليل...

في السابع والعشرين من شهر الصيام، راحت لآتوميّة تتذكّر الأموات، وكان عمر ورشيد يلعبان لعبة رمي نُوى المشمش.

- كان والدي في شبابه يخصّ ليلة القدر بقراءة أكبر عدد ممكن من السور. وفي إحدى السنوات وخلال المناسبة نفسها، "كسّر الصيام" بتفاحة وأسرع إلى الجامع، قرأ ستين سورة متتاليات دون أن يتوقف... وفي النهاية قاطعه معلّمه قائلا: «اركع يا محمود!». ركع والدي وخرج المعلّم.

- في ليلة السابع والعشرين، تذكرت العمّة العجوز التي تزورنا، يقرأ «الطُلبة» القرآن بالتداول ويقف كل منهم على ساق واحدة... في تلك اللحظة تأخذهم روح المنافسة: من سيتحمّل أكثر؟ من – تحت أثر النشوة الدينية – لن يشعر بجسده؟

- كان هذا في الماضي! في أيامنا هذه لا حُكم إلاّ للكفّار... أبناؤنا (نهضت المرأة المتكلمة وهمّت بالخروج). أجل يكفر أبناؤنا أحيانا! أنّت المرأة وهي تلتحف حايكها الحريري المشدود.

- لقد رحل الأخيار! تنهّدت العجوز.

كان الأطفال – البنات منهم والأولاد – يلتصقون ببعضهم في تلك الليالي التي يتسلل فيها الحنين بصفة غريبة إلى القلوب (ولذلك كانت كل الذرائع مقبولة: حفل زواج، مأتم).

كان لجدّكم الأكبر، الله يرحمه! خمسة أبناء ... واصلت الجدة، ومن بينهم جدكم... كان لأكبرهم، "بابا الطيّب"، عادة، إذ كان يُصْدر زمجرة على فترات منتظمة: «يا الله!». وكان إخوته يوبخونه أحيانا لأنه يزعجهم: «اذكر الله في سرّك أو بين شفتيك، لم هذا الصّياح؟» - «ليس ذنبي! أنا أهتف دون وعي مني بذلك، هذا يريحني!»

في يوم من الأيام، وأنا عائدة من المقبرة رفقة مجموعة من النساء، رأينا من بعيد رجلا يمشي، متلفّعا بمعطف أخضر ضخم، لون أخضر جَارِح ربما، ولكنه رغم ذلك لون أخضر يرمز للإسلام. سمعنا فجأة صيحة «يا الله!» – «مسكين! قالت امرأة، لا بدّ أنه درويش!» فاعترفت بسخط: «إنه ليس درويشا عاديا، هو من يريد أن يكون كذلك... إنه أخو زوجي!»... حتى في المآتم يجلس وسط "الطُلْبة" الذين يتلون القرآن، وبمجرد أن يتوقف هؤلاء عن التلاوة لالتقاط أنفاسهم كان يهتف مُزمْجرا: «يا الله!» وكنّا نحن قريباته وزوجته وبناته نتذمر من "بابا الطيّب" الذي لم يكن يتحكم في نفسه.

توقفت الراوية برهة وهي تقلّب حبّات المسبحة بين أصابعها، ثم واصلت:

- لقّب الابن الثاني «الحاج اللّي راح لمكة ورْجع عريان».

- عريان؟! تصاعدت القهقهات.

- لقد سُرقت أغراضه هناك ولم يبق له سوى القندورة التي كان يرتديها. كان على كلّ إخوته أن يساهموا في شراء ملابس له. حين قرّر تخصيص كل مدخراته للذهاب إلى الحج، حاول العديد إقناعه بالعدول عن ذلك: «خلّي دراهمك لعْقُوبْتَك ما عندكش حتى ولد».

كان يجيب: «كلاّ! لقد تشوّق قلبي هذه المرة لأن أزور "بيت ربي"»، وهكذا ذهب.

- وماذا عن ثالث الأبناء؟ سأل صوت خجول.

تمهلت الراوية وتوهّجت عيناها الرطبتان بنور الماضي.

- كان ثالث الأبناء رجلا طيبا، سائق عربة نقل عمومي: الحاج بشير توفي في سن الأربعين، على الطريق الذي ينزل إلى السهل. في ذلك اليوم مالت العربة بخطورة، فاستبق الكارثة ورمى بنفسه منها فوقع في الحفرة، ولكن العربة تهاوت عليه، وبقي الركاب الذين لم يبرحوا مكانهم سالمين... أما هو فأُخذ إلى المدينة المجاورة وأُدخل إلى ردهة "حمام"وتُرِكَ يلفظ أنفاسه. لقد بقي على تلك الحال نصف يوم حتى أخذته الموت. ألقى بعض البائعين الذين يعرفونه نظرة أخيرة عليه، ثم غادروا والحزن يملؤهم: «أي رجل هذا الذي يموت!» يقال أنّ فيضا فائضا انقضّ على المدينة في ذلك اليوم.

- لم يذهب أحد لإحضار طبيب له؟ سأل مستمع شاب.

- في تلك الحقبة، أجابت الجدة بنبرة ازدراء، عندما نقول: «طبيب ومستشفى» فإنّ ذلك يعني طبيبا فرنسيا ومستشفى فرنسيا.

والابـن الرابـع – واصـلت بعـد أن سـكتت برهـة – كـان يُـدعى "السوداني" لأنه ذهب للعيش لمدة سبع سنين بالقرب من السودان. «كيف هي حياتهم يا عمّي؟» كان أبناء وبنات إخوتي يسألونه عند عودته. «إنهم ينامون على بطونهم اليوم بكامله، كان يجيب... وينهضون بمجرد غروب الشمس لتبدأ السهرات ويا لها من سهرات! رقص وغناء ومسابقات شعر وحلقات سمر. في هذه البلدان يعيش الناس تحت القمر! ... عندما كنت أحدثهم عن المياه التي تجري في السواقي في بلادي، كانوا يضحكون ولا يصدقون أو يقولون: «إنها الجنة إذن في بلدك!»

- وماذا عن الابن الخامس يا جدتي؟ سأل أحد الأطفال.

- «الخامس كان جدكم، ربي يحفظه، تزوجته وأنا بنت الثانية عشرة، أما هو فكان في الثامنة والعشرين»...- وتوقفت.

ثم واصلت رواياتها ولكن بنبرة مختلفة: إنّ رؤية هذه الوجوه حولها ذكّرها بمشهد مماثل، كان لها من العمر اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة حين تزوجت ووجدت في بيتها الجديد تلك التي كانوا يسمّونها "العجوز"، والتي رغم سنواتها الثمانين لازالت تأبى الموت...

- تلك والدة حموي، جدتهم كلهم، والتي رغم ذلك لم يكن يريدها أحد منهم، لدرجة أنها بقيت في نهاية الأمر في غرفتي. لم تبرح الجدة ذلك الركن من الغرفة طيلة ثماني سنوات. لم تكن تُحْضى بمحبّة كناتها – بما في ذلك حماتي –. مثل هذه الأشياء كانت تحدث، مع الأسف، حتى في ذلك الوقت. عندما بدأ يظهر عليها الهُزال أبلغتهنّ بذلك في الفناء، فأجبن: «العجوز لن تموت أبدا! بل ستدفننا كلّنا!». بعد ثمانية أيام أغمضت بيدي جفونها وخرجت مجددا لأعلن الخبر: «امّا رقية ماتت!» فجعلت البائسات تنتحبن وتتترن شعورهن!

سكتت الراوية وهلة وأغضت:

- خلال تلك السنوات الثماني، كانت، وهي في ركنها، تكلمني وتكلمني... وكنت أصغي ... في السنة التي غزا فيها الفرنسيون مدينتنا

كانت حديثة الزواج. كان كل أفراد العائلة قد اجتمعوا في أكبر غرفة بالبيت التي كانت واسعة كأنها مستودع، ولم يخرج منها أحد لا من الرجال ولا من النساء. وحده الشيخ، جدكم، الذي كان ابن انكشاري تركي وامرأة أمازيغية، بقي مترصّدا على العتبة ليل نهار. في تلك الأيام العصيبة وضعت امّا رقية بنتا. كنّا نسمع في الخارج المذبحة وصوت الرصاص، بيد أنّ أخت الزوج لم تلبث تلعن حظّها: «طفلة! جبتيلنا طفلة! تصلح غير باش تكون خدامه!»...

- «هل هي غلطتي؟» فكّرت رقية وهي تشعر بالعار.

فيما بعد قالت رقية في نفسها: «بنت أم ولد، أيّ فرق؟! ألم نكن كلّنا هناك محشورين كما لو كنّا دواجن في فناء مزرعة ننتظر انقضاض ابن آوى علينا؟ ... آه يا عزيزتي!، كانت تقول لي العجوز، لا زلت أسمع لعنات تلك المرأة المتكررة... وفجأة تأوّهت ابنتي المولودة مرة أولى وسط الصمت الذي كان يغمر المكان، تلتها آهة أطول وأوضح ثم ماتت... لطالما ظننت أنّ الله أخذها مني بسبب لعنات أخت زوجي الملعونة! بعدها رزقت بخمسة أولاد ذكور ولم أرزق ببنت أبدا... واحسرتاه!... في تلك السنة غزا الفرنسيون مدينتنا!» تنهدت امّا رقية.

*1965*.

# مُـــلحق

# نظرة مُحَرّمَة، صوت مقطوع

## I

بتاريخ 25 جوان 1832، حل **دولاكروا** بالجزائر من أجل توقُّف قصير. كان قد مكث للتّو لمدة شهربالمغرب، غارقا في عالم في غاية الغنى البَصَري (أبّهة الملابس، ونَزَق الفنتازيا الحماسي، وبذخ البلاط الملكي، وروعة زفاف يهودي أو موسيقيّي الشّوارع، ونبل السّنوريات الملكية: الأسود والنمور ...).

يتقدَّم إليه ذلك الشرق القريب جدا المعاصر له جديدا جِدَّة كاملة ومُفرطة. شرقٌ كما كان يحلم به لـ *موتساردانابال* – لكنه مُطَهَّر هنا من أي فكرة للخطيئة. شرقٌ يفلِتُ، علاوة على ذلك وفي المغرب وحده، من سُلطة التُّركي المقيت منذ *مشاهد من مذابح سيو*.

هكذا يتجلّى المغربُ كمكانٍ لالتقاء الحُلُم بالجمال المثالي المُتجسّد، مقام ثورةٍ بصريةٍ. استطاع **دولاكروا** بحق أن يكتب فيما بعد«لقد أصبح الرجال والأشياء تتبدّى لي في ضوء جديد منذ سفري»

لم يبق **دولاكروا** في الجزائر العاصمة سوى ثلاثة أيام. هذا المرور القصير بعاصمة تمَّ غزوُها مؤخرا وجّهه، بفضل مصادفة سعيدة، نحو عالم كان قد بقِي غريبا عنه خلال رحلته المغربية. إنه يلجُ للمرَّة الأولى إلى عالم محفوظ: عالم النساء الجزائريات.

إنَّ العالم الذي اكتشفه في المغرب والّذي تُحدّدُه رسوماته التخطيطية، عالم ذُكوريٌّ وحربيٌّ بالأساس، رُجُوليٌّ بكلمة واحدة. انكشف لعينيه العرضُ الدّائمُ لعالم خارجي في غاية البذخ والضجة والمواكب الفرسانية والحركات السريعة. ولكنْ، عند المرور من المغرب إلى الجزائر، عَبر **دولاكروا** في الآن ذاته تُخما دقيقا قلب جميع الأدلة

وكان المصدر لما تحتفظُ بهِ الأجيال القادمة عن هذا "السَّفر المُتَفَرّد إلى الشرق".

والمغامرة معروفة: يوجد لدى م. **بوارال**، المهندس الرئيس في ميناء الجزائر، وهاوي الرَّسم، يوجد في مصالحه شاويش، ربَّان مركب قرصنة سابق – "رايس" قبل سنة 1830 – وافق بعد محادثات طويلة على ترك **دولاكروا** يدخل إلى منزله الخاص.

يروي لنا صديق الصَّديق، **كورنولت**، تفاصيل ذلك التَّطفل. كان المنزل متواجدا في شارع دوكاسن سابقا. عَبَرَ **دولاكروا**، الذي كان مصحوبًا بالزوج وبدون شك بـ**بوارال**، "رواقا معتما" ينفتح في نهايته الحرملك بحصر المعنى، حرملك غير متوقع ويسبح في ضوء يكاد يكون خياليًّا. هناك ينتظرهُ نساء وأطفال «وسط كوكبة من الحرير والذهب». كانت زوجة الرايس السابق، الشابّة والجميلة، جالسة أمام شيشة. يروي **بوارال** لـ**كورنولت** الذي كتب ذلك لنا أن: «**دولاكروا** كان كالنَّشوان أمام المشهد الموجود أمام عينيه».

وبعد انخراطه في الحديث بوساطة الزَّوج، الترجمان المرتجَل، أراد أن يعرف كل شيء عن«هذه الحياة الجديدة والغامضة بالنسبة له». سجَّل على الرسوم التخطيطية الكثيرة التي شرع فيها – وضعيات مختلفة لنساء جالسات – ما كان يبدو له الأكثر أهمية والذي لا يجب نسيانه: دقَّة الألوان ("الأسود، خطوط الذهب، البنفسجي المُبرنق، والأحمرالنيلي الغامق" ...) مع تفاصيل الألبسة؛ علاقة متعدّدة وغريبة حيّرت عينيه.

يوجد في تلك التعليقات القصيرة المرسومة أو المخطوطة شيء يشبه ارتعاش اليد، وثمالة في النظرة: لحظة هاربة لتجلّ متلاشٍ قائم على هذا الحد المتحرك يتحاذى فيه الحُلُم مع الواقع. دَوَّن **كورنو**: «هذه الحمَّى التي كانت المثلجات والفواكه بالكاد تُهدّئها».

إن الرؤية، الجديدة كليّا، تم إدراكها كصورةٍ خالصة. وكما لو أنّ البريق الجديد للغاية يشوّش واقع هذه الصورة، أرغم **دولاكروا** نفسه على

تدوين لقب واسم كل امرأة في رسومه التخطيطية. رسومات مائية كُتبت عليها أسماء باية وموني وزُهرة بن سلطان، وزُهرة وخدوجة طاريوريجي. أجساد مرسومة بالقلم خارجة من مجهول الإكسوتيّة.

تلك الغزارة في الألوان النادرة، تلك الأسماء ذات المُصَوّتِيّات الجديدة، هل كان ذلك ما شوَّش الرّسام وأثاره؟ هل كان ذلك ما جعله يكتب «يا لَلجمال! كما لو أنّه عصر هوميروس!»

هناك، وفي هذه الزيارة التي استغرقت بضع ساعات لنساءٍ محبوسات، ما هي الصّدمة، أو على الأقل ما هو الاضطراب الغامض الذي اعترى الرسام؟ هل كان قلبُ هذا الحرملك المفتوح قليلا هو حقًّا كما يراه؟

جَلب **دولاكروا** من هذا المكان الذي مرّ به أشياءً: بابوج ووشاح وقميص وسروال داخلي. ليست تلك تذكاراتُ سائحٍ عديمةُ الأهميةِ، ولكن أدلّةٌ ملموسةٌ لتجربة فريدة، خاطفة. آثارٌ آتيةٌ من الحُلُم.

يحتاج لأن يلمس حُلُمه، لأن يطيل فيه الحياة لما وراء الذّكرى، لأن يُكَمّل ما تخفيه دفاتره من مخطّطات ورسومات. يوجد هناك ما يعادل قوة مُكرِهة فيتيشيّة يفاقمها التأكد من تفرُّد هذه اللحظة المعيشة التي لن تتكرّر أبدا بعد الآن.

عند عودته إلى باريس، عمِل الرسّام لسنتين على صورة ذكراه التي، على الرغم من كونها موثّقةً ومُدعَّمة بأشياء محلية، إلا أنّها تهتز بفعل حالة من الارتياب الحاد وغير المعبّر عنه. وقد صنع منه تحفةً لا زالت تثير التساؤلات فينا.

*نساء الجزائر في شقتهن*: ثلاث نساء، تجلس اثنتان منهنّ أمام الشّيشة. والثالثةُ، نصف مُمَدَّدة في الواجهة، ومتكئةٌ على وسائد. وخادمة، يظهر ثلاثة أرباع ظهرها، ترفع ذراعا كما لو أنها تميط البساط الثقيل الذي يغطي هذا الكون المغلق؛ شخصية ثانوية تقريبا، وهي لا تقوم إلا بمُجَانَبة هذه الألوان المتألّقة التي تُكلّل النساء الأخريات الثلاث. يتقرَّرُمعنى اللوحة

كلّه من العلاقة التي تُقيمهاهذه النساء مع أجسادهن، وكذا مع مكان حبسهن. سجيناتٌ مُستسلماتٌ في مكان مغلق يُشرق بنوع من نور الحُلُم الذي يأتي من اللاّمكان – نور المِصْرَى أو مربى المائيات –تُعيدهن لنا عبقرية **دولاكروا** حاضراتٍ وبعيداتٍ في آن واحد، مُلْغَزات إلى أبعد حد.

بعد مرور خمس عشرة سنة على أيام الجزائر العاصمة هذه، تذكر **دولاكروا** وعمل من جديد على صالون 1849 وقدّم طبعة ثانية عن *نساء الجزائر*.

المعالجة متشابهة تقريبا، ولكن تغييرات عديدة أظهرت بشكل أحسن، من خلال التواترِ، المعنى الكامن في اللّوحة.

في هذه اللوحة الثانية التي تبدو فيها ملامح الشخصيات أقل وضوحا، وعناصر الديكور أقل تعمُّقا، اتّسعت زاوية الرؤية. فمفعول التأطير هذا له نتيجة ثلاثية: – أن يبعد عنّا النساء الثلاث اللّواتي ينغمسن حينئذ انغماسا أعمق في انسحابهن – أن يُكتشف ويُعرّى واحد من جدران الغرفة بشكل كامل، وجعْلِه يضغط بشكل أكبر على وحدة هذه النساء، – وأخيراأن يُركّز على الطابع اللاّواقعي للضوء. إذ يُظهر هذا الأخير بشكل أحسن ما يخفيه الظّل كتهديد غير مرئي، ودائم الوجود عن طريق الخادمة التي نكاد نُتَبَيّنها تقريبا، ولكنّها ها هنا، يَقِظة.

نساءٌ في انتظار دائم، يظهرن، فجأة، سجينات أكثر منهن سلطانات. ليس لديهن معنا، نحن المشاهدين أية علاقة. لا تستسلمن ولا تمتنعن عن النظرة. غريباتٌ ولكن حاضرات حضورا قويّا في الجوّ المخلخل هذا، جو الاحتجاز والحبس.

يروي **إيلي فور** أنّ **رونوار**العظيم عندما كان يستحضر ضوء *نساء الجزائر* هذا، لم يكن يتمالك نفسه فيذرف الدموع غزيرة على خدّيه.

هل علينا البكاء مثل **رونوار** ولكن لأسباب أخرى غير الأسباب الفنية؟ استحضار، بعد مرور قرن ونصف، البايات، والزهرات، والموني،

والخدوجات. هذه النساء اللواتي عرف **دولاكروا** – ربَّما رغما عنه [1]– النَّظر إليهن كما لم يفعل ذلك أحد قبله، هؤلاء النساء اللواتي لا زلن، منذ ذلك الحين، يُخبرننا عن شيءٍ لا يُطاق ولكنه لا زال حاضرا حاليا.

تُفهمُ لوحة **دولاكروا** على أنها مقاربةٌ للشَّرقِ الأنثوي – وهي المقاربة الأولى بدون شك في الرَّسم الأوروبي، المُتعوّد على التعامل أدبيا مع موضوع جارية الحريم أو التّطرق إلى قسوة وعُري السّراي فقط.

الحلُم البعيد والقريب في عيون العاصمياتِ الثلاث المتأمّلة، إن حاولنا فهم طبيعته: حنينٌ أم عذوبةٌ غامضة، فذلك لنحلم بدورنا، انطلاقا من غيابهن الواضح، باللذة الحِسّية. كما لو أن وراء هذه الأجساد، وقبل أن تسدل الخادمة السّتار، يتكشّف عالم قد يعشن فيه على الدوام، قبل أن يجلسن أمامنا، نحن الذين نتفرج.

لأننا، وبالتحديد، نتفرج. هذه النَّظرةُ محرَّمةٌ علينا في الواقع. وإذا كانت لوحة **دولاكروا** تبهرُلاشعوريا، فذلك، في الحقيقة، ليس بسبب هذا الشّرق السّطحي الذي يقترحه، في غمرة ظلّ خافت من البذخ والصمت، ولكن لأنّه بوضعه إيانا أمام هؤلاء النساء في وضعية النَّاظر، يذكّرنا بأنه، في المادة، ليس لدينا الحق في ذلك. فهذه اللوحة في حد ذاتها هي نظرة مُختلَسَة.

وأقول لنفسي بأن **دولاكروا**، وبعد مرور أكثر من خمس عشرة سنة، قد تذكّر بالخصوص هذا "الرّواق المُعتم" الذي تُوجد في نهايته، وفي مكان بلا مخرج، سجينات ما يجب أن يبقى مكتوما، سجينات جامداتُ التقاطيع. تلك اللواتي لا نُخمّن مأساتهن البعيدة إلا من استراق النظر غير المتوقع هذا ممثّلا هنا في اللّوحة.

هؤلاء النساء يحلمن، هل لهذا السبب لا ينظرن إلينا؟، أم لأنهن سجيناتٌ دون ملاذ، لا يستطعن حتّى أن يلمَحْنَنَا؟ لا يمكن تخمين أي شيء عن روح هؤلاء الكئيبات الجالسات، كالفارقات فيما يحيط بهنَّ.

يبقين غائبات عن أنفسهن، وعن أجسادهن، وعن رغبتهنّ الحسية، وعن سعادتهن.

كانت هناك، بينهن وبيننا، نحن المتفرجون، ثانية الكشف، الخطوة التي عتّبت رواق الخصوصية، الاحتكاك المتفاجئ للسّارق، الجاسوس، النّاظر. قبل سنتين فقط كان الرسام قد يخاطر هناك بحياته ...

بين نساء الجزائرهذه وبيننا يطوف إذن المُحرَّم. حياديٌّ، مجهولٌ ودائم الحضورِ.

لطالما ظننّا بأنه قد تم اختلاس هذه النظرة لأنها كانت نظرة الغريب، خارج الحرملك والمدينة.

منذ بضعة عقود – وكلّما انتصر هنا أو هناك منزع وطني – يمكننا أن ندرك أن في داخل هذا الشرق المُهمَل، لا يتم النّظر إلى صورة المرأة بشكل مغاير: من قِبل الأب، والزوج، وبطريقة أكثر غموضا، من قِبل الأخ والابن.

مبدئيا، يمكن لهؤلاء فقط النّظر إلى المرأة. بالنسبة لرجال العشيرة الآخرين (يصبح كلّ قريب يكون قد تشاركا اللّعب في الطفولة، يُصبح ناظرا- سارقا بالقوة)، تُظهر المرأة – في المرحلة الأولى من تليين القسوة العرفية – إن لم يكن جسدها بالكامل، فعلى الأقل وجهها ويديها.

تجد المرحلة الثانية من هذا التليين نفسها تصبح، وتلك مفارقة، متوقفة على الحايك [2]. وإذ يَلف كُلّيا الجسم والأطراف، فإنّه يسمح للّتي تَرتَديه وتتنقّل خارجا متسترةً به، أن تكون بدورها سارقةً مُحتملة في الفضاء الذكوري. وتبدو فيه بالخصوص شبحا هاربا، مُعَوَرَّة عندما لا تنظر إلاّ بعين واحدة. أعاد لها سخاء "اللبرالية" في بعض الحالات والأماكن، عينها الأخرى وفي الآن ذاته كلَّ نظرتها: بقيت العينان الاثنتان، بفضل العْجَار، مفتوحتان الآن تماما على الخارج.

هناك إذَن عين أخرى هنا، إنها النَّظرة الأنثوية. ولكن هذه العين المحرّرة، التي قد تصبح علامة على مكسب يفتح الطريق نحو نور الآخرين، خارج الحَبْس، فإذابها تُفهمُ بدورها على أنها تهديد؛ ومن جديد تتشكّل الحلقة المفرغة.

بالأمس، كان السّيد يُظهر سلطته في الأماكن الأنثوية المغلقة عن طريق وحدة نظرته الخاصة، التي تلغي نظرة الآخرين. والعين الأنثوية بدورها عندما تتنقل، يتوجَّس منها، على ما يبدو، الرجال المُسَمَّرون في المقاهي الموريسكية في مدن اليوم، بينما يمرّ الشبح الأبيض كما الوهم ولكنه يبقى لغزا.

في تلك النّظرات المشروعة (أي نظرات الأب والأخ والابن أو الزوج) التي تُوجّه إلى العين والجسد الأنثوي – لأن نظرة الذي يتحكّم تبحث أولا عن العين الأخرى، عينَ المُتَحَكَّم فيه، قبل الاستحواذ على الجسد–يتجلّى خطر بالأحرى غير متوقع لأن الأسباب يمكن أن تكون عَرَضية.

لا يحتاج الأمر لشيء –يكفي حصول دفق مفاجئ، حركة طائشة غير اعتيادية، فضاء يمزّقه ستار يُرفع عن ركن سِرّي [3]– لكي توشك أعين الجسد الأخرى (النّهدان، والعضو التناسلي والسُّرة) أن تصبح معروضةً للتَّحديق. لقد انتهى الأمر بالنسبة للرّجال، الحرّاسِ الجَرُوحين: إنَّها ليلتهم المُظلمة، ومصيبتهم، وعارهُم.

نظرةٌ مُحرّمة: لأنه من المحَرَّم بالتّأكيد النّظر إلى الجسد الأنثوي الذي يَتِمُّ حبسه، منذ سن العاشرة إلى غاية الأربعين أو الخمسة والأربعين، بين الحيطان، وفي أحسن الأحوال وراء الحجاب. ولكن خُطورَةَ النظرة الأنثوية، التي سمح لها تحرّرها بالتحرّك خارجا، تكمن في كونها قد تُعرّي في أي لحظة النَّظرات الأخرى للجسد المتحرك. كما لو أن الجسد كله بدأ ينظر فجأة، "يتحدى"، يقرأ الرّجل ... امرأة – تتحرك، فهي"عارية" إذَن –تنظر، أليس هذا علاوة على ذلك تهديدا جديدا لحصْرِيَّتهم السّكوبية، ولهذه الصّلاحية الذُّكورية؟

وعليه كان التّطور الأكثر وضوحا للنساء العربيات، على الأقل في المدن، نزع الحايك. لقد عاش عدد من النساء تجربة نزع الحايك، بعد أن كنّ مسجونات، في كثير من الأحيان، طيلة مرحلة المراهقة أو الشباب.

يتقدّم الجسدُ خارج المنزل وللمرة الأولى يُنظر إليه كأنه "معروض" لكل الأنظار: فتُصبح المشيةُ متوتّرة، والخطوة متَسَرّعة، وتعبيرُ النظرة متَشَنّجا.

تنقلُ العربية الدارجة التجربة بطريقة معبِّرة: «لم أعد أخرج *مستُورة* (أي محَجَّبة، مغطّاة)»، تقول المرأة التي تحرّرت من الغطاء: «أخرج *عارية* أو حتى مكشوفة». فالحايك الذي كان يحجب عن الأنظار يتم الشعور به بالفعل على أنه "لباس في حدّ ذاته"، وعدم وضعه، هو الانكشاف التام.

أما الرَّجل الذي يوافق على مقاسمة التطور الأكثر احتشاما، والأكثر بطئا لأخواته أو لزوجته، ها هو الآن محكوم عليه بالعيش في الانزعاج والقلق. مُتخَيّلا بأنه ما إن تتخلص العينُ والجسم بعد ذلك من العِجار، ثُمّ من الحايك بأكمله، حتى تنتقل المرأة إلى مرحلة الخطر القاتل، اكتشاف العين الأخرى، عين العضو التناسلي على بعد نصف مسافة من هذا الانزلاق، تُلمحُ محطّة التوقّف الوحيدة في "رقصة البطن"، هي التي تجعل العين- السُّرة الأخرى تثير التقطيبات في الحانات.

وهكذا فإن جسد المرأة، وبمجرد خروج هذه الأخيرة من الانتظار جالسة في الداخل المُسَيّج، يخفي بطبيعته خطرا. وما إن يتحرك في فضاء مفتوح، حتى لا يُرى منه فجأة إلا هذه التّعددية المثيرة للهذيان: أعين فيه وأعين موجّهة نحوه.

حول هذا الانحراف الأنثوي، يتوضّحُ الوسواس الهذياني للرّجل المسلوب. (على كل حال، الرّجل الوحيد من العاصمة الذي سمح سنة 1832 لرسّام غريب الدخول إلى الحرملك هو بالتحديد قرصان صغير سابق مهزوم، أصبح من يومها "شاويشا" يطيع موظفا فرنسيا.)

في الجزائر بالتحديد عندما بدأ التدخل الأجنبي سنة 1830 – الذي أُبْقِي عليه مهما كلّف الثمن على عتبات السرايا المُفْقَرة – في الاستثمار التدريجي للفضاء في الخارج، الذي تساوق مع تجميد أصمّ أكثر فأكثر للإتصال الداخلي: بين الأجيال، وأكثر من ذلك بين الجنسين.

نساء الجزائر هذه – تلك اللواتي بقين ساكناتٍ منذ 1832 في لوحة **دولاكروا** – لو كان من الممكن في الأمس إيجاد التعبير الاشتياقي للسّعادة أو لعذوبة الخضوع في سكونهنّ، سُكون تستثيرنا اليوم مرارتهن اليائسة في أعمق أعماقنا.

في نهاية القتال البطولي، كانت المرأة تنظر، وتصرخ: نظرة شاهدة على مدار المعركة، التي كانت ترافقها الزَّغردة لتشجيع المحارب (صرخة طويلة تخترق الأفق كفرغرةٍ لامتناهيةٍ تتدفّق من البطن، نداء جنسي انطلق من عقاله).

والحال أن المعارك، طوال القرن التاسع عشر، التي حصل أكثرها في جنوب الأراضي الجزائرية، قد تمت خسارتها الواحدة تلو الأخرى. لم ينتهِ الأبطال من الإصابة بالهزيمة. في هذه الملحمة، تواصل الاستماع إلى نظرات وأصوات النساء عن بعد، ما وراء الحد التي قد يكون حد الموت، وإن لم يكن فالنّصر.

ولكن بالنسبة لأولئك الذين رافقوا عصر الخضوع، إقطاعيون أو بروليتاريون، أبناء أو عشاق، بقي المشهد على ما هو عليه. ظلت المتفرجات في أماكنهنّ؛ وظل أولئك يحلمون، والخوف يرافقهم، بتلك النظرة.

وهكذا بينما ينغلق في الخارج مجتمع بكامله في ثنائية الغالبين والمغلوبين، السكان الأصليين والغزاة، في الحرملك الذي تحول إلى كوخٍ أو إلى مغارةٍ، يُغلق الحوار بشكل شبه نهائي. لو كان بإمكاننا فقط استثمار هذا الجسد، الشاهد الوحيد المتبقي، وإدراكه زيادة من أجل نسيان الهزيمة.. ولكن كلّ حركةٍ قد تُذكّر بنزق الأسلاف الحماسي تتجمد نهائيا، مضاعِفَةً السُّكون الذي يصنع المرأة السجينة.

في الثقافة الشّفوية الجزائرية، وبالأساس في المدن الصغيرة المطوّقة كليا، يتطوّر في القصيدة، وفي الغناء وحتى في أشكال الرقص البطيء أو السّريع، موضوع الجرح شبه الفريد الذي يأتي ليحل محل اللاّتوقعية الراسخة في تعبير الرغبة السّاخرة.

أن لا يكون أول لقاء بين الجنسين ممكنا إلا من خلال طقوس الزواج ومراسيمه، يوضّح طبيعة الهاجس الذي يؤثر بعمق على كينونتنا الاجتماعية والثقافية. يُحْفَرُ جرحٌ حيّ على جسد المرأة عن طريق انتقال عذرية يتم فضُّها بعنف شديد والتي يُخَلّد الزواج بابتذال ألَمها. تصبح ليلة الزّفاف بالأساس ليلة الدّم. ليست ليلةً للتعرُّف أو بالأحرى للمتعة، ولكن ليلة للدّم وهي كذلك ليلة النَّظْرة والصَّمت. ومنها الجوقة الشديدة الحِدَّة، جوقة الصّرخات الطويلة التي تطلقها النساء الأخريات (إصْوات متشنّج يحاول التحليق في الليلة العَمياء)، ومنها فرقعة البارود كذلك لِلَفّ ذلك الصمت بشكل أفضل [4].

والحالُ أنَّ نظرة العضو التناسلي المُدْمَى تعيدنا إلى النظرة الأولى، نظرة الأم عند نهاية الولادة. تنتصبُ صورة هذه الأخيرة حينئذ، مُعاضِلة وكئيبة مغطّاة كليا وفي الآن ذاته مُسلّمة عارية، ساقان داميتان تنتفضان ألما.

جاء في الحديث النّبوي، وكثيرا ما ردَّدْنا ذلك:«الجنّة تحت أقدام الأمهات». إذا كانت المسيحية هيَّ تقديس الأم العذراء، فالإسلام بشكل أكثر فضاضة، يقصد بـ "الأم" قبلَ حتَّى أن تكون نبع الحنان، المرأةَ دون مُتعة. مع الأمل الغامض أنَّ عين العضو التناسلي التي أَنْجَبَت لم تصبح بذلك مُهَدِّدَة. عندئذ تستطيع الأم وحدها أن تنظر.

## II

في عهد الأمير عبد القادر، كانت قبيلتا البدو المواليتين له، قبيلة لربعة وقبيلة الحرازلة، محاصرتين سنة 1839 في قلعة قصر الحيران من قِبل التيجانية، العدو التقليدي. في اليوم الرابع من الحصار، كان

المهاجمون قد بدأوا يتسلقون الجدران، عندما قامت فتاة من الحرازلية تدعى مسعودة، وإذ رأت ذويها وقد بدأوا يديرون ظهورهم استعدادا للفرار، فصرخت فيهم:

- إلى أين تركضون هكذا؟ الأعداء من هذه الجهة! هل ينبغي لفتاة أن تريكم كيف يجب أن يتصرف الرجال؟ إذن، انظروا!

صعدت فوق السور وانزلقت خارجا في وجه الأعداء. صاحت وهي تخاطر بنفسها بإرادتها:

- وِينْهم رجال قبيلتي؟

وينهم إخوتي؟

وِينْهم اللّي كانوا يْغنّيوْلي أغاني الحب؟

عندها، هب الحرازلية لنجدتها. وتروي الحكاية أن الحرازلية عند صراخهم صرخة الحرب والحب هذه:

- أبشري، هاهم إخوتك، هاهم حْبَابك... صدوا العدو بفعل الحماسة التي ألهبها فيهم نداء الفتاة.

أعيدت مسعودة تصحبها رايات النصر، ومنذ ذلك الحين، تتغنى قبائل الجنوب الجزائري "بأغنية مسعودة" التي تروي هذه الوقائع وتنتهي تحديدا بتمجيد تلك الصرخة الأليمة البطولية: «مسعودة، ستبقين دائما كُلاّبا يقلع الأسنان!»

في الواقع، تُظهر العديد من مراحل تاريخ المقاومة الجزائرية في القرن التاسع عشر نساء محاربات، تحررن من دورهن المعتاد كمتفرجات. كانت نظرتهن الرهيبة تحث على الشجاعة، لكن فجأة، عندما يبلغ اليأس ذروته، يكون مجرد وجودهن في أُتُون حركة القتال العارمة حاسما.

تبين روايات أخرى عن البطولة النسائية عادة الأم الأميرة الإقطاعية (الذكاء، حسّ التنظيم والشجاعة "الرجولية")، على غرار الكاهنة البربرية قديما.

تبدو لي قصة مسعودة، وهي قصة أكثر تواضعا - كأنها تقدم جانبا أكثر جدّة: من المؤكد أنه نوع من البطولة والتضامن العشائري ولكنه، في هذه الحال، عبارة عن التقاء جسد مُعرَّض للخطر (في خضم الحركة المرتجلة كليا) مع صوت ينادي، يتحدى ويخدش. وأخيرا، صوت يشفي من خطر الجبن ويسمح بإيجاد مخرج نحو الانتصار.

«أبشري، هاهم إخوتك، هاهم حُبابك!». هل هؤلاء الإخوة – الأحبة يخشون أكثر رؤية الجسد معروضا تماما أم أن حماسهم "يلهبه" صوت المرأة المندفع؟ هذا الصوت الذي اندفع أخيرا من الأحشاء، يلامس دم الموت ودم الحب. وهاهو التجلّي: «أبشري!» إن أغنية مسعودة تكرس لوحدها سعادة المرأة هذه، في تحركها المرتجل والخطر في الوقت نفسه، وباختصار، تحرُّكها المبدع.

للأسف، هناك القليل من شبيهات مسعودة في ماضينا القريب من المقاومة المناهضة للاستعمار. قبل حرب التحرير، كان البحث عن الهوية الوطنية، عندما كان يشمل مشاركة المرأة، يهوى استعباد الجسد منها وتصوير تلك النسوة كـ "أمهات"، حتى بالنسبة للشخصيات الاستثنائية والمعترف بهنّ كمحاربات. ولكن عندما أصبح موضوع المرأة البطلة يُمجّد خلال السنوات السبع للحرب الوطنية، كان ذلك يدور حول جسد الفتيات التي أسميهن "حاملات النار" اللواتي اعتقلهنّ العدو. حريم حَلَلْن لبعض الوقت في السجون "بربروس"، مسعودات "معركة الجزائر" كنّ يُسمّين جميلة.

منذ نداء مسعودة واستجابة "الأخوة- الأحبة"، منذ اندفاع الكبرياء النسوي المتحرر، ماذا "قلنا" عن نسائنا، كصوت نسوي؟

تبين لنا لوحة **دولاكروا** اثنتين من النسوة وكأنهما ضُبطن متلبّستين تتبادلان الحديث، ولكن صمتهما لا ينفك يصل إلينا. كلمة متوقفة لتلك النسوة اللواتي يغضضن الطرف أو يسرحن بنظرهن ليتواصلن. وكأن الأمر يتعلق بسر تحرص الخادمة على فكّ شفرته دون أن يدري أحد على وجه التحديد إن كانت تتجسس أو أنها متواطئة.

منذ الطفولة، نلقن للفتاة «شعيرة السكوت التي تعد إحدى أكبر القوى في المجتمع العربي [5]». وهو ما يسميه جنرال فرنسي، "صديق العرب"، يُسمّيه "قوة"، بينما نعاني منه نحن باعتباره تشويها ثانيا.

حتى كلمة نعم التي يجب أن تلي "الفاتحة" في الزواج والتي يجب أن يطلبها الأب من ابنته – لأن القرآن يلزمه بذلك – يتم خنقها بذكاء في كل مكان (في المجتمعات المسلمة). بما أنه لا يمكن أن تكشف الفتاة عن نفسها لتُعلن قبولها (أو عدم قبولها)، فهي مضطرة للجوء إلى ممثل ذكر ليتكلم "عنها". استبدال مريع لكلمة بأخرى، وهو ما يفتح الطريق للممارسة غير القانونية المتمثلة في الزواج بالإكراه. كلمة مُفْتَرعة، منتهكة قبل وقوع الإفْتِراع الآخر، الانتهاك الآخر.

من المتفق عليه، حتى من دون "ولـيّ"، أن كلمة "نعم" هذه التي ننتظرها مباشرة من الفتاة، يمكنها أن تعبر عنها، بسبب "خجلها" من والدها ومن رجل القانون، بالصمت أو بالدموع. صحيح أنه في بلاد فارس القديمة، كانت هناك ممارسة أكثر تميزا [6]: لتوثيق الزواج، يجب على الشاب أن يعبر عن قبوله صراحة أما الخطيبة، من جهتها، فتوضع في غرفة مجاورة، وسط نساء أخريات، قرب الباب حيث ينسدل ستار. للتعبير عن كلمة "نعم" الضرورية هذه، تقوم النسوة بضرب رأس الفتاة على الباب وجعلها تتأوه.

وهكذا، فإن الكلمة الوحيدة التي تملك المرأة أن تنطقها، كلمة "نعم" كلمة الخضوع هذه، تحت غطاء اللياقة، تزْفرها المرأة بصعوبة تحت طائل ألم جسدي أو من خلال دموع صامتة مُلتبسة.

يُروى أنه في عام 1911، كانت النساء (الأمهات والأخوات) في مختلف الأرياف الجزائرية تأتين لِتَهِمْن حول المخيمات، حيث كان يُحشر المجندون الذين يسمون بـ "الأندجين"، ليبكين ويَنْدُبن وجوههن. صورة المرأة المحزونة وهي تمزق خديها حد الهستيريا أصبحت في نظر علماء الأجناس آنذاك الصورة الوحيدة "المتحركة": ما عادت هناك محاربات ولا شاعرات بطلات. عندما لا يكون الأمر يتعلق بالمرأة غير المرئية والخرساء، وإذا ما اندمجت في قبيلتها، فهي لا يمكن أن تبدو إلاّ في صورة اهتياج عاجز. بل صمت حتى راقصات- مومسات من أولاد نايل ذوات الأجساد المغطاة إلى الأرجل، ذوات الوجه المَعبود المثقل بالحلي وصوت الخلاخل الموقّع لا غير.

من 1900 حتى 1954، في الجزائر: انغلاق مجتمع محلي لا ينفك تُنتزع منه أشياء فضائه الحيوي وحتى بناه القبلية. كانت النظرة الاستشراقية – مع تراجمتها العسكريين أولا ثم مصوّريها وسينمائييها، كانت تدور حول هذا المجتمع المنغلق مؤكدة أكثر على "لغزها النسوي"، وذلك للتّستّر على عداوة المجتمع الجزائري برمته الذي يحدق به الخطر.

و مع ذلك، خلال هذا النصف الأول من القرن العشرين، كان الواقع أن تضييق الفضاء أدى إلى تمتين العلاقات الأسرية: بين أبناء العمومة، بين الإخوة، إلخ وفي علاقات الإخوة- الأخوات اللائي غالبا ما يُحرمن – دائما بسبب هذا الـ "نَعَم- صمت الدموع" – من حقوقهن في الميراث لفائدة ذكور العائلة: هنا أيضا وجه آخر من عملية الخداع السحيقة هذه، من ارتهان الأملاك والأجساد.

إذن، بسبب الأسر المضاعف في هذه السجن الضخمة، لم يعد للمرأة من حق سوى فضاء ما ينفك يتقلص حتى يكاد يضمحل. وحدها علاقة الأم بالابن كانت تتعزّز لغاية اعتراض كل السبل الأخرى. كما لو كان الارتباط بالجذور الذي كان يزداد صعوبة، لهؤلاء البروليتاريين الجدد الذين لا أرض لهم ثمّ لا زرع، كان يمر عبر الحبل السري.

لكن، ومن وراء تمتين العلاقة هذا داخل الأُسَر الذي يستفيد منه الذكور وحدهم، هناك التعلق بالجذور الشفوية للتاريخ.

صوت الأم الذي، وهي المرأة التي لا جسد ولا صوت لها، يستعيد نبرة الصوت الجماعي والغامض، صوت يغيب منه الجنس حتما. ذلك أنه في دوامة الهزائم هذه التي أدت إلى جمود مأساوي، يتم البحث عن نماذج لاستعادة نَفَس جديد وأكسجين في مكان آخر [7] غير هذا النوع من البطن الضخم المُعيل حيث قامت زُمرة من الأمهات والجدات، في ظل الباحات، والأكواخ، بحفظ الذاكرة الوجدانية ...

أصداء معارك القرن الماضي الخاسرة، تفاصيل ألوان جديرة بديلاكروا لدى الراويات الأمِّيَّات: أصوات مهموسة لتلك النساء المنسيات التي رَسمت لوحات جدارية لا يمكن تعويضها ونسجت هكذا إحساسنا بالتاريخ.

بالتالي، إن الوجود الموسع للأم (امرأة دون جسد أو بجسد مضاعف على عكس ذلك) هو أقوى عقدة في غياب التواصل شبه التام بين الجنسين. وفي الوقت نفسه، في مجال الكلام، يبدو أن الأم قد احتكرت في الواقع التعبير الحقيقي الوحيد للهوية الثقافية، وإن كانت مقتصرة على المُزْدَرِع والقرية، والولي الصالح الشعبي المحلي، وأحيانا "العشيرة"، ولكنه في كل الأحوال تعبير ملموس ومشحون عاطفةً.

لكأن الأم، المحصورة في الإنجاب، تخفي عنا جسدها، لتعود باعتبارها صوت جدة غير محددة، جوقة خالدة حيث تتكرر القصة. ولكنها القصة التي تُطرَد منها الصورة النموذجية للجسد الأنثوي.

يطفو طريق متردد في شكل نقاط، بقايا ثقافة نساء تختنق ببطء: أغاني أسطح تتغنى بها الفتيات [8]، رباعيات الحب لنساء تلمسان [9]، أناشيد جنائزية رائعة لنساء الأغواط، أدبيات لا تنفك تتنائى، للأسف، لتصبح، في نهاية المطاف، شبيهة بهذه الأودية دون مصب، التائهة في الرمال ...

شكوى مُضمّنة في فولكلور المغنيات اليهوديات والعربيات في حفلات زفاف الجزائر العاصمة، تدريجيا، ينتقل هذا اللطف العتيق، وهذا الحنين الرومانسي الذي بالكاد يُلمح، ينتقل من النساء إلى المراهقات اللواتي ستتم التضحية بهن مستقبلا، وكأن الأغنية تتكفل على نفسها.

كنا نحن، الأطفال في الباحات حيث لا زالت أمهاتنا تظهرن شابات، هادئات، ترتدين المجوهرات التي لا تسحقهن – ليس بعد – التي غالبا ما تزينهن بغرور مُسَالم، وكنا نحن في الوشوشة الخافتة لأصوات نسائية مفقودة، لا نزال نستشف دفئها القديم ... ولكن نادرا ما نرى انطواءها على نفسها. غير أن جزر السلام هذه، وهذه الاستراحة التي تحفظها ذاكرتُنا، أليست بعضا من هذا الاستقلال النباتي لنساء الجزائر العاصمة في اللوحة، عالم النساء المنفصل تماما؟

عالم يبتعد عنه الصبي الذي يتقدم به العمر، ولكن الذي تبتعد عنه أيضا الفتاة التي تتحرر الآن. بالنسبة لهذه خصوصا، يتمثل الابتعاد في تغيير مكان صمتها: إنها تقايض الحريم والمجتمع القديم بمواجهة، غالبا ما تكون كاذبة، مع الرجل.

وهكذا، عالم النساء هذا، عندما لا يهمس بوشوشة حنان متواطئ، بشكاوى مفقودة، وباختصار برومانسية افتتان متلاش، هذا العالم يصبح فجأة، بجَدْبِهِ، عالم التوحد.

فجأة ينكشف الواقع الحالي من دون زينة، دون انزعة ماضوية: الصوت مقطوع حقا.

## III

في حين انطلقت توّا حرب التحرير في الجزائر، عاش **بيكاسو**، من ديسمبر 1954 إلى فبراير 1955، يوميا في عالم نساء الجزائر كما صوّره **ديلاكروا**. واجه **بيكاسو** هذا العالم وبنى من حول ثلاث نساء،

ومعهن، عالما مغايرا تماما: خمس عشرة لوحة ومطبوعتان حجريتان تحمل العنوان نفسه.

يتحرّك شعوري إذ أرى العبقري الاسباني وقد قام هكذا بتغيير الأزمنة.

عند مدخل "ليلنا الاستعماري"، قدّم لنا الرسام الفرنسي رؤيته التي، كما لاحظ **بودلير** بإعجاب «تتضح بعطر رفيع آت من مكان سيئ يقودنا سريعا نحو دوائر الحزن المستغلقة». هذا العطر الآتي من مكان سيئ جاء من بعيد، سيصبُح أكثر تركيزا.

عكس **بيكاسو** اللعنة، فجّر التعاسة، كتب بخطوط مِقدامة سعادة جديدة تماما. ذاك حدس يجب أن يقودنا في حياتنا اليومية.

«طالما رغب **بيكاسو** في تحرير جميلات الحريم»، لاحظ **بيير داكس**. تحرير رائع للفضاء، صحوة الجسد في خضمّ الرقص، والجهد المبذول، والحركة المجانية. ولكن أيضا الحفاظ على واحدة من النسوة ظلت غامضة، مهيبة، هائلة فجأة. مثل درس مقترح هنا، عن علاقة يجب إيجادها بين الهدوء القديم والمُجَمّل (السيدة، الجامدة قَبْلا في حزنها المتجهم، أصبحت ساكنة، ولكن بقوّة داخلية تشبه الصخرة) والانفجار المرتجل في فضاء مفتوح.

لأنه لم يعد هناك حريم، والباب مفتوح على مصراعيه والضوء يدخل متدفقا، لم يعد هناك حتى خادمة تتجسس، بل مجرد امرأة أخرى، لعوبة وراقصة وأخيرا البطلات – باستثناء الملكة التي ينفجر ثدياها مع ذلك – اللواتي يظهرن عاريات تماما، كما لو أنّ **بيكاسو** قدْ استعاد حقيقة اللغة المستخدمة التي تشير، في العربية، إلى "السافرات" باعتبارهنّ "عاريات". كما لو أنّه جعل أيضا من هذا التعري ليس مجرد علامة على "التحرر"، وإنما انعطافة هؤلاء النسوة نحو أجسادهنّ المنبعثة.

بعد عامين من حدس الفنان هذا، ظهرت سلالة حاملات القنابل في "معركة الجزائر". هل هذه النساء مجرد أخوات- رفيقات للأبطال الوطنيين؟ بالتأكيد لا، لأن كل شيء كان يجري وكأن هؤلاء الأبطال، معزولون، خارج العشيرة، كانوا قد قطعوا شوطا طويلا من سنوات 1920 إلى ما يقرب من 1960، لملاقاة "الأخوات- العشيقات"، وهذا، في ظل السجون ووحشية الفيالقة.

كما لو أن الأمر استلزم المقصلة وأول ضحايا الفجر البارد لترتعد فرائص الفتيات خوفا على إخوانهن في الدم وليصرحن بذلك [10]. كانت المرافقة الموروثة حتى ذلك الحين هي الزعرودة التي تصاحب الانتصار والوفاة.

يدفع الأمر للتساؤل ما إذا كانت حاملات القنابل، وهن يتركن الحريم، قد اخترن بمحض الصدفة طريقتهن الأكثر مباشرة في التعبير: أجسادهن المعروضة خارجا وهنّ اللواتي يهاجمن الأجساد الأخرى. في الواقع، لقد أخرجن تلك القنابل كما لو أخرجن أثداءهن، وانفجرت تلك القنابل ضدهن، ضدهنّ تماما.

بعضهن صُعقت فروجهن بالكهرباء وسُلِخن من قسوة التعذيب.

إذا كان الاغتصاب كواقع و"تقليد" شائع في الحرب يعتبر، وهو أمر رهيب، عاديا مذ أن وُجدت الحروب، فقد أصبح – عندما كانت بطلاتنا ضحاياه من قبيل التكفير عن السيّئات – سببا مؤلما للاضطرابات التي عاشها المجتمع الجزائري كافة كصدمة. إن الشجب العلني للاغتصاب في الصحف وقاعات المحاكم ساعد بالتأكيد في تضخيم صداه الفاضح: الكلمات التي سمّته أثارت بصدد الاغتصاب رفضا جماعيا صريحا. حاجز من الكلمات سقط، انتُهك، حجاب تمزق أمام واقع مهدَّد ولكن كبته كان من القوّة بحيث ما كان يمكن تلافي العودة إلى نقطة الصفر. هذا الكبت طفى على التضامن في المصيبة الذي كان فعّالا للحظة. ما كشفت عنه الكلمات وقت الحرب، ها هو الآن كمّ سميك من المواضيع المحرمة يقع عليه، وها هو معنى ذلك الظهور ينقلب. ثم يحل

الصمت الثقيل الذي يُنهي استعادة الصوت المؤقتة. وينقطع الصوت مرة أخرى. كما لو كان الآباء، والإخوة أو أبناء العمومة يقولون«دفعنا بما يكفي ثمن الكشف عن الكلمات!» متناسين دون شك أن هناك نساءً نقشن على جسدهن المُدمّى هذا القول الذي يُعاقب مع ذلك بفرض صمت منتشر في الأرجاء.

الصوت المقطوع من جديد والنظرة المحرمة من جديد يعيدان بناء الحواجز التي وضعها الأسلاف. «عطر آت من مكان سيئ»، قال **بودلير**. لم يعد هناك حريم ولكن "بنْية الحريم [1] [1]" ما زالت قائمة تحاول فرض قوانينها في فضاءات بُور جديدة: قانون التواري، قانون الصمت.

لا أرى سوى في نُتف الهمسات القديمة كيفية السعي لاستعادة المحادثة بين النساء وبالذات تلك التي رسّخها **ديلاكروا** على اللوحة. ليس لي من أمل إلاّ في الباب المفتوحة على الشمس الطافحة، تلك التي فرضها **بيكاسو** بعد ذلك، تحريرا ملموسا ويوميا للمرأة.

*فبراير 1979*

# الحواشي

1- تتعارضُ موهبة دولاكروا الرَّسام المُجَدِّدة مع تقليدية دولاكروا الرَّجل.راجع صورته الجدُّ متحفظة عن المرأة عندما كتب في مذكرته بعد زيارته إلى العاصمة بخصوص الحرملك:

«يا للجمال - كما لو أنه عصر هوميروس - المرأة في الخِدْر تهتم بالأطفال، تغزل الصُّوف أو تُطَرِّز أروع الأقمشة. إنَّها المرأة كما أفهمها»

2 - النساء المحجّبات هنَّ أولا نساءٌ لديهنَّ حرية التَّنقل، وعليه فهنَّ يتمتَّعن بمزايا أكثر من النساء المُنعزلات كليا، وهؤلاء على العموم هنَّ زوجاتُ الأكثر ثراءً. حسب القرآن والسُّنة، لا يمكن للرَّجُل منع زوجته من الذَّهاب إلى الاستحمام – الحَمَّام – على الأقلّ مرة في الأسبوع. ولكن ما ذا لو كان وافر الغنى ليَبْنيَ حَمَّاما في مسكنه الخاص؟

في مسقط رأسي، وخلال سنوات الثلاثينات، كانت النسوة يتحَّجبن للذَّهاب إلى الحمام، ولكنهن كنَّ يذهبن إليه ليلا. فالمرأة المحجَّبة التي تتنقَّل نهارا في شوارع المدينة، هي في مرحلة أولى، امرأة "مُتَطورة".

وبعدها أصبح الحايك يعني قمع الجسد، عرفتُ نساءً شابات عند بلوغهن سن المراهقة كنَّ يرفضن التَّنقل محجبات. وهل كان عليهن كذلك البقاء سجينات وراء النوافذ والقضبان، ولا يرين الفضاء الخارجي إلا من بعيد ... تدبيرٌ مؤقت في البورجوازيات الجديدة : هو جعل زوجاتهم يتنقّلن قدر الإمكان في سيارات فردية (يسوقها هؤلاء بأنفسِهنَّ)، لإخفاء الجسد على هذا النّحو (تؤدي الصفيحة دور القماش السَّلَفي)، وللتَّنقل"معروضات" بأقل قدر ممكن.

3 - يروى أنّ قصّة حبّ حصلت بين الرسول محمّد وواحدة من بين نسائه، زينب أجملهن. وهي قصة نشأت من نظرة.

كانت زينب زوجة زيد، ابن الرسول بالتبنّي. ذات يوم احتاج الرسول أن يتحادث مع زيد؛ فقصد خيمته وناداه. أجابته زينب لأن زيدا كان غائبا.

وكانت زينب وراء ستار، لكن هبّة ريح رفعت الستار فظهرت المرأة الشابة من وراء الستار وكانت مرتدية لباسا شفافا، فتراجع الرسول محمد مرتبكا.

بعد ذلك أعطى زيد لزينب حريّتها. لكن كان على الرسول أن ينتظر نزول آية من القرآن تُشرعن الزواج من زوجة سابقة للابن بالتبنّي. بعدها تزوّج زينب التي ظلّت في مقابل عائشة (وأغلب الأحيان ضدّها) زوجة الرسول المفضّلة.

4 - ينظر. أغنية من أغاني ليلة الدخلة في الغرب الجزائري:

«يا لبنات من فضلكم
خلّيوني نرقد معاكم
كل ليلة "نطرطق" وحدة (منكم)
بالكابوس والمكحلة! ...

5 - انظر *المرأة العربية* للجنرال دوماس Daumas، الذي ألفه صاحبه قبل وقت قصير من وفاته في عام 1871، نشر في عام 1912.

6 - انظر ب. رافائيل لومان، *الدولة الفارسية في 1660*، باريس 1890.

7 - "ailleurs" عن نشأة القومية السياسية، منذ هجرة الطبقة العاملة في أوروبا في العشرينيات، وكذا بفضل حركة الأفكار الجديدة في المشرق العربي حيث تَكَوّن عدد من العلماء الناطقين بالعربية والمسلمين. (حركة حزب الشعب الجزائري و"العلماء")

8- "أغاني أسطح المنازل" هي أغاني لعبة البوقالة حيث تتبادل الفتيات مقاطع مقفاة، كعلامات الطوالع.

9 - يتعلق الأمر بالحوفي وهو طابع من الشعر الشعبي الذي يتغنى به. يذكر ابن خلدون بالفعل هذا النوع التقليدي الذي يسميه "الموالية".

تم العثور على نفس النوع من الأدب النسائي في مكان آخر من تلمسان، ولكن دائما في المدن الصغيرة في شمال الجزائر.

10 - راجع قبل 1962: زهرة ظريف، *وفاة إخواني*.

11 - *هيكل الحريم* – آلان غروريشار

# الفهرس


استهلال..... ص 9

ليلة قصّة فاطمة..... ص 13

**اليوم**

نساء الجزائر في شقّتهن..... ص 55

المرأة الباكية..... ص 111

**أمس**

لا وجود للمنفى..... ص 119

الأموات يتكلّمون..... ص 135

يوم رمضاني..... ص 181

نوستالجيا الحشود..... ص187

**ملحق**

نظرة محرّمة، صوت مقطوع..... ص 197

طبع هذا الكتاب
بمطبعة موڤان - البليدة
أكتوبر 2017

# آسيا جبار

# نساء الجزائر في شقّتهن

«نساء الجزائر في شقّتهن»؛ قصص تحكي وضعية المرأة في الجزائر، من الكاهنة إلى مسعودة وحدّة وليلى وفاطمة ومقدودة وعربية والطاووس وصارة والجميلات.....، المرأة التي ظلّت، رغم الدور الذي لعبته في مختلف مراحل كفاح الشعب الجزائري، مهمّشة وبقيت في الظلّ تعاني، في الوقت نفسه، شظف العيش. كتبت آسيا جبّار: «منذ نداء مسعودة (التي دعت رجال قبيلتها ألاّ يهربوا من مواجهة العدو وراحت، هي المرأة، تجابهه بمفردها فدفعت هكذا رجال قبيلتها إلى العودة إلى ساحة المعركة) واستجابة «الإخوة-الأحبّة، منذ اندفاع هذا الكبرياء النسوي المتحرّر، ماذا قلنا عن نسائنا؟» عن هذا السؤال أجابت آسيا جبّار بأن أعطت الكلمة لنساء ظلّ صوتهنّ مقطوعا، ظللن غائبات عن أنفسهنّ وعن أجسادهنّ، ليقلن ما يعتمل في صدورهنّ: إحساسهنّ بالغبن وتوقهنّ إلى تحرير أنفسهنّ، تحرير أصواتهنّ وتحرير أجسادهنّ وانعتاقهنّ من وضعية فرضتها عليهنّ رؤية ذكورية محافظة تعتبرهنّ عَوْرة يجب حبسها وراء الجدران، وإن خرجن يتم حبسهنّ وراء الحجاب وحرمانهنّ من نور الحياة. وحتى عندما يتقدّم الجسد خارج المنزل، خاصة بعد الدور الذي لعبته النساء الجزائريات، «حاملات النار»، كما تسمّيهنّ آسيا جبّار، في معركة التحرير، «يُنظر إليه وكأنّه «معروض» لكل الأنظار، فتصبح المشية متوتّرة والخطوة متسرّعة وتعبير النظرة متشنّجا». وفي مقابل الصوت الثقيل الذي يحاول أن يُنهي استعادة الصوت المؤقّتة لينقطع الصوت مرّة أخرى تنهي آسيا جبار كلامها -وهي المرأة- تعليقا على لوحات بيكاسو «نساء الجزائر» -بعد أن قارنت بين هذه اللوحات ولوحة دولاكروا- «ليس لي من أمل إلاّ في الباب المفتوحة على الشمس الطافحة تلك التي فرضها بيكاسو في لوحاته تحريرا ملموسا ويوميّا للمرأة.

مكتبة نوميديا 219
Telegram@Numidia_Library